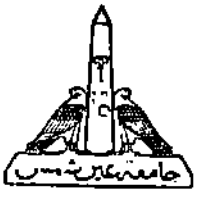

حولية كلية البنات
بجامعة عين شمس

العدد الخامس ـ يوليـــه ١٩٦٧

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة عين شمس
١٩٦٩

حولية كليـــة البنـات

رئيس التحـرير : الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد

سكرتير التحرير : الدكتور عبد العزيز مطر

فهرس

صفحة

من تاريخ نهر النيل (١) الفرع الكانوبى
للأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد ١

ذخائر البردى فى مكتبة ڤيينا (ألبرتينا)
للأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن ١٦

قضايا نقدية فى كتاب الصناعتين
للدكتور ماهر حسن فهمى ٥٦

نشأة اللغة وتطورها
للدكتور عبد الحميد سند الجندى ٦٩

ملاحظات على الموسوعة العربية
للدكتور عبد العزيز مطر ٨٩

الجغرافية التاريخية لمدينة أسوان
للدكتورة عطيات عبد القادر حمدى ١٠٥

التوافق النفسى للطالبة الجامعية
للدكتورة منيرة حلمى ١٤٥

من تاريخ نهر النيل

(١) الفرع الكانوبى

للأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
رئيس قسم الجغرافية ووكيل كلية البنات
بجامعة عين شمس

(١)

لم تكن دلتا النيل فى عصورها القديمة كعهدنا بها الآن ، أرضا منبسطة خصبة يجرى فى شرقها فرع دمياط وفى غربها فرع رشيد . وانما كانت كدالات الأنهار جميعا فى طفولتها ؛ أرضا كثيرة المناقع لم تتحدد فيها مجارى الماء ، ولم يتخذ النهر فيها طريقا أو طرقا ثابتة يسلكها حتى البحر ، بل كان دائم التردد بين مجرى وآخر ، اذ كانت فروعه العديدة تحمل الطمى فى مياهها فترسب منه ما ترسب فى مجاريها ، حتى اذا ما ضاق قطاع أحدها عن حمل تصرفه فاضت المياه على الجانبين بما تعلق فيها من رواسب ، ويستمر بها الحال كذلك حتى يرتدم المجرى أو يكاد بما يتجمع فيه من الطمى عاما بعد عام . ويكون نتيجة ذلك أن تتحول مياه الفيضان الى منخفض آخر مكونة مجرى جديدا .

ويذكر « هيرودوت » [١] المؤرخ الاغريقى أن الدلتا على عهده كان يشقها سبعة فروع رئيسية للنيل ، وأن خمسة منها كانت فروعا طبيعية ، أما الفرعان الآخران فصناعيان . وكان فى القسم الشرقى من الدلتا ثلاثة فروع هى بالترتيب من الشرق الى الغرب .

١ — الفرع البيلوزى وكان مصبه عند مدينة بيلوز « الفرما » التى حمل اسمها .

٢ — الفرع السائيتى Saitic وكان يصب عند أم فارج الى الشرق من بورسعيد بنحو ٣٠ كيلومترا .

(١) هيرودت : الكتاب الثانى الفقرة ١٧

٣ — الفرع المنديسى وكان يصب قريبا من قرية الدبية الحالية .

أما وسط الدلتا فلم يكن يجرى فيه الا فرع طبيعى واحد يتفرع من النيل عند رأس الدلتا ويصب عند فتحة البرج ويعرف باسم « السبنيتى » ؛ وفرع آخر صناعى يعرف باسم الفرع « البوكولى » كان يتفرع فى شمال سمنود ويسير مع فرع دمياط الحالى حتى مصبه .

وفى غرب الدلتا وجد فرعان أحدهما طبيعى وهو الفرع « الكانوبى » والآخر صناعى وهو الفرع « البولبيتى » ... أما الأول . وهو على ما يقال كان الفرع الرئيسى للنيل أو على الأقل كان أحد الفرعين اللذين يحدان الدلتا [١] ، فكانت بدايته عند بلدة « وراق العرب » الحالية ثم يسير فى اتجاه شمالى غربى حتى يصب عند ساحل أبو قير [٢] حيث نشأت مدينة هرقل Heracleum (الطابية الحمراء الآن) . وأما الآخر وهو الفرع الصناعى فكان يخرج من الأول عند قرية « زاوية البحر » الحالية ويتجه شمالا سالكا مجرى فرع رشيد الحالى حتى يصب فى البحر عند بلدة بولبتينى Bolbitine التى حمل اسمها . ويذكر « پلينى » أن هذا الفرع وأخاه البوكولى حفرا فى العصر اليونانى ليصبح بهما النيـــل ذا فروع سبعة وهو عدد له فى العقائد اليونانية القديمة صفات خاصة [٣] .

هذه هى الفروع التى ذكرها هيرودت مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى نفسها الفروع التى ذكرها سترابون مؤرخ القرن الأول الميلادى مع فرق بسيط هو أنه أطلق على الفرع السائيتى اسم التـــانيتى وما هو الا تحريف لا يستحق الذكر ؛ كما أنه عد الفرع البوكولى فرعا طبيعيا أطلق عليه اسم الفرع انفاتيتى وجعله يبدأ من رأس الدلتا متتبعا الفرع السبنيتى ثم مجرى فرع دمياط الحالى ابتداء من سمنود حتى البحر [٤] . وربما كان السبب فى هذا أن الفرع البوكولى زادت أهميته وكثر استعماله خلال القرون الخمسة التى تفصل بين هيرودت وسترابون فلما رآه الأخير على حالته الجديدة عده فرعا طبيعيا .

---

(١) جيرار ص ٣٩٨

(٢) عاملنا ابو قير معاملة الكلمة المفردة . وقد ذكرها الزبيدى فى تاج العروس جزء ٣ تحت كلمة بقر أى أن الباء من بنية الكلمة وهذا يثبت أنهامفردة وقد عاملنا جمع الاسماء الأخرى نفس المعاملة .

(٣) پلينى : الكتاب ٥ الفصل ١١ الفقرة ٥

(٤) سترابون : الكتاب ١٧ الفصل ١ الفقرة ١٨

أما بطلميوس — وقد عاش فى لقرن الثانى بعد الميلاد — فانه وان يكن قد اتفق مع سابقيه فى أن الدلتا كان يجتازها سبعة فروع للنيل الا أنه يخالفهما فى اعتباره الفرع الكانوبى هو وحده الفرع الطبيعى . أما الفروع الأخرى فقد كان السكان يقومون بحفرها [١] .

وينفرد بطلميوس بين المؤرخين القدماء بذكر فرع شاذ يطلق عليه اسم الفرع «البوتى» ويصفه بأنه كان يسير مستعرضا ليربط بين فروع النيل القديمة فى مجاريها الدنيا ؛ ولا شك أن مثل هذا الفرع — ان كان قد وجد — فرع صناعى ولا يمكن الا أن يكون كذلك . وهذا يجعلنا نتساءل عن الغرض الذى أنشىء من أجله على هذا الوضع الشاذ . ومع أننا لا نستطيع أن نجزم باجابة واحدة على مثل هذا السؤال فانه ليس بعسير أن نفترض أن الفرع البوتى حفر ليؤدى غرضا مزدوجا ، فتنصرف اليه مياه الفروع الأخرى من النيل ، ويحول دون وصول تأثير مياه البحر الملحة الى أراضى الدلتا الشمالية . ولو صح مثل هذا الفرض لكان معناه أن المصريين القدماء فكروا فى مشروعات الصرف لتخليص الأراضى من الأملاح . وقد تجددت هـــذه الفكرة فى العصر الحديث . وكان « مصرف المحيط » فى شمال الدلتا بعثا جديدا للفرع البوتى القديم . أو من جهة أخرى ربما كان هذا الفرع قد حفر لغرض ملاحى . ولكن ليس لدينا دليل يثبت مثل هذا الغرض أو غيره .

فاذا ما تركنا بطلميوس فى القرن الثانى ووصلنا الى القرن الرابع نجد المؤرخ « أميان مرسلان » يتفق مع سترابون فى كل شىء الا فى تسميته للفرع الكانوبى اذ يطلق عليه اسم الفرع الهرقلياتى [٢] ولعله أخذ هذا الاسم من مدينة هرقل (هراكليوم) التى كانت تقع على مصبه .

ثم يأتى بعد هذا مؤرخو العرب ومنهم الخوارزمى فى القرن السابع الميلادى (الثانى الهجرى) وابن عبد الحكم فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى (النصف الأول من القرن الثالث الهجرى) وابن سيرابيون فى النصف الثانى من القرن نفسه ثم الادريسى فى القرن الثانى عشر فنجدهم يتناولون فروع النيل

(١) بطلميوس : الكتاب ٤ الفصل ٥ الفقرتان ١٦ ، ١٧
(٢) اميان مرسلان : الكتاب ٢٢ الفصل ١٥

فى ايجاز ، ويظهر من كلامهم الاهتمام بفرعين رئيسيين . فيذكر الخوارزمى أن الفرع الشرقى يصب عند دمياط والغربى عند الاسكندرية . أما الفروع الأخرى فعددها خمسة وتصب فى مناطق بين الفرعين . ويوافقه على ذلك ابن عبد الحكم ومن كلامهما يفهم أنفروع النيل فى شرق الدلتا قد اندثرت وتحولت المياه جميعها الى فروع وسط الدلتا وغربها .

(٢)

ويجمع المؤرخون على أن الفرع الكانوبى كان الفرع الرئيسى للنيل ولا يشذ منهم سوى هيرودوت الذى يقدم عليه الفرع السبنيتى فى حين أن بطليموس يذهب الى أنه الفرع الطبيعى الوحيد وما عداه ففروع صناعية .

وكان مجرى ذلك الفرع ينفصل عن النيل عند قمة الدلتا القديمة أمام قرية « وراق العرب » ويتجه شمالا سالكا مجرى فرع رشيد الحالى حتى بلدة « زاوية البحر »[1] . ولكن هذا الرأى لا يتفق مع ما ذهب اليه محمود باشا الفلكى فى مذكراته[2] اذ يرى أن الفرع الكانوبى كان يمر بقـــرى أبو الغيط وشلقان وأبو رقبة ومنوف ثم علقام التى تقع على فرع رشيد . ولعل الذى دفع بالفلكى باشا الى هذا التصور هو وضعه بلدة ميـوفيس Memophis التى كانت على النهر مكان بلدة منوف معتمدا فى ذلك على تشابه الأسمين . ولكنه لو عرف أن سترابون وضع هذه المدينة بين هرموبوليس ونقراطيس لما ذهب هذا المذهب خصوصا وأنه هو نفسه الذى حقق أن الأولى فى مكان « أبو حمص » والأخرى فى مكان « كوم جعيف » .

ومن عند زاوية البحر التابعة لمركز كوم حمادة كان الفرع الكانوبى يترك مجرى فرع رشيد ويتجه نحو الشمال الغربى ، وكلمة زاوية البحر نفسها تشعر بتفرع النهر فى هذه المنطقة وتكوينه منحنى ظاهرا . وليس ببعيد أن تكون البلد

---

(١) عن مجرى الفرع الكانوبى راجع عمر طوسون (١٩٢٢) ص ص ٢٩–٤٢ . (١٩٢٥) ص ص ١٦١ — ١٧٠ ؛ (١٩٤٢) ص ص ٤ — ٨

(٢) الفلكى (١٨٧٢) ص ٨٠ — ٨٩

قد حملت الاسم نتيجة لهذا الوضع الطبيعى[١] . ومن عند هذه البلد كان النهر يتجه نحو نقراطيس ومكانها الآن « كوم جعيف » .

ومن دراسة خريطة ترع غربى الدلتا تبين وجود ترعة هامة تحمل اسم أبو دياب الأعلى تأخذ من فرع رشيد عند زاوية البحر وتصل الى كوم جعيف وموقع هـــذه الترعة ينطبق تمـــاما على ما ذكره سترابون[٢] بالنسبة للفرع الكانوبى عند الكلام على نقراطيس .

واذن فيمكن القول بأن الفرع الكانوبى كان يسلك المجرى الذى تسلكه الآن ترعة أبو دياب من زاوية البحر حتى كوم جعيف . وتؤيدنا فى هذا دراسة الخطوط الكنتورية[٣] لهذه المنطقة وقد درستها وزارة الأشغال عندما فكرت فى اقامة مشروع للرى والملاحة يخترق محافظة البحيرة حتى الاسكندرية فمسحت أراضى المديرية وظهر لها أن ترعة أبو دياب والأراضى المحيطة بها أكثر ارتفاعا وأعظم خصبا من الأراضى الأخرى فى المديرية . ومثل هذه الظاهرة ، ظاهرة وجود « هضاب » ضيقة مستطيلة خصبة ترتفع عن الأراضى المجاورة معروفة فى مصر فى كل الأماكن التى كانت تجرى فيها مجارى مائية قديمة وذلك نتيجة للطمى التى تحمله وترسبه بكميات كبيرة على الأراضى التى تجاورها . وبناء على هذا الأثر يمكن أن تتتبع سير النهر .

بعد كوم جعيف كان الفرع الكانوبى يستمر فى سيره حتى قرية جنباواى فاذا ما تركها نجده كما رسم فى خرائط الأطلس الملحق بكتاب « وصف مصر » يمتد فى اتجاه دمنهور ويمر ببلدة العوجا ثم قرية دسونس أم دينار وقراقص حتى يصل الى دمنهـــور (هرموپوليس پارڤا Hermopolis Parva) التى يقول عنها

---

(١) من المحقق ان القسم المتجه هذا الاتجاه من الفرع الكانوبى وجد قبل الفتح الاسلامى غير أن اسمه القديم عرب فى الزمن الذى حدث فيه هذا الفتح كما حدث مثلا فى ناحية پيلوز التى معناها باللغة اليونانية الطين واسمها الحالى الطينة .

(٢) استرابون الكتاب ١٧ الفصل ٢٣

(٣) راجع الخريطة الكنتورية لمديرية البحيرة ١/ ١ : ٢٠٠٠٠ مصلحة المساحة (١٩١١) .

استرابون انها بنيت على نفس النهر [١] . ومن دمنهور كان الفرع الكانوبى يتبع قناة دمنهور القديمة الموضحة فى الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر والتى يشغل موضعها فى الوقت الحاضر الطريق الزراعى بين دمنهوروالعطف . ويستمر فى سيره الى أن يتصل بترعة الأشرفية بجوار بلدة أفلاقة . ومن هناك يتبع النهر مجرى قناة الاسكندرية القديمة حتى بلدة الكريون وشيديا (النشو البحرى) [٢] التابعة لمركز كفر الدوار . وفى كل هذه المنطقة لا يوجد أى مجرى آخر يحتمل أن مياه الفرع الكانوبى كانت تجرى فيه سوى هذه القناة . ونجد فى الواقع أن ارتفاع السطح على جانبيها وخصوبة الأراضى حولها والتلال الخربة والأكوام القديمة على امتدادها تؤيد الحقيقة القائلة بأنها تربط بشكل لا جدال فيه نقطتين موجودتين على الفرع المذكور .

وبعد شيديا يتبع الفرع الكانوبى ــ كما يقول محمود باشا الفلكى ــ مجرى ترعة الادكاوية [٣] القديمة تاركا كوم مازن على يمينه ثم يسير متتبعا مرتفع الأرض الصغير الفاصل بين بحيرة أبو قير وبحيرة ادكو والذى يرجع فى تكوينه الى ذلك الفرع والذى أصبحت جوانبه تبعا للقانون الطبيعى أكثر ارتفاعا من الأراضى المحيطة به نتيجة للارساب . ثم يسير الفرع الكانوبى بعد ذلك بين كوم الدهب وكوم الطرفاية حتى يصل الى البحر عند الكوم الأحمر المسمى الآن بالطابية الحمراء [٤] .

---

(١) يشك بعض الكتاب ومن بينهم الاستاذ بريتشيا Preccia فى كتابه عن الاسكندرية فى أى تكون مدينة دمنهور قائمة فى موقع هرموبوليس القديمة ؛ ولكن الأمير عمر طوسون ــ (١٩٢٢) ص ٣١ وما بعدها ــ يعارض هذا الرأى بشدة ويعتمد فى معارضته على كتاب دليل انطونان L'Intnièr aire S'antonin الذى يذكر أن المسافة بين شيرى (الكريون الحالية) وهرمو بوليس هى ٢٤ ميل رومانى أى ما يعادل ٣٥ ١/٢ كيلومتر ؛ ولما كانت المسافة بين البلدين عن طريق الفرع الكانوبى كما هو مرسوم فى الخريطة والذى كان بالتأكيد الطريق الفعلى الذى يصل بين البلدين اللذين ذكرهما الدليل هى ٣٦ ١/٢ كيلومتر . فان الرأى الذى ذهب اليه الأمير طوسون ليس ببعيد عن الصواب .

(٢) عمر طوسون (١٩٢٢) ص ٣٢ ، (١٩٤٢) ص ٦

(٣) عمر طوسون (١٩٤٢) الخريطة رقم ٤ . هذه الترعة سميت فيما بعد الترعة الكانوبية وتحتل مجراها الآن ترعة منشأة بولين .

(٤) المصدر السابق الخريطة رقم ٣

ويقول محمود باشا الفلكى ان هذه المنطقة هى مكان مدينة هراكليوم.القديمة التى كانت قائمة عند مصب النهر فيذكر « أن سبر الأغوار التى قام بها المهندس م.لاروس فى سنة ١٨٥٩ لا تترك مجالا للشك فى أن موقع مصب الفرع الكانوبى كان فى سفح تل الكوم الأحمر ، فمجرى مصب النهر يرى واضحا فى قاع مياه الخليج (خليج أبو قير) اذ يعينـــه رأسان ممتدان تحت المـــاء من الكوم الأحمر الى أن يقتربا من جزيرة أبو قير على مسافة ٦ كيلومتر من الشاطىء . ولا يزالان الى الآن يضمان بين جوانبهما مجرى المصب على عمق ٦ أو ٧ أمتار تحت سطح الماء ، وقد تكون هذان الرأسان من طمى النيل بالطبع كما تكون الرأسان اللذان نراهما الآن مكونين لرأس البر عند فرع دمياط ولرأس رشيد عند فرع رشيد »[١] ولا بد أن رأس المصب كان قديما فوق مستوى سطح البحر وبذلك يكون مع الساحل شبه ميناء لمدينة كانوب .

ولقد تحدث « بلينى » عن امتداد هذا الفرع فى البحر حتى قرب جزيرة أبو قير فذكر أنه توجد بعض الجزر على الساحل احداها فى المصب الكانوبى للنيل والأخرى تربطها قنطرة مع الاسكندرية[٢] .

ويمكن الآن أن نعرف بوضوح لماذا حمل هذا الفرع اسم « كانوب » فهو نظرا لقربه من تلك المدينة وامتداده فى البحر قد أكسبها ميزة فريدة بأن جعل لها مع ساحل رأس أبو قير ميناء ممتازا . ولو كان الفـــرع الكانوبى ينتهى عند الساحل مباشرة بدون ذلك اللسان الممتد فى البحر لكان من المحتمل أن يشتق اسمه من نوقراطيس أو هيراكليوم ، فيسمى الفرع النقراطى أو الهراقليوتى .

(٣)

ولقد كان يتفرع من الفرع الكانوبى الكبير فرعان آخران أقل منه أهمية أحدهما عند الرافقة (زاوية البحر) حيث كان النهر يبدأ فى تحويل اتجاهه الى الشمال الغربى ، وكان هذا الفرع يتجه شمالا تقريبا حتى بلدة بولبتينى (رشيد الحالية)[٣] ويتبع مجرى فرع رشيد الحالى وكان يوصف فى بعض الأحيان بأنه

(١) الفلكى (١٨٧٢) ص ٧٩
(٢) بلينى المجلد ٧ ص ٣٤
(٣) عمر طوسون (١٩٢٢) ص ٤ ، (١٩٤٢) ص ١٠

ترعة حفرها الأهالى . أما الفرع الآخر فكان ينفصل عند بلدة الكريون ويتجه الى الغرب على وجه التقريب ويصب بالقرب من مدينة الاسكندرية وكان يوصف بأنه ترعة ويطلق عليه اسم ترعة شيديا .

ويذكر هيرودت أن الفرع البولبيتى لم يكن طبيعيا وكان يسمى ترعة بولبتين وقد استمرت هذه التسمية حتى عصر استرابون ، ومن الجائز أن تصرف الترعة قد زاد مع الزمن مما أدى الى زيادة أهميتها حتى اعتبرت فيما بعد فرعا من فروع النيل ، وقد ظل هذا الفرع يحمل اسم الفرع البولبيتى حتى العهد العربى حيث بدأ مؤرخوهم يطلقون على الجزء الأعلى منه (وهو فى مجرى الفرع الكانوبى) اسم « فرع الاسكندرية » أما الجزء الأدنى فيطلق عليه اليعقوبى اسم فرع ستراوه[١] . ثم نجد الأدريسى يدخل الجزء الممتد من أبو نشابة حتى شابور فى القناة التى تمتد الى الاسكندرية ويطلق عليها اسم الفرع الشابورى[٢] .

وأخيرا نجد الفرع وقد أصبح يحمل اسم فرع رشيد ولا تستطيع أن نحدد بالضبط متى أطلقت عليه هذه التسمية ، ولكننا نستطيع أن نقول أنها حدثت ولا بد بعد قيام مدينة رشيد قياسا على ما نعرفه من أن الفروع القديمة للنيل كانت تحمل أسماء المدن القائمة عند مصباتها كنسبة الفرع البليوزى الى بيلوز والكانوبى الى كانوب بل وهذا الفرع الذى تتحدث عنه الى بولبتينى .

ولما كان من الثابت أن مدينة رشيد قد بنيت على أنقاض مدينة بولبتين القديمة فى أواخر القرن التاسع الميلادى (حوالى ٨٧٠م)[٣] فلا بد أن تسميه هذا الفرع باسم رشيد انما جاءت بعد هذا التاريخ واستمرت حتى اليوم .

أما ترعة شيديا فكانت تنفصل من الفرع الكانوبى عند بلدة الكريون ثم تنتهى عن الاسكندرية . وينسبها جان أسقف نيكيو Jean de Nikiou الى

(١) اليعقوبى (١٨٩٢) ص ٣٣٠
(٢) الادريسى (١٨٩٤) ص ١٤٩
(٣) بريتشيا ص ٥٥

كليوباترة [١] . ويصفها المسعودى بأنها بنيت من الأحجار والرخام [٢] . ويذهب الأمير طوسون الى أن هـــذه الترعة مع الفرع الكانوبى كانت تكون ترعة الاسكندرية القديمة [٣] . وهذا يتفق مع ما ذهب اليه كثير من مؤرخى العرب وان يكن البعض منهم على خلاف ذلك .

أما نسبة حفر هذه الترعة الى كليوباترة فهى أمر لا يقبله العقل بل يجب أن نرجع بها الى زمن أبعد من هذا ، ان لم يكن قبل فتح الاسكندرية لمصر فهو على الأقل فى عهده ، اذ لا نحسب أن الاسكندر يختط مدينـــة الاسكندرية (٣٣٣ ق.م) لينافس بها منف ــ وقد نجح فى ذلك فعلا ــ مكان قرية راقوده الصغيرة القائمة على ساحل البحر دون أن يفكر فى مدها بماء الشرب اللازم لها ، ودون أن يعمل على سهولة اتصالها بالداخل كما هى سهلة الاتصال بالخارج !

والواقع أن التاريخ يشهد بأن ترعة الاسكندرية كانت وما زالت العامل الفعال فى حياة المدينة وعظمتها . وقد بلغت الاسكندرية أوج مجدها فى أيامها الأولى ، حتى ليقال انها لم تكن أقل فى عظمتها مما هى عليه الآن ، وذلك بسبب عناية البطالمة بها وتعهدهم لترعتها ، فلما كان عصر الرومان استمرت تلك العناية واستمرت معها عظمة المدينة ، حتى أريد بدولتهم الزوال وقامت الفتن والثورات فأهملوا الترع ومن بينها ترعة الاسكندرية فكان مصيرها الردم وكان مصير سكان الاسكندرية التناقص بعد أن أصبحوا مضطرين الى السير يوما كاملا فى سبيل الحصول على الماء العذب عند الكريون .

---

(١) عمر طوسون (١٩٤٢) ص ١٣

(٢) « وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣م). وقد كان الاسكندر بنى الاسكندرية على هذا الخليج من النيل ، وكان عليها معظم ماء النيل فكان يسقى الاسكندرية وبلاد مريوط ، وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة . وقد بلط ارض خليجها فى المدينة بالأحجار والمرمر . وانقطع الماء عنها لعوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله ، فصار شربهم من الآبار وصار النيل على يوم منهم » . المسعودى ص ٢٠٩ ــ ٢١٠

ومسافة اليوم التى ذكرها المسعودى هى عبارة عن المسافة من الاسكندرية الى الكريون أى طول ترعة شدبا القديمة .

(٣) عمر طوسون (١٩٢٣) ص ص ١٩٤ ــ ٢٠٨ ؛ (١٩٢٥) ص ص ١٩٨ ــ ٢١٢ ؛ (١٩٤٢) ص ص ١١ ــ ٢٣

ثم فتح العرب مصر فى سنة ٢٠ هـ ـ ٦٤١ م واتخذوا من الفسطاط التى أنشأوها عاصمة لهم فتحول اليها سكان الاسكندرية ، لا لأنها أصبحت العاصمة فحسب بها ولما أصاب ترعتهم من اهمال . ولقد اضطر من لم ينزح من السكان الى الاستعانة بالصهاريج تملؤها مياه الأمطار شتاء ، وبما تحمله الترعة من ماء قليل يصل الى المدينة صيفا .

ويمكن أن نجمل ما سبق فى أن المجرى الذى أطلق عليه اسم ترعة الاسكندرية عند الفتح العربى كان يبدأ من زاوية البحر فيسير الى النقيدى ، فدنشال ، فدمنهور ، فافلاقة ، فكفر الحمايدة ، فالكريون ، فالاسكندرية . أى أنها كانت تشغل جزء كبيرا من الفرع الكانوبى ، ما عدا الجزء الذى كان يسير من الكريون نحو الشمال الى خليج كانوب (أبو قير) وقد حلت محل هذا الجزء ترعة الكانوبية فيما بعد وتحتله الآن ترعة منشاة بولين .

ويذهب عمر طوسون الى أن الجزء من هذه الترعة الذى يمتد من النيل الى كفر الحمايدة قد تغير موضعه خمس مرات[1] . أما الجزء الممتد بين كفر الحمايدة والكريون فلم ينقل موضعه اطلاقا ؛ وهذا المجرى هو أقدم المجارى التى ظلت مستعملة فى مصر كلها . وهو يتقابل الآن مع جانب من ترعة المحمودية فى بعض جهاتها ؛ ولكن الجزء الأكبر من هذا القسم ظل منعزلا عن المحمودية عندما أجرى حفرها على عهد محمد على ويجرى فيه الآن ترعة صغيرة تحمل اسم ترعة الناصرى.

أما القسم الممتد من الكريون الى الاسكندرية فهو يشغل موضع ترعة شيديا القديمة برمته ، تلك الترعة التى استعيض عنها بترعة المحمودية الحالية عدا موضعين :

---

(١) يمكن تلخيص النتائج التى وصل اليها عمر طوسون فى أن مخرج الترعة من النيل كان :

١ ـ من الرافقة (زاوية البحر) وذلك من الفتح العربى فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) الى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) أى ٣٠١ سنة .

٢ ـ من شابور وذلك لمدة ٧١ سنة من ٣٣٠ هـ ـ ٤٠٤ هـ (٩٤٣ م ـ ١٠١٣ م) .

٣ ـ من الظاهرية وذلك لمدة ٢٩٧ سنة من ٤٠٤ هـ ـ ٧١٠ هـ (١٠١٣ ـ ١٣١٠ م) .

٤ ـ من العطف وذلك لمدة ١١٢ سنة من ٧١٠ ـ ٨٢٦ هـ (١٣١٠ ـ ١٤٢٢م).

٥ ـ من الرحمانية وذلك لمدة ٣٩٤ سنة من ٨٢٦ ـ ١٢٣٢ هـ (١٤٢٢ ـ ١٨١٦ م) .

الأول : الكيلو الأول بعد الكريون الواقع شمال المحمودية .

الثانى : المسافة بين الكيلو ٦٩ ، ٧١ من المحمودية أى غرب مطار النزهة وهنا نجد مجرى الترعة القديم يقع جنوب المحمودية[١] .

(٤)

كان الفرع الكانوبى والترعتان الخارجتان منه تصب كلها فى البحر المتوسط مباشرة ، ولكن كانت هناك مجارى مائيـــة أخرى تصب فى بحـــيرة مريوط . ويذهب ابن سيرابيون أحد جغرافى العرب فى القرن التاسع الى أن أحد هذه المجارى كان فرعا للنيـــل يطلق عليه اسم « الفـــرع السكندرى » . وينفرد ابن سيرابيون بهذا وحده ، ويقول انه كان يأخذ من النيل عند قناطر اللاهون بالقرب من بلدة الحمام ثم يمر بقصر يوسف متجها فى حدود السهل الى سقارة ويتجه الى الشمال الغربى ليصب فى بحيرة مريوط . ويذكر ابن سيرابيون أنه كان يخرج من هذا الفرع عند بدايته فرع آخر يتجه جنوبا بعكس سير المياه الطبيعى سالكا فى طريقه مجرى بحر يوسف الحالى وكان ينفصل من هذا الفرع الأخير مجرى آخر عند اهناسية يتجه الى ديروط وينتهى عندها[٢] .

ويربط عمر طوسون[٣] هذا الفرع السكندرى بترعة « العسارة » التى ذكرها بعض الكتاب الفرنسيين[٤] فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وتبدأ من الفيوم وتسير محاذية للنيل ثم تنتهى فى بحيرة مريوط ويربط مجراها بترعة الجيزة حتى كوم أبو راضى ثم بمصرف المحيط من كوم أبو راضى حتى برقاش ثم برياح البحيرة من برقاش حتى الطيرية وأخيرا من الطيرية كانت تتجه غربا فتقطع ترعة النوبارية على بعد ٥ ك.م من دست الأشراف ومن هناك كانت تتبع مجرى ترعة الحاجر حتى تصب فى بحيرة مريوط[٥] .

(١) عمر طوسون (١٩٢٥) ص ٢١٢ ، (١٩٤٢) ص ٣٣
(٢) نبيه باشا (١٩٣٨) ص ٣
(٣) عمر طوسون (١٩٢٥) ص ص ٢١٢ — ٢١٣
(٤) راجع دانفيل D'Anville (١٧٦٦) الخريطة ، مايبه Maille (١٦٩٢) الخريطة .
(٥) عمر طوسون (١٩٢٥) اللوحة ١٤

ويذكر عمر طوسون أن منسوب ترعة « العسارة » كان يحفظه ورود الماء من بحيرة موريس خلال السنة ، اذ كان من الضرورى الاحتفاظ بمستوى ثابت لها حتى يساعد على الملاحة بين مصر العليا وبحيرة مريوط ، ويعتقد أن هذه الترعة بدأت تجف فى بعض أجزاء السنة بل وربما فى الجزء الأكبر منها عندما بدأت بحيرة موريس تتوقف عن تأدية وظيفتها كخزان ، ثم ردمت الرمال هذه الترعة فى المسافة بين الخطاطبة والطيرية نظرا لاقتراب حافة الصحراء منها وكانت نتيجة هذا اختفاء الترعة وأصبحت مريوط بحيرة ملحة شبه جافة .

ومهما يكن من أمر فقد كتب عمر طوسون فى هذا الموضوع سنة ١٩٢٥ قبل أن تظهر الأبحاث القيمة التى قامت بها المس كيتون طومسون والمس جاردنر [١] فى سنة ١٩٢٩ والتى أثبتت أنه لم يكن هناك بالمرة بحيرة ذات مستوى عال فى الفيوم فى العصور التاريخية بل ان البحيرة كانت على عهد الأسرات الأولى على مستوى مترين تحت سطح البحر ، ولما كانت اللاهون على ارتفاع ٢٦م فوق سطح البحر فليس هناك أى احتمال لامكان رجوع الماء من البحيرة الى وادى النيل .

وكان هيرودت [٢] أول من أذاع قصة أن البحيرة كانت خزانا يصل اليه الماء من النيل فى ستة أشهر ثم ينصرف فى الستة شهور الأخرى لاستخدامه فى الرى ، ولكن كيتون طومسون وجاردنر فى كتابهما عن الفيوم [٣] تثبتان أن البحيرة التى تحدث عنها هيرودت [٤] لم تكن بحيرة تاريخيـــة بل كان مستواها دون مستوى سطح البحر وبداية التاريخ الفرعونى ؛ وأغلب الظن أن هيرودت كما يقول الأستاذ شيجلبرج « لم ينقل تاريخا وانما نقل قصصا تاريخية قصها عليه التراجمة كما هى حالهم اليوم مع السياح المحدثين » [٥] .

---

(١) كيتون طومسون وجاردنر (١٩٢٧) ؛ (١٩٢٩) .
(٢) هيرودت (الكتاب الثانى) ص ١٤٩ طبعة لوب Loep
(٣) كيتون طومسون وجاردنر (١٩٣٤) ص ٢١
(٤) يفهم من أقوال هيرودت ان البحيرة كانت على ارتفاع ٢٠م أى ترتفع ٦٥م عن مستواها الحالى .
(٥) شيجلبرج نقلا عن دى كوسون ص ٧٨

ويضاف الى ذلك أنه من الثابت أن بطلميوس الثانى (فيـــلادلفوس) (٢٨٥ — ٢٤٦ ق.م) ضبط فيضان النيل الى البحيرة حتى يوسع الأراضى الزراعية الجافة بها ليستقر فيها الجنود المقدونيون المستعمرون .

وأظن أن هذا يدل على أن « نهر ابن سيرابيون » أو ترعة العسارة بمعنى آخر لم تكن تتغذى من بحيرة موريس وانما من بحر يوسف وربما كانت تزداد مواردها من النيل فى شمال الفيوم كما يظهر من خريطة دانفيل . ويظر المجرى الأدنى لهذه الترعة واضحا فى الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر ولا تزال بقاياها موجودة حتى الآن فى عدد من البرك والمناقع المستطيلة ، وقد اكتشف محمود باشا الفلكى قنطرة ترتبط بهذه الترعة الى الغرب من كوم بلال ويقول عنها : « انه من الممكن أن نربط هذه الترعة بما سماه القدماء النهر الغربى أو بما عرف عند الرومان باسم نهر ليكوس Lycus ويمكن أن نربطها فى نهايتها الملتوية بترعة دراجون Dragon التى ذكرها جان دى نيكيو » .

ويذكر استرابون ان كان هناك عدة قنوات تحمل مياه النيل الى بحيرة مريوط غير الترعة التى ذكرناها . وقد تتبع «بوتى» أحد هذه المجارى ويبدأ من الفرع الكانوبى بالقرب من نقراطيس ويمر بكوم حمادة وكوم اللبن وكيمان البرنوجى والكوم الأخضر ثم يدخل بحيرة مريوط عند كوم تروجة التى كانت فى وقت ما من المدن الكبرى والتى كانت بداية الطريق البرى الى وادى النطرون ؛ وكان طول هذه القناة ٦٠ ك.م . وكانت من أهم طرق المواصلات والتجارة بين أجزاء البلاد . ولقد كانت نقراطيس التى ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد فى وقت ما من أهم المدن التجارية فى مصر ، ولعل تجارتها كانت تصل الى البحر بواسطة هذه القناة التى توقفت عن الجريان باختفاع الفرع الكانوبى .

بقى أن نؤكد أن ما ذهب اليه ابن سيرابيون من وجود فرع للنيل يصب فى بحيرة مريوط أمر لا صحة له وان يكن قد وجد بالفعل مجار مائية تصب فى البحيرة. ويؤيد هذا الرأى بجانب اجماع المؤرخين عليه الأبحاث التى قام بها ت.هـ. سترن T. H. Stern أحد موظفى مصلحة الرى المصرى فى سنة ١٩٢٠ بعد دراسة مستفيضة لتربة البحيرة والمنطقة المحيطة بها .

(٥)

ويذهب البعض الى أن الفرع الكانوبى لم يكن آخر فرع للنيل جهة الغرب ، بل كان هناك فرع آخر يخترق منطقة مريوط وكان هو ــ عندهم ــ السبب فى غنى اقليم مريوط فى العصور القديمة ويدللون على ذلك بعدة براهين منها :

١ ــ وجود مجرى مائى قديم فى المنطقة المجاورة لوادى النطرون [١] .

٢ ــ ما ذكره هيرودت من أن الليبيين يشربون من مياه النيل ويعيشون فى منطقة يرويها ذلك النهر [٢] .

٣ ــ حقيقة أن مستوى الأرض فى مريوط مرتفع وهذا يجعل فكرة وجود فرع للنيل يرويها مقصورة على المناطق المنخفضة فقط ؛ ولكنهم يعترضون على هذا بأنه لا يجعل من المستحيل وجود فرع للنيل فقد حدثت كثير من الزلازل فى منطقة الاسكندرية . ومن الجائز كما يقول الأستاذ شفينفورت [٣] أن تكون مستويات منطقة مريوط بل وربما المنطقة بين مريوط ووادى النطرون والفيوم قد تغيرت تماما .

ولكن هذه النقط التى يثيرونها يمكن أن نرد عليها بسهولة :

١ ــ لا توجد أى اشارة فى الكتابات القديمة عن وجود مثل هذا الفرع ، ومنذ سنة ٤٥٠ق.م أى منذ عهد هيرودت والمعروف تماما أن أقصى فرع غربى للنيل هو الفرع الكانوبى .

٢ ــ ان الأثر الوحيد لمجرى مائى قديم هو ذلك الوادى بلا ماء الواقع الى الجنوب من وادى النطرون الذى يقع تحت مستوى سطح البحر بـ ١٤ مترا ومن الصعب أن نعتبر الزلازل وخاصة فى مصر قادرة على رفع اقليم مريوط الى مستواه الحالى بعد أن كان منخفضا بحيث يروى بذلك الوادى المنخفض .

٣ ــ عبارة هيرودت التى تشير الى الليبيين كقوم يعيشون فى منطقة ترويها مياه النيل لا تعنى بالضرورة وجود فرع للنيل فى اقليم مريوط بل يمكن تفسيرها

---

(١) راجع خرائط باشو (١٨٢٤) .
(٢) راجع هيرودت الكتاب الثانى : فصل ١٧ ؛ ومحمود الفلكى ص ٩
(٣) شفينفورن Schweinfurth (١٨٨٣) ص ص ٦٥ ــ ٦٧

بأن سواحل بحيرة مريوط كانت تزويها قنوات تأخذ مياهها من الفرع الكانوبى نفسه .

٤ — ان رى هذه المنطقة الآن بواسطة ترعة تأخذ مياهها من النيل أمر ثبتت استحالته نظرا لارتفاع مستوى الأرض ، وليس هناك سبب خاص يدعو الى الاعتقاد بأن المنطقة قد تعرضت لحركات أدت الى ارتفاع السطح بل بالعكس تقوم البراهين على وجود حركة انخفاض شملت ساحل الدلتا كله .

٥ — وجود الآبار اليونانية والرومانية بكثرة يؤيد ما ذهبنا اليه من عدم وجود فرع للنيل فى العهدين الاغريقى والرومانى ، اذ لو وجد مثل هذا الفرع لما كانت هناك حاجة بالمرة الى استخدام تلك الآبار والخزانات سواء لأغراض الشرب أو أغراض الزراعة[1] .

(٦)

والخلاصة أن الفرع الوحيد الذى وجد فى غربى الدلتا هو الفرع الكانوبى ، وكان أهم فروع النيل جميعا ، ولكنه اختفى فى نحو القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) نتيجة لتزايد الطمى فيه ، ولا سيما فى جزئه القريب من المصب بعد تفرع ترعة شيديا منه . وكان لهذه الترعة دخل فى ذلك اذ أسرت جزء كبيرا من مياهه . وتحولت مياه الفيضان الى الفرع البولبتى لأنه أكثر انحدارا واستقامة فى مجراه ، وبذلك أخذ يحتل المكانة التى كانت للفرع الكانوبى ليصبح أحد الفرعين الباقيين حتى الآن من فروع النيل .

تتضاءل بالتدريج ، وتحول الى ترعة طالما حفرها وغير مأخذها من النيل حكام مصر فى العهد الاسلامى ، حتى انتهى الأمر بردم نهاية الفرع من الكريون حتى مصر فى العهد الاسلامى حتى انتهى الأمر بردم نهاية الفرع من الكريون حتى كانوب . ثم كان العصر الحديث وبدأت مصر تهتم بشئون الرى فأعيد حفر القسم الأخير من الفرع الكانوبى ليكون ترعة للرى تحمـــل حتى اليوم اسم « الترعة الكانوبية » .

---

(١) باشوت Pachot (١٨٢٤) ص ٩

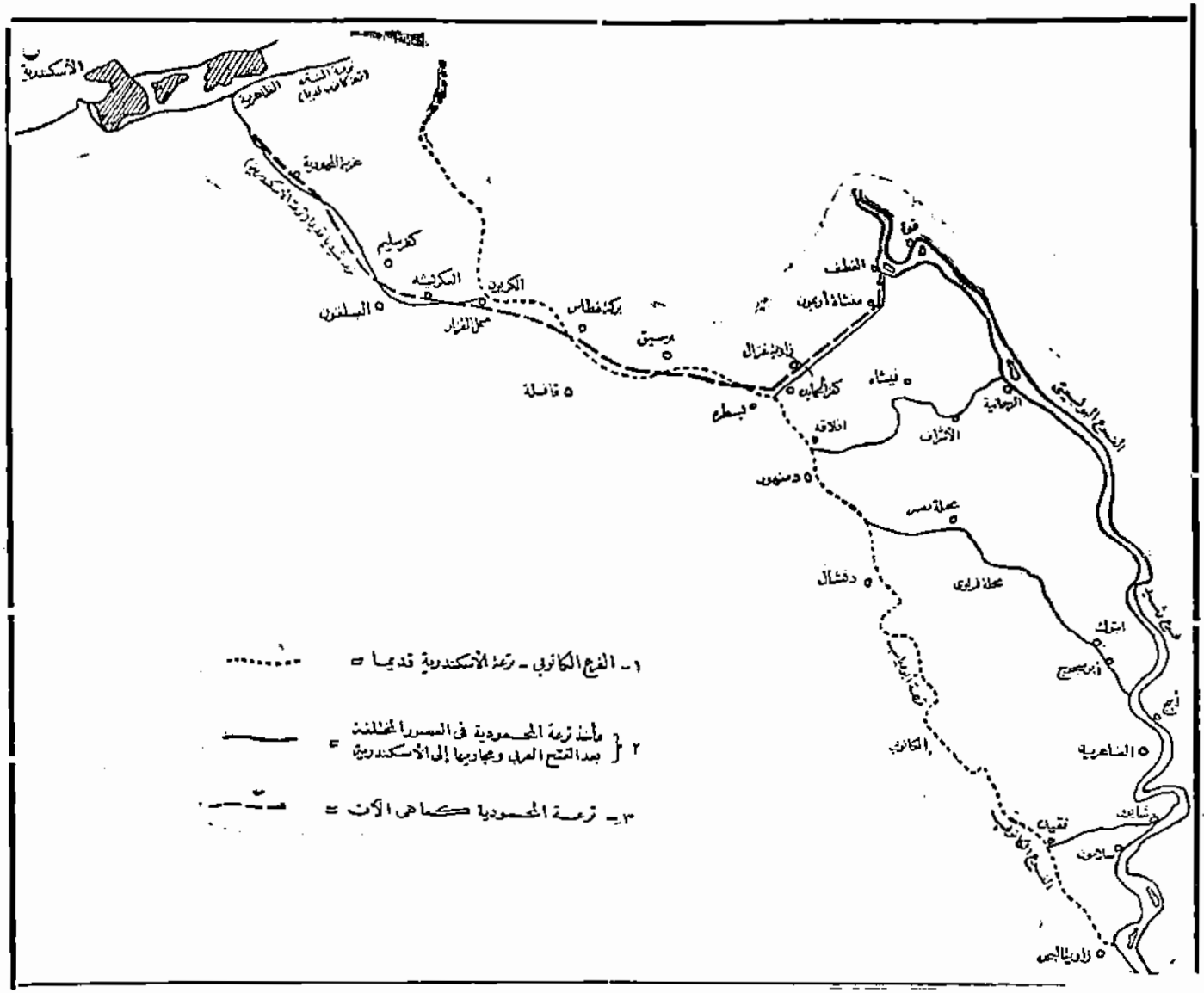
الإسكندرية
ترعة المحمودية
الطابية
عزبة المحمودية
كفر سليم
العكرشة
الكريون
البلتون
محل القرار
بركة غطاس
بريسيق
قافلة
زاوية غزال
كفر الجابر
بسطرة
نيشاء
الرحمانية
اتلاقه
الأشراف
دمنهور
محلة بدر
دفشال
محلة أبرى
الفرع الغربي
الفرع الرشيدي
الفرع الوسطي
الفطف
منشاة أبريون
قفط
اتسك
أبو حمص
الشاعرية
شابور
نقيلة
سلامون
زاوية الجمل
الكانوب
١ـ الفرع الكانوبي ـ ترعة الإسكندرية قديما =
٢ـ مأخذ ترعة المحمودية في العصور المختلفة بعد الفتح العربي ومجاريها إلى الإسكندرية =
٣ـ ترعة المحمودية كما هي الآن =

مصادر البحث

اولا ـ المصادر العربية :

١ ـ الادريسى : «صفة المغرب وارض السودان والاندلس» ماخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مطبعة بريل ، لندن ١٨٩٤

٢ ـ اليعقوبى :
« كتاب البلدان » طبعة دى جويه ١٨٩٢

٣ ـ طوسون ، عمر : (١٩٤٢) .
« تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية » مطبعة العدل ـ الاسكندرية ١٩٤٢

٤ ـ نبيه ، محمد كامل : (١٩٣٨)
« مذكرة عن الترعة المحمودية » مطبوعات وزارة الاشغال العمومية ـ مطبعة بولاق ١٩٣٨

ثانيا ـ المصادر الافرنجية :

1. Anville ; J. B. d' : 1766.
« Memoire sur L'Egypte Ancienne et Moderne ». Paris, 1766.

2. Breccia : 1914.
« Alexandria ad Agyptum ». Guide de la ville ancienne et moderne e du Musée Grico—Romain ». Bergamo, 1914.

3. Caton Thompson ; G. & Gardner, E. W. : 1929.
« Recent work on the Problem of Lake Moeris ».
Geog. Jour. Vol. IX X iii No. 1. Jan. 1929.

4. ———————— : 1934.
« The Desert Fayum ». London. 1939.

5. Cesson ; Anthony de : 1935.
« Mareotis ». London, 1935.

6. El-Falaki ; M. : 1872.
« Memoire sur l'antique Alexandrie, ses faubourgs et environs découverts par les fouilles sondages, nivellements et autres recherches ». Copenhague, 1872.

7. Girard : 1835.
« Memoire sur la Vallée du Nil ». D. E., hist. Nat., Texte, t. II.

8. Maiblet ; M. de : 1835.
« Description de l'Egypte ». Paris, 1835.

9. Pacot ; M. J. R. : 1824.

« Voyage dans la Marmarique et la Cyrénaique ». Paris, 1824.

10. Schweinfurth ; G. : 1883.

« Une Visite au port de Tobruk ». Bull. de l'Inst. Eg. 1883.

11. Toussoun ; Omar : 1922.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil.
Epoque Ancienne » dans M. S. A. t. I.

12. ——————— : 1923.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil.
Epoque Arabe ». dans M. S. A. t. 1, 2.

13. ——————— : 1925.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil ».
dans M. S. A. t. III.

ذخائر البردى فى مكتبة ڤيينا (ألبرتينا) (*)

للأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن
رئيس قسم اللغة العربية

مقدمة :

فى رحلة لى الى النمسا عام ١٩٥٩ ، قمت بجولة سريعة فى قاعات «ألبرتينا» الملحقة بالمكتبة القومية فى ڤيينا ، قررت بعدها أن أضع فى برنامجى ، العودة الى ألبرتينا لدراسة مجموعتها الكبرى من ذخائر البردى العربى ، لكى أستعين بها فى توثيق ما أشتغل به من مخطوطات تراثنا ، بمعرفة نماذج من الخط العربى المبكر ، ونسق الكتابة وأنواع المداد ...

وفى صيف عام ١٩٦٤ ، وافق مجلس جامعة عين شمس على ايفادى الى ڤيينا فى هذه المهمة العلمية ، حيث أمضيت هناك ثلاثة أشهر متفرغة للدرس فى ألبرتينا .

ومن اليوم الأول ، أدركت أن الوقت المحدد للمهمة ، لا يكفى لاستيعاب ما هناك من سجلات البردى ووثائقه ، فضلا عن فحص قدر كاف من البرديات العربية التى يبلغ عددها نحو عشرة آلاف بردية ، ضمن مجموعة ألبرتينا الكبرى التى تقدر بنحو مائة ألف بردية مصرية .

لكن الظروف أعانتنى على مواجهة الموقف ، فقد تطوع أستاذى المغفور له « أمين الخولى » بمعاونتنى على العمل بما له من خبرة أصيلة ، وساعدتنى ابنتى «أديبة أمين الخولى : الطالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية» فتفرغت لترجمة النصوص والرسائل عن الألمانية ، وكانت مطالعتى السريعة لهذه النصوص ، قد أبانت لى عن ضرورة نقل تراجم لها ، كاملة دقيقة .

(*) طبع هذا التقرير بالعربية فى موسكو عام ١٩٦٦ ، بعناية المستشرق الدكتور شرباتوف .

وكشف اتصالى بهذه الذخائر ، أن الأمر فيها أخطر وأهم من مجرد الانتفاع بها فى توثيق مخطوطات تراثنا . فهناك ألوف لا تحصى من البردى ، تسجل حياة أجدادنا ، وتضىء للانسانية تاريخ مرحلة طويلة وهامة من ماضى حضارتها ، وتعطى التاريخ وثائق مادية كاشفة لبعض ما فيه من غموض ، ومصححة لكثير مما شابه من أخطاء ، ومكملة لقصور المرويات النقلية التى تتسع للزيف والعبث والوضع ، وتتعرض للتجريح والاتهام .

ومعها ذخائر نادرة من مخطوطات على الرق والخشب والخزف والنسيج : ودائع تركها الماضون من أهلنا ، وطوتها أرض الوادى وأطلال خرابه لمدى قرون ودهور ، ثم لما بدأ الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ، ازدراها قومنا فلم يجدوا فيها سوى نفايات رخيصة ، أو كفريات محرمة ، وتركوها للأجانب الذين تسابقوا على الكنز .

(١)

سجـــلات البردى

وكانت المرحلة الأولى من العمل ، دراسة ما فى محفوظات ألبرتينا من سجلات وبحوث لعلماء البردى ، وقد استطعت أن أستوعب منها ، أهم ما يحتاج اليه عملى وهذا بيان لما طالعته منها باستعجاب :

١ ــ دليل « كراباتشك » للبردى الذى عثر عليه فى الفيوم :

Karabacek, J. : Der Papyrusfund von el Fayûm. Wien, 1883.

وفيه لوحات بالزنكوغراف . لأهم الوثائق التى فحصت من مجمـــوعة الفيوم الأولى .

٢ ــ كتاب المستشرق الدكتور يوسف كراباتشك : دليل عن مجموعة بردى الأرشيدوق راينر .

Josef — Karabacek : Fuhrer durch die Papyrus Erzherzog Rainer. Wien, 1894.

وفيه عرض لأهم البرديات التى فحصها كراباتشك ، منسقة فى فصول حسب لغاتها ، والفصل الخاص بالبردى العربى ، يقدم ٩٥٠ بردية عربية مصرية ، من

الفتح العربى لمصر ، الى عصر المماليك . وهذه البرديات مرتبة ترتيبا تاريخيا ، وقد وضعت كل بردية ، مع تعليق من « كراباتشك » على نصها وما حوله من ظروف تاريخية ، ويقع هذا القسم العربى من ص ١٣٣ ، وأرقام برياته فى فهرست ألبرتينا من ٥٥٠ ــ ١٤٠٠ .

٣ ــ وثائق رسمية من البردى العربى ، نشرها الدكتور جروهمان جـ ١ طبع ڤيينا ١٩٢٣ Grohmann, A. : Protokolle u. Herausgaben. Wien, 1923. وعددها (٣٠٦ وثيقة) ، مع فهرس بأرقامها فى المجموعة العامة .

٤ ــ مدخل عام فى البردى العربى ، لجروهمان ــ ڤيينا ١٩٢٤ .

Grohmann, A. : Allgemeine Einfuhrung in die Arabischen Papyri.

وفيه لمحة تاريخية ، لقصة العثور على البردى وأماكن العثور عليه . ومراحل انتقاله الى أوربا ، ومواضع وجوده فى مختلف متاحفها وجامعاتها ، مع بيان مفصل للعمل الفنى والعلمى فى فك اللفائف وفحصها وتصنيفها ، وايضاح للغاتها وخطها ومدادها ونسقها وتقييم لمادة الوثائق القديمة .

٥ ــ كتاب جروهمان عن علم البردى . ط . براج ١٩٥٥ .

Grohmann, A. : Einfuhrung und Chrestomathie zur Arabischen Papyruskunde. Praha, 1955.

٦ ــ مجموعة الرسائل المتبادلة بين تيودور جراف ويوسف كراباتشك والأرشيدوق راينر . نشرها الدكتور هربرت هونجر فى ڤيينا ١٩٦٢ .

Hunger, H. : Aus der Vorgeschichte der Papyrussammlung der Osterreichischen Nationalbibliothek = Briefe Theodor Grafs, J. V. Karabacek. Erzherzog Rainer. Wien, 1962.

وفيه نصوص للرسائل الهامة التى تروى قصة اقتناء النمسا لأكبر وأغنى مجموعة من البردى فى العالم كله ، والثمن الذى أخـــذه التاجر جراف من الأرشيدوق راينر لهذه المجموعة الكبرى .

والكتب الأربعة الأولى لاتوجد فى المكتبات ، ومن ثم اضطررت الى استعارتها للقراءة من محفوظات ألبرتينا ، أما الكتب الثلاثة الأخيرة فأمكننى شراؤها من مكتبات ڤيينا ومن دار الكتب القومية بها ، ومن هذه السجلات والبحوث لعلماء

البردى عرفت على وجه الدقة والتفصيل ، قصة العثور على كنوز البردى فى أرض مصر ، والدول التى اشتركت فى السباق عليه . والقدر الذى تملكه منه متاحف الغرب ومعـــاهده ومكتباته ، الى جانب ما تملكه هواة الآثار وعلماء المصريات والاستشراق .

(٢)
قصة الكنز

وتبدأ القصة من عام ١٨٢٤ حيث عثر بعض الفلاحين فى منطقة سقارة على ابريق صغير من الفخار فيه برديان عربيتان ، ظفر بهما هاوى الأثريات المصرية « برناردو درڤيتى Bernardo Drovetti » قنصل فرنسا بمصر ، وبادر فقدمهما الى البارون سلفستردى ساسى Silvester de Sacy ؛ الذى اهتم بدراستهما كما درس معهما برديات عربية أهداها القنصل الانجليزى Henry Satt الى الملك لويس الثامن عشر .

ومضت عشرات من السنين ، دون جديد .

ثم عثر الفلاحون فجأة على أكوام من البردى فى الخرائب المهجورة لأطلال مدينة أرسنوحى القديمة ــ ومكانها الحالى كوم فارس ــ فى صيف ١٨٧٧ ، وعرض البردى للبيع فاشـــتراه « ج ترافرس G. Travers» قنصـــل الرايخ الألمانى فى القاهرة وأرسله من فوره الى المتحف المصرى ببرلين . وفى شتاء العام نفسه ، عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من البردى فى خرائب (كوم الحرانية) اشترى « ترافرس » أكثرها وذهب قدر منها الى « متحف اللوفر » بباريس ، وقدر آخر اشتراه بورجس ، وروجرز (القنصل الانجليزى بالقاهرة) وانتقل بفضل جهود « شترن Stern » الى ملكية المتحف المصرى ببرلين ، فى عام ١٨٨١ م .

وفى هذه الفترة كان المستشرق النمساوى Karabacek, J. قد التفت الى أهمية البردى عن طريق هوايته لفن النسيج ودراسة السجاجيد الشرقية ، فحدث أن أرسل اليه من القاهرة ، مواطنه تيودورجراف Theodor Graf. تاجر السجاجيد المشهور مجمـوعة من قطع النسيج الأثرية . معها لفائف من البردى لم يكد « كراباتشك » يراها حتى قدر ما لها من قيمة أثرية لا تقدر بمال . وبادر فأرسل

الى « جراف » بالقاهرة يلفته الى أهمية البردى ويطلب منه أن يسعى لجمعه وارساله الى ڤيينا . وبدأ دخول النمسا فى السباق على كنز البردى من عام ١٨٨١ وكان تيودورجراف هو الذى قام بأكبر جولة ، بمهارته وخبرته ومعرفته بمصر بعد اقامته بها سنوات عديدة مستثارا لبيت تجارى كبير .

***

وبعدها اتسع نطاق البحث عن البردى ، فشمل أكثر مناطق الصعيد ، وشاركت الدلتا مع ذلك فى اضافة قدر من الذخائر حيث عثر فى الفسطاط على برديات عربية من عصر الفتح الاسلامى وأخرى من العصر الفاطمى ، كما عثر على قليل من البردى العربى قرب طنطا ، وفى كوم القلزم قرب السويس .

ولم يترك الأمر طويلا للصدفة ، بل شاركت بعثات وعلماء حفريات من أوروبا فى هذا النشاط ، الى جانب ما كان البدو والفلاحون يعثرون عليه فى الخرائب والأطلال . ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالبحث عن كنز البردى Schweinfurth (١٨٨٦) وجوجنت Jougnet (١٩٠٠) .

وعثرت بعثة الحفريات الألمانية باشراف روبنسون (١٩٠٢ ، ١٩٠٥) على وثائق هامة ، ثم استأنفت نشاطها من مارس ١٩٠٨ باشراف فيريك وتسوكو Viereck ، Zucker فى منطقة الأشمونين ، وفى سنة ١٩١٠ عثرت البعثة الألمانية برياسة شوبرت وتسوكر ، فى عرب الكوم ، على بردى هام ، وصكوك قبطية من القرنين السادس والسابع (م) .

وشارك الايطاليون فى الحفريات من عام ١٩٠٣ . واكتشف ڤيلكن وشوفر Schofer, H. & Wilcker, V. أكواما من البردى العربى فى أبو صير الملق عام ١٩٠٤ وقام جرنيفل وهانت A. S. Hunt & B. P. Grenfell بعدة حفريات فى البهنسا من ١٨٩٦ ، وفى الفشن ١٩٠٢ كشفت عن برديات عربية هامة ، وعثر الانجليز على كمية ضخمة من البردى الاغريقى . وشغلت البعثة الفرنسية البولندية بالحفر فقدمت نتائج أثرية هامة ، وبدأ المعهد الفرنسى حفرياته فى أدفو عام ١٩١٤ ، ثم تعطلت بسبب الحرب العالمية الى أن استؤنفت فى ديسمبر ١٩٢١ باشراف سان بول جيرار Saint Paul Girard فعثرت على برديات عربية هامة ، وعلى عقدين تجاريين على الرق ولوحات من الطين والخشب عليها كتابات عربية وقبطية .

وظلت البعثات الأثرية تمارس نشاطها فى البحث عن كنز البردى نحو نصف قرن . ففى عام ١٩٣٧ عثرت بعثة جامعة وارسو بالاشتراك مع المعهد الفرنسى للآثار ، على ٧ برديات عربية ، ووثائق أخرى أثرية مدونة على الرق ، فى أطلال ادفو ، كما عثرت البعثة الايطالية للآثار Missione Archeologica d'Egitto برآسة الأستاذ « ڤوليانو » Vogliano فى العام نفسه على مجموعات غنية من البردى الاغريقى والقبطى ، وبعض صكوك عربية للضرائب من القرن الثالث الهجرى .

ولا تشير السجلات التى اطلعت عليها الى مشاركة لمصر فى هذا السباق الدولى على كنزها ، اللهم الا ما ذكره « جروهمان » فى كتابه عن البردى العربى عن تاجر عربى اسمه «الشيخ حسن» قام بحفريات خفية فى منطقة الفشن بقصد السرقة . ثم لم يذكر جروهمان ماذا عثر عليه هذا السارق ، من آثار بلاده وكنوز أجداده ... وعلى مدى ذلك الزمن الطويل لنشاط البعثات الأثرية كان البدو والفلاحون يعثرون من حين الى آخر على ذخائر من البردى أثناء بحثهم فى الخرائب والأطلال والمقابر المهجورة عن بعض ما ينتفعون به للوقود أو السماد . ومن أهم ما عثروا عليه ، كميات كبيرة من البردى العربى فى الأشمونين حوالى عام ١٨٨٥ ضُم جزء هام منها الى مجموعة النمسا ، والباقى تقاسمته مانشستر وهايدلبرج وهامبورج والمكتبة الخديوية بالقاهرة . وهذه المجموعات تكاد توازى مجموعات الفيوم من حيث العدد والأهمية التاريخية . وفى عام ١٩٠١ عثر فلاحو « كوم اشقاو » ــ وتقع على بعد ٧ كم من جنوب غربى طما ــ على كمية كبيرة من البردى فى مقبرة اسلامية مهجورة خلف كنيسة القرية . ولم يكونوا يقدرون قيمة هذه اللفائف فأحرقوا بعضها وقودا وتركوا الباقى فى مكانه ، لكن عمدة القرية كان قد سمع تجار الآثار يسألون عن البردى فأسرع الى المقبرة وحمل ما استطاع منه ، كما حمل الخفير الذى كان يصحبه كمية من اللفائف . وأثار هذا التصرف ريبة فى نفوس أهل القرية فطالبوا بنصيبهم مما عثروا عليه ، ولم يهدأوا حتى ظفر كل منهم ببعض اللفائف ، وتسامع تجار الآثار بالحادث فأقبلوا من طما والأقصر وأخميم يساومون أهل القرية على شراء ما لديهم من البردى . ووصل الخبر الى مفتش آثار أبيدوس فلجأ الى مأمور طما الذى ذهب الى كوم اشقاو مع قوة من جنود الشرطة ، أرهبت الفلاحين فسارعوا الى اخفاء ما لديهم

أو احراقه ، خوفا من العقاب . ولم يسفر التفتيش عن نتيجة . فأقامت الشرطة حراسة على المنطقة وبدأ الحفر فيها باشراف العالم الأثرى كويبل J. E. Quibell واستمر ١٨ يوما فكان كل ما عثر عليه ؛ ثلاث برديات وبعض لفائف الرق القبطى والأغريقى . وبعد مضى مدة ظهرت مجموعة كوم اشقاو التى أخفاها أهل القرية ، لدى تاجر بالقاهرة ، واستطاع الأستاذ موريتس Moritz أن يشترى قدرا كبيرا منها ، باع جزءا منه لدار الكتب ــ وكان مديرا لها ــ واحتفظ بأكثرها لمجموعته الخاصة ، كما وصلت برديات من بردى كوم اشقاو الى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلا عما اشتراه بعض العلماء أمثال مونستر وتاشنر Munster & Taschner, P. من ذخائر المجموعة .

***

(٣)

مصير البردى

على هذا النحو ، كان السباق الدولى على ذخائر تراثنا من البردى ، وقد استغرق نحو قرن من الزمان على مرحلتين :

الأولى : من عام ١٨٢٤ حين عثر بعض فلاحى سقارة على ابريق من الفخار فيه لفافتان من البردى العربى ــ أهداهما القنصل دروفيتى الى ملك فرنسا ــ الى عام ١٨٧٧ حين عثر سكان الفيوم على مجموعة كبيرة من البردى الرائع ، وهى التى اشتراها القنصل الألمانى تراثرس لحساب المتحف المصرى ببرلين .

وفى هذه المرحلة الأولى ، كان أمر العثور على البردى متروكا للمصادفات ، فتحت ضغط الفقر والحاجه ، كان الفلاحون ينقبون فيما حول قراهم من خرائب وأطلال ، التماسا لبعض السماد والوقود ، أو بغية العثور على ما يمكن أن يرجى منه أى نفع . وبين حين وآخر كانت تقع لأحدهم سلال أو قدور قديمة ، مليئة بلفائف البردى المثقلة بالطين ، فيطرحها باهمال أو يلقى بها حطبا للنار .

ولا يدرى أحد على وجه التحقيق ، كم من هذه الودائع تلف وضاع ، قبل العثور سنة ١٧٨٠ على مجموعة دمياط ، التى أحرقت بأمر شيوخ القاهرة ،

لاحتمال أن تكون بها نصوص من الكفريات التى لا تحل مطالعتها فى ديـار الاسلام .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية : فعلى وهج النار التى التهمت مجموعة دمياط ، التفتت أوروبا الى هذا الكنز الذى هان على أهله ، وبدأ عملاؤها الذين كانوا يجوسون خلال الديار بحثا عما تطوى أرضها من آثار ، يلتمسون البردى ويتسابقون على البحث عنه ويتنافسون على شراء مايقع منه لتجار الآثار أوالفلاحين أو البدو . وامتدت هذه المرحلة الى قرب منتصف القرن العشرين وفيها نشط البحث عن البردى واشتركت فيه بعثات الحفر الأثرية الأوربية الى جانب نشاط علماء الآثار وقناصل أوربا وتجارها وعملاؤها فى تتبع ما يعثر عليه أبناء البلد من البردى . وكان أكثر النشاط موجها الى الفيوم والوجه القبلى بحكم جفاف المنطقة وقدرتها على الاحتفاظ بمثل هذه الودائع . فانتشرت بعثات الحفر وطلاب البردى ، تفتش فى أطلال الفيوم ومنف والأشمونين والبهنسا وأهناسيا وأخميم وأسيوط وأدفو وطما والنوبة ، واتجه بعضها الى الفسطاط والدلتا وكوم القلزم قرب السويس . ولم تنته هذه المرحلة ــ قبل منتصف هذا القرن ــ الا بعد أن تسربت ذخائر البردى من بلدنا وتقاسمتها دول الغرب من شيكاغو الى لينيجراد ومن فلورنسا الى أوسلو . وفيما يلى بيان احصائى لمصير البردى المصرى ، نقلا عن سجلات البرتينا ودليل كراباتشك وأحدث كتاب للدكتور جروهمان :

أوروبا

النمسا :

تمتلك فيينا مجموعة الأرشيدوق راينر المودعة فى خزائن ألبرتينا بالمكتبة القومية وسأفرد لها حديثا خاصا فى هذا التقرير ، لأهميتها وخطرها ، ولأنها كانت موضع دراستى فى المهمة العلمية التى أوفدت لها .

وفى انسبروك Innsbruck ، مجموعة من ١٠٤ بردية اقتنتها الجامعة عن طريق جروهمان ، وفيها برديتان من الأشمونين ، أما الباقى فمما عثر عليه فى الفسطاط وقرب طنطا ، على ندرة ما أعطى الوجه البحرى من هذه الذخائر .

ألمانيا :

فى برلين Berlin : مجموعة المتحف المصرى هناك ، وكان يقتنى عددا لا بأس به من البردى ، قبل أن يظفر بالصفقة التى اشتراها ترافرس . Travers عام ١٨٧٧ من بردى الفيوم والبهنسا ، ثم أضيف اليه ما اشتراه القنصل روجرز E. F. Rogers والأستاذ بورجتش Burgsch والقنصل شميت Schmidt والدكتور بوك Bock وأصلها من الفيوم . وفى عام ١٨٨٦ اشترى شترن Stern مجموعة من البردى كان يملكها المهندس Stader واقتناها المتحف ، كما اقتنى ما عثر عليه الأستاذ شفاينفورت Schweinfurth من منطقة الفيوم وأهناسيا ، وتبع ذلك شراء مجموعة بورجسن وما عثر عليه بعثات الحفر الالمانية فى الأشمونين (١٩٠٥) والنوبة وجزيرة فيله وأسيوط (١٩١٠) وفى ١٩٢٥ قام الأستاذ شوبرت Schubert المشرف على مجموعة البردى فى متحف برلين برحلة الى مصر فاستطاع شراء ١٢٧ بردية قيمة جدا من بردى الفيوم وأهناسيا والأشمونين ؛ وتلقى المتحف ١٩٢٨ (٢٧ بردية) أرسلها بيكر Becker .

وفى متحف الخط ببرلين أيضا مجموعة خاصة ، أشهرها مجموعة الدكتور ايبشر Ibscher وأصلها من الأشمونين ، ومجموعة يوليوس كورت Kurth, J. ومجموعة شميت Schmidt .

مدينة جيسن Giessen : توجد مجموعة بردى Jand فى المعهد التحضيرى للدراسات اللغوية بجامعة لودفيج ، كما يمتلك المتحف التاريخى فى المدينة ثمانى قطع عربية من الفيوم والأشمونين .

واقتنت جامعة هامبورج Hamburg عام ١٩٠٧ وثائق من البردى المصرى الاغريقى ثم بدأت بعد عامين تهتم بالبردى العربى بالحاح من الأستاذ بيكر ، واستطاعت فيما بين عامى ١٩١٠، ١٩١٢ أن تظفر بذخائر من بردى الفيوم والبهنسا والأشمونين وأدفو وأسوان ، فوصلت المجموعة الى ١٣٠ قطعة ، عام ١٩٣٨ ، أشرف الأستاذ ايبشر على فكها وصيانتها بين ألواح من الزجاج .

واقتنت مكتبة جامعة هايدلبرج Heidelberg عام ١٨٩٧ مجموعة من بردى الفيوم وأخميم والأشمونين اشتراها الدكتور راينهارت Reinhardt — معظمها

مكتوب بالعربيةوقليل منه بالعبرية . وبعد أعوام ظفرت الجامعة بالمجموعة الخاصة بالدكتور راينهارد وعددها ألف بردية . أكثرها باللغة العربية ، وجزء منها باللغات القبطية والسوريانية والاغريقية والفهلوية ، وكانت المجموعة قد آلت سنة ١٩٠٣ بعد وفاة الدكتور راينهارت ــ بوصية منه ــ الى صديقه المدير شوت Schott الذى قدمها بدوره هدية الى جامعة هايدلبرج فأطلقت عليها اسم « بردى شوت ــ راينهارت » « Schott-Reinhardt » تحية ذكرى وتكريم لمن جمعها ومن أهداها . وأصل المجموعة من بردى أهناسيا وكوم اشقاو وأخميم والفيوم والأشمونين ، وقد نمت بعد ذلك بما أضيف اليها من نتائج حفريات مجمع هايدلبرج والجمعية العلمية فى فرايبورج عام ١٩١٤ ــ الى جانب ٥٩ بردية عربية من الفسطاط ، جاء بها الدكتور جروهمان . وتولى عدد من المستشرقين الألمان فحص البردى العربى فى مجموعة هايدلبرج ، منهم الأساتذة بيكر وسايدل وبيلابل Becker, Seidl, Bilabel .

وفى مكتبة جامعة لايبزج Leipzing مجموعة ثمينة من بردى الفيوم ، جاء بها الأستاذ لوت Loth من القاهرة عام ١٨٧٩ . مع مقدار آخر أرسل الى برلين .

وفى ميونيخ München تقتنى المكتبة البافارية تسع برديات عربية وبردية اغريقية عربية .

كما يوجد فى مكتبة مونستر Münster عدد من البرديات العربية اشتراها الأستاذ تاشنر من القاهرة ومنها ما يرجع الى القرن الثالث الهجرى ، ولم ينشر منها شىء ، وان كانت حفظت جميعا بين ألواح من زجاج .

بريطانيـا :

فى « كامبردج » Cambridge ، نص سحرى (عـــربى قبطى) مودع بمكتبة الجامعة وقد نشره كروم وكراب : Krapp, A. & Crum, W. E.

وفى لندن London . بالمتحف البريطانى ، مجموعة صغيرة قيمة من البردى العربى والرق أصلها من سقارة والفيوم والأشمونين ، الى جانب مجموعة من نصوص المراسيم والسلوك من بردى الأشمونين وكوم اشقاو . وقد شارك فى فحصها ودراستها « جروهمان ، وكروم ، وبيكروبل ، وبيلابل » .

وفى مانشستر Manchester ، يحتوى كنز المخطوطات الشرقية الذى تملكه مكتبة جون رايلاند : John Ryland's Lib. على مجموعة ثمينة من ٦٠٠ بردية عربية أكثرها من الأشمونين . وكان ايرل كراوفور : Earl Crowford قد اشتراها من مصر عام ١٨٩٩ وحملها الى قصره فى اسكتلندا فاشترتها مكتبة جون رايلاند سنة ١٩٠١ . وكانت هذه المجموعة جزءا من مجموعة كبرى من بضعة آلاف بردية اشتراها كارلوجراف لاندبرج Carlo Craf Lanbderg سنة ١٨٩٨ وذهب أكثرها الى الأرشيدوق راينربشينا . ويعتقد جروهمان أن المجموعتين تكمل احداهما الأخرى ، وقد نشرت مختارات من مجموعة كراوفورد ، عام ١٩٠٩ بمعرفة كروم ومرجليوث .

وفى عام ١٩٣٣ نشر مارجليوث الكتالوج العبرى وفيه وصف لثلاثمائة وأربعين بردية مع بعض ترجمة لبعضها .

وفى أكسفورد Oxford تقتنى مكتبة البودليانا مجموعة غنية من البردى بينها ٩٤ بردية عربية بدأت بما جاء به شستر Chester من بردى الفيوم ما بين عامى ١٨٧٨ و ١٨٨٤ ، ثم تلتها مشتريات المستشرق دى ساسى De Sacy عام ١٨٨٨ وكانيبيرا Canybeare عام ١٨٩٦ وبيترى Petrie عام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ ثم دى ساسى مرة أخرى عام ١٩٣٣ وفيها ١٦ بردية مما عثر عليه فى كوم اشقاو وأحدثها مؤرخة عام ٣٢٩ هـ .

ولم ينشر من مجموعة اكسفورد سوى أربعة نصوص بمعرفة مارجليوث ، منها خطابان عربيان نشرهما سنة ١٨٩٣ ، ونصان عربيان ــ أغريقيان عام ١٨٩٧ ويرجع تاريخهما الى عام ٧١٩ م وان كان النص العربى فيهما مطموسا .

فرنسا :

تتكون مجموعة متحف اللوفر بباريس من ٣٠٦ بردية عربية لم ينشر منها شىء حتى الآن . وأكثرها جاء من الفيوم .

وفى مخطوطات المكتبة القومية Bibliothèque Nationale ٢٢ بردية عربية ، منها البرديتان اللتان أهداهما دروفيتى Drovetti, B. الى ملك فرنسا وأصلهما من سقارة . وقد نشرها دى ساسى .

وفى ستراسبورج Strasbourg اقتنت الجامعة والمكتبة مجموعة جميلة من البردى ؛ بفضل جهود (Spiegelberg, Reitzenstein & Preisigke) وقد نمت تباعا بما أضيف اليها من مشتريات مايرهوف Meyerhof, M. ورايتهارت Reinhardt وبورخارت Borchardt . وتضم المجموعة ١١ بردية عربية ـ قبطية ، ٣ اغريقية ـ عربية ، ٦٨٠ بردية عربية .

كما تمتلك جمعية ستراسبورج العلمية ٢٣ بردية عربية ، وقد نشر بيكر اثنتى عشرة بردية عربية ـ اغريقية ، أصلها من كوم اشقاو بطما .

إيطاليا :

فى معهد البردى بفلورنسا ، عدد من البردى العربى عهد بدراسته الى المستشرق ليفى ديلاڤيدا : Levi della Vida . وفى المعهد أيضا مجموعة من البردى الاغريقى واللاتينى الرائع .

وظفرت ميلانو Milano بمجموعة من البردى العربى ، جاء بها فوليانو أثناء رياسته لبعثة الحفر الايطالية بمصر . وأضيفت اليها كمية أخرى بعد ذلك ، لا يعرف عددها .

تشيكوسلوفاكيا :

فى المعهد الشرقى بمدينة براج Prag ، مجموعة ڤيسيللى C. Wessely الثمينة المكونة من ٨١٨٢ قطعة منها ٨٩٧ بردية عربية ، وكان ڤيسيللى قد اشتراها عام ١٩٠٤ من تاجر أرمنى فى باريس ، وآلت بعد وفاة ڤيسيللى بوصية منه الى الأستاذ هوفنر Hopfner, Th. فى براج فباعها فى يونيو ١٩٣٤ الى المعهد الشرقى. ومن هذه المجموعة نشر جروهمان ٩٦ نصا ، فيما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ وأكثرها ـ فيما نظن ـ من الفيوم والأشمونين .

الاتحاد السوفيتى :

توجد ثلاث مجموعات : واحدة فى موسكو ، يقتنيها متحف الفنون الجميلة وقد جمعها جولينشيف V. S. Goleniscev من مصر عام ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ وهى نحو مائة بردية عربية وبعض البرديات العربية الاغريقية ، والقبطية .

ومجموعتان فى لينجراد Leningard ، أولاهما مجموعة ليتشاكوف N. Lichacov التى اشتراها من القاهرة وفيها عدد من بردى كوم اشقاو والأخرى فى المجمع العلمى فى لينجراد (المتحف الباليوجرافى سابقا) وفيها مائة صك نشر بعضها بمعرفة بريبلكين Berepelkin عام ١٩٣٦ فى دليل (معرض الخط فى العصور القديمة والوسطى) .

أما مجموعة موسكو فلم ينشر منها شيء . وكان كراتشكوفسكى Krackovskij وبارتولد W. Bartold قد مهدا قبل الثورة للبحث العلمى على البردى الغربى . لكن لم يتم العمل . وفى عام ١٩٣٤ أدخل « معهد الكتاب » فى برنامج عمله البحث عن البردى العربى ودراسة مجموعتى لينجراد ومجموعة موسكو ، ولم تنشر نتائج هذا العمل .

بولندا Boland :

اقتنت « جامعة وارسو » عام ١٩٣٣ تسعا وأربعين بردية عربية من الفيوم أهداها اليها الأستاذ شميت . ثم أضيفت اليها بعد ذلك ، ما جاءت به بعثة حفريات الجامعة بالاشتراك مع المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، عام ١٩٣٧ .

وتوجد فى مجموعة بردى المعهد التحضيرى للغويات بالجامعة أربع برديات عربية (ثلاث رسائل وكشف) .

* * *

وحرصت دول أوربية أخرى — لم تشترك فى السباق على البردى — على اقتناء بعض نماذج منه :

سويسرا :

يوجد فى متحف أراو Arrau الطبيعى عدد من وثائق البردى يعتقد أن تشوكر Zschokker جاء بها من القاهرة فى أخريات القرن التاسع عشر ، ووضعت فى متحف الجمعية الجغرافية التجارية ، ثم نقلت الى المتحف الطبيعى .

النرويج :

توجد مجموعة من البردى المصرى فى مكتبة جامعة أوسلو من ٢٠٠ الى ٣٠٠ بردية جاء بها الدكتور أيتفرم Eitvrm من القاهرة .

تركيا :

وفى المتحف العثمانى بالقسطنطينية (تركيا) بردية عربية من كوم اشقاو نشرها بيكر .

أمريكا

اقتنت جامعة ميتشجان مجموعة من البردى المصرى ؛ فيها ٦٥ بردية عربية عام ١٩٣١ ثم أضيف اليها عام ١٩٣٢ مجموعة أخرى من أجل البردى ، أصلها من الأشمونين ؛ وقد اهتم الأستاذ واريل Worell بدراسة هذه المجموعة وان لم ينشر شيء منها حتى عام ١٩٥٥ .

وظفر المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو سنة ١٩٢٩ بالمجموعة القيمة من البردى المصرى والرق والمخطوطات التى جمعا مورتس B. Mritz. خلال اقامته الطويلة بمصر مديرا لدار الكتب الخديوية ؛ وعندما رحل عن مصر حملها معه .

وبعد سنتين اشترت الجامعة ٧٠ بردية عربية عن طريق الأستاذ بونر Bonner وفى أعمال سريعة متلاحقة نشر أبوت Abbott ١٣ بردية عربية من تلك المجموعة منها رسائل من القرن الأول الهجرى (١٠ ؛ ٩١ هـ) ونصوص عن أديرة الفيوم القديمة ، ووثائق من عهد الخليفة المتوكل على الله ، وعقدان من عقود الزواج العربية .

البلاد العربية

مصر :

لم تظفر مصر من كنزها الذى تفاسته دول الغرب ، بغير مجموعتين فى القاهرة : أولاهما فى دار الكتب وعددها نحو ألف بردية ، ويرجع الفضل فى

تأسيس المجموعة الى الأستاذ موريتس ، الذى كان مديرا للدار من عام ١٨٩٦ الى ١٩١١ فاشترى لحسابها بعض القطع ، مع ما كان يشتريه لمجموعته الخاصة ، ثم جاءت بعض القطع هدية الى الدار وأضيف اليها ما اشتراه ميشيل كازيرا Michel Casira من بردى الفيوم والأشمونين فى الاعوام من ١٩٠٣ : ١٩٠٥ وفى فبراير ١٩٠٦ ، ضم الى المجموعة عدد نادر من البردى كان فى حوزة مصرى من الجيزه اسمه (الشيخ على) فبلغ رصيد الدار من البردى فى عهد « موريتس » نحو ألف قطعة زادت بعد ذلك بما أضيف اليها من بردى الفيوم والأشمونين وكوم اشقاو وادفو والدلتا .

وموريتس ، هو الذى قام كذلك باعداد المجموعات فى صالة العرض ، وقد استكمل معرض البردى بعد ذلك فى عام ١٩٣٩ وأسهم الدكتور ايبشر Ibscher فى صيانته واعداده ، وكان من المقرر طبع دليل من مقتنيات الدار عن البردى عام ١٩٣٩ ولكن الحرب حالت دون ذلك .

ونشر عن هذه المجموعة مقال لموريتز ١٩٠٥ ، وآخر فى مادة الخط العربى بدائرة المعارف الاسلامية . وثالث فى الجزء الخامس من حوليات الاسلام لكايتانى: Annali dell Islam وأعاد بيكر — بعد اقامة قصيرة فى القاهرة عام ١٩١١ — نشر القطع التى نشرها مورتس ، مع ترجمة وتعليق ثم كان الدكتور جروهمان ، هو الذى اشتغل بدراسة مجموعة دار الكتب فنشر بمعاونة موريتز عام ١٩٢٤ ثمانية نصوص ديوانية (مراسيم) ثم وضع برنامجا لنشر المجموعة فظهر الجزء الأول عام ١٩٣٤ وفيه ٧٢ مرسوما ديوانيا ، والجزء الثانى عام ١٩٣٦ وفيه ٧٣ صكا رسميا أيضا ، والجزء الثالث عام ١٩٣٩ وفيه ٦٩ نصا من البردى الحكومى ، وأعد للنشر الجزء الرابع وفيه ٧٤ نصا والخامس والسادس وفيهما ١٧٤ وثيقة من تاريخنا الاقتصادى، ويختص الجزء السابع الضرائب والثامن بالرسائل والأدب. وترك لدار الكتب نشر هذه الأجزاء خدمة لتراثها الوطنى . وفى عام ١٩٣٤ نشر جروهمان محاضرة عن بردى دار الكتب كان قد القاها فى الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٣٢ .

والمجموعة المصرية الثانية موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة وأغلبها قبطى لم ينشر عنها الا بحث للمستشرق كازانوفا P. Casanova ، كما نشرت عدة

نصوص عربية كانت ضمن صكوك قبطية ، مع ترجمة سلان Slanes وطبع جياسكو أحد هـذه النصوص سـنة ١٨٨١ . وبالاضافة الى مجموعتى دار الكتب والمتحف ، تقتنى دار الآثار العربية رقين من جلد الغزال عليهما عقدان تجاريان ، وبعض البردى من حفريات الفسطاط وادفو ، مما عثرت عليه بعثة المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، ويذكر جروهمان أن بالقاهرة عددا من المجموعات الخاصة أهمها مجموعة ميكاليدس G. Michaelides ، ومجموعة مايرهوف ، ومحمد على سعودى بعين شمس .

وفيما عدا القاهرة ، لا تشير سجلات البردى بڤيينا الى وجود شىء منه فى الأقطار العربية ، عدا مجموعة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بتونس ، كما لا تشير الى أى أثر للبردى فى الشرق الآسيوى الافريقى .

(٤)

مجموعة راينر فى ألبرتينا

المكتبة القوميـــة بڤيينا

وأتحدث الآن عن مجموعة ڤيينا وهى أكبر وأغنى مجموعة من البردى المصرى فى العالم كله . وقد استطعت من مطالعتى للوثائق والسجلات الخاصة بها فى محفوظات ألبرتينا ، أن أتتبع القصة المثيرة من أولها حيث يتكرر المشهد بصورة أو بأخرى فيما آل الى بقية الدول الغربية التى اشتركت فى السباق على الظفر بودائع هانت علينا من تراث أجدادنا . والغريب أن النمسا لم تتجه الى الاشتراك فى السباق على البردى منذ بدأ فى أوائل القرن الماضى . وحتى حين بلغ ذروته فى الربع الأخير من ذلك القرن ، كانت النمسا لا تزال زاهدة فيه منصرفة عنه . وفى الوقت الذى تنافس فيه قناصل ألمانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا على شراء ما يعرض من البضاعة فى أسواق القاهرة والصعيد ، وقف قنصل النمسا بمعزل عن السباق وترك زملاءه الآخرين يتقاسمون الغنيمة . بل ان العالم النمساوى المستشرق « كارلباتشيك » والتاجر « تيودور جراف » اللذين كسبا للنمسا مجموعتها الكبرى ، لم يهتما بالبردى فى بادىء الأمر وانما كان أولهما

مشغولا بهوايته لفن النسيج الشرقى وكان الآخر منصرفا الى تجارة السجاجيد ، يحمل منها الى ڤيينا روائع القطع الأثرية النادرة فى رحلاته التجارية الى مصر ، حيث أقام سنين طويلة مستشارا لبيت تجارى كبير فى الاسكندرية . ومن هنا نشأت الصلة الوثيقة بين تاجر السجاجيد وبين المستشرق الهاوى للمنسوجات الأثرية ، فكان جراف يربط كل رحلة تجارية له الى مصر ، بالغرض العلمى الذى يهم صاحبه . واستطاع قبل الثورة العرابية أن يرسل الى ڤيينا مجموعة نادرة من السجاجيد الشرقية لم تشاهد العاصمة لها مثيلا من قبل .

وبلغ من اهتمام كاراباتشك بهذه البضاعة الأثرية أن أغرى « جراف » بالحفر فى المناطق الجافة بالصعيد عن مقابر العصور التى تلت عصر الفراعنة بمصر ، أملا فى العثور على خرق من النسيج فى عهد الاغريق والرومان ، فكانت مفاجأة لكاراباتشك أن بعث اليه صاحبه ، فى عامى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ بعض خرق البردى ضمن مجموعة من قطع النسيج القديمة . ومن هنا بدأ اهتمام « كاراباتشيك » بالبردى المصرى ، وبدأت فى الوقت نفسه قصة المجموعة الثمينة التى تعدها النسا اليوم ، من أمجد مآثرها على تاريخ الحضارة . ذلك أن العالم المستشرق لفت صديقه التاجر الى أهمية هذه الخرق ، وألح عليه فى بذل أقصى الجهد للظفر بأكثر قدر منها . ولم يكن للقناصل الأوربيين — الذين جندتهم دولهم للسباق على الكنز قبل تنظيم البعثات الحفرية — من الخبرة بالسوق والصلة بأبناء البلد ، مثل ما لهذا التاجر الخبير الذى لم يكد يدخل الميدان حتى خرج من الجولة الأولى بمجموعة من لفائف بردى الفيوم واهناسيا مقدارها عشرة آلاف بردية ، ظهر بعد الفحص أنها مكتوبة بست لغات ومنها ثلاثة آلاف بردية عربية . وعرفت برديات هذه الصفقة فى الدوائر العلمية فى أوربا بمجموعة « جراف ، أو مجموعة الفيوم الأولى » « Der erste Fayumer Fund » وتلقى « كاراباتشيك » هـذه البضاعة وهو لا يكاد يصدق أنها صارت اليه ، لكنه حين حاول فحص نصوصها ، وجد البرديات فى حالة تعسة . فالى جانب ما تآكل منها وعبث به البِلى ، كانت هناك ألوف من اللفائف المتحجرة لطول المدى على طيها مع ما تراكم فوقها من الطين الجاف ، ومنها ما كان مربوطا بخيوط من الصوف او ما كان مخيطا من أحد جوانبه على هيئة كراسات . وكانت محاولات فكها تعرضها للتمزق والتلف ما لم تبذل عناية تامة ، لازالة الطين منها وتطريتها ، كى يمكن فردها وفحصها .

وكان المعروف أن قدرا هائلا مما عثر عليه البدو والفلاحون فى خرائب الصعيد قد تلف تماما عندما حاولوا فك اللفائف بغمرها فى الماء . ومن هنا اتجهت محاولة « كارلباتشيك » أول الأمر الى تطرية اللفائف شبه المتحجرة بتعريضها لبخار الماء الساخن ؛ لكنه ما لبث أن عدل عن هذه الطريقة التى ملست بعض النصوص، الى طريقة التطرية الباردة التى جربها الألمان بنجاح فى صفقة القنصل « ترافرس » سنة ١٨٧٧ . وبعد عمل شاق متواصل وجهود مضنية أمكن فك اللفائف الملتوية وفتح الكراسات الملتصقة .

وكشف الفحص السريع لما تم تنظيفه وتطريته ، عن وجود نصوص ذات أهمية لا تقدر ، فكانت الخطوة الثانية ، تصنيف برديات المجموعة ، فى فئات متجانسة لغة أو متقاربة زمنا أو متكاملة قطعا ونصا . واقتضى تعدد لغاتها الاستعانة بعلماء فى اللغات العربية والسامية والهيروغليفية والفهلوية والقبطية واليونانية . وكلما تم تجهيز احدى البرديات وضعت بعناية فى اطار بين لوحين من الزجاج برقم مسلسل .

وتقدم العمل بفضل الجهود المتآزرة مع الخبرة الفنية والعلمية بحيث أمكن اعداد مئات من البرديات التى تم فحصها وتنسيقها ، وأقيم لها معرض فى السابع والعشرين من مارس ١٨٨٣ بالمتحف النمساوى للفنون . والقى « كارلباتشيك » فى حفل الافتتاح محاضرة عن قيمة هذه الوثائق وأهميتها والنتائج الأولى لبحوثه وبحوث زملائه من العلماء . كما قدم ثمرة العمل فى دليل مفصل بعنوان :
Der Papyrusfund von el Fayûn

ولكن المتحف النمساوى لم يُبْدِ مع ذلك رغبة ما فى شراء هذه المجموعة الثمينة واقتنائها ، أو عبثا حاول كارلباتشيك أن يقنعه بضرورة شرائها ، وبخاصة بعد أن تحرج الموقف : فالتاجر « جراف » قد دفع ثمنها من ماله الخاص ، وقد طال انتظاره للبت فى موضوع شراء النمسا لها ، فى الوقت الذى تعرض فيه لضغط الحاح شديد ومساومة مرهقة من بعض الدول الأوروبية وبخاصة ألمانيا التى أبدت استعدادها لشراء المجموعة بالثمن الذى يرضيه .

وبدا كأن النمسا توشك أن تفقد ما وصل الى عاصمتها من كنز البردى ، لولا أن سعى « كارلباتشيك » لدى الأرشيدوق راينر ــ راعى المجمع العلمى

فى ذلك الوقت ــ ونجح المسعى فدفع الأمير ثمن المجموعة كلها . وأبقاها باسمه فى متحف فيينا ، ثم أضاف اليها المجموعة التى اقتناها « كرال » أثناء مقامه بمصر سنة ١٨٨٢ كما آل الى «راينر» بعد ذلك مجموعة العالم الأثرى «شفاينفورت» Schwein Furth التى عرضها للبيع فى سوق القاهرة سنة ١٨٨٦ ، ونجح التاجر جراف فى شرائها ، وهى التى تعرف بمجموعة الفيوم الثانية « Der zweite Fayumer Fund » وظل الرصيد ينمو بما أضيف الى مجموعة جراف مما كان جراف وغيره يرسلونه الى فيينا ، من جديدٍ ما يعثر عليه من البردى المصرى ، ومنه كتاب الموتى Totenbuch الذى جاء به هاينريش Heinrich ومخطوطات من هوميروس جاء بها ڤيسيللى Wessely فضلا عما اشتراه العالم الأثرى جراف لاندبرج Graf Landberg الذى كان يقوم اذ ذاك بحفريات فى الجنوب العربى موفدا من مجمع ڤيينا للعلوم ، وقد ألح عليه زميله كاراباتشيك Karabacek أن يمر بالقاهرة لشراء ما يمكن شراؤه من البردى العربى ، فاستجاب لاندبرج لرجاء زميله ومر بالقاهرة فى خريف عام ١٨٩٨ . وقد تم فى هذا العام شراء آلاف من بردى الأشمونين تمتاز بدقتها وتفوقها ولونها البنى الفريد . وكانت كل المشتريات تتم لحساب الارشيدوق راينر Erzherzog Rainer وتضاف الى مجموعته التى بقيت فى متحف الفنون بين أيدى الخبراء والدارسين .

وقبل أن تلتفت مصر الى تسرب هذا الكنز من أرضها كانت مجموعة راينر قد بلغت نحو سبعين ألف بردية ! وفى أغسطس ١٨٩٩ قدمها الأمير الى « مكتبة البلاط الامبراطورى » هدية عيد الميلاد للقيصر « فرانزيوزف Franz Josef » وكان كاراباتشيك قد عين مديرا للمكتبة قبل ذلك ، حيث عاش ما بقى من عمره متفرغا للمجموعة ، ينميها ويرعاها ويفحصها ويدرسها بمعونة عدد من العلماء والخبراء . الى أن مات فى التاسع من شهر أكتوبر ١٩١٨ وبقيت المجموعة من بعده فى قاعة ألبرتينا بمكتبة ڤيينا ، ذخيرة قومية غالية ، ومزارا للعلماء والسائحين من أنحاء العالم الغربى المعاصر .

وكل هذا الذى أشرت اليه عن مجموعة بردى ڤيينا ، لم يكن شىء منه مجهولا للمستشرقين وعلماء المصريات ومؤرخى الحضارة من الغربيين ، فمنذ عام ١٨٨٣ تتابعت المنشورات من البحوث والوثائق كاشفة عن قيمة هذا الكنز ومحصية

ذخائره ومعلنة عن أشخاص الأبطال الثلاثة الذين كسبوا للنمسا أكبر جولة فى السباق وجعلوا من ڤيينا العاصمة الأولى لدراسة البردى . لكن بقى وراء هذا المعلوم من القصة أسرار خفية لم يكن أحد يدرى بها سوى أولئك الثلاثة ، حتى ظهر كتاب الدكتور هربرت هونجر Hunger, H. فى ڤيينا ١٩٦٢ فأذاع كل الأسرار المطوية بنشر نصوص الرسائل التى تبودلت بين تاجر السجاجيد تيودور جراف ، والمستشرق يوسف كاراباتشيك والارشيدوق راينر . وتبدأ الرسائل من عام ١٨٨١ حيث بدأ كاراباتشيك بحث صديقه العزيز « تيودورجراف » على البحث عن البردى فى خرائب الصعيد وأطلال الفيوم ، دون أن يكون للتاجر خبرة بقيمة البضاعة المطلوبة والثمن الذى يجوز لمثله أن يدفعه . ومن القاهرة بعث « جراف » الى صديقه الأستاذ خطابا مؤرخا فى ١٨٨١/٣/٧ جاء فيه :

« ... بعد رسالتى الأخيرة التى طلبت فيها نصحيتكم بخصوص شراء السجادة الدمشقية القديمة ، يسرنى أن أبلغكم اليوم أن بحثى عن قطع البردى انتهى بنجاح ، وان تكن قطعا صغيرة ، ولعل قيمتها فى أنها مكتوبة بعدة لغات من أقدم العصور ، ومن الصعب على أى حال العثور على لفائف كبيرة سالمة من الضرر . وأنا أتابع فى الوقت الحاضر البحث بحماس مع الأمل فى النجاح . وقد أرسلت اليكم هذه القطع بالبريد المسجل وآمل أن تخبرنى قريبا عما اذا كان لها قيمة ؟ وما قيمتها ؟ وهل أستمر فى ارسال القطع الصغيرة اذا لم أوفق فى العثور على لفائف كبيرة ؟

« الواقع أنى لا أدرى هل تستحق هذه القطع المرسلة اليك ما دفعته فيها من ثمن ؟ وسوف أسافر الى أسيوط بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولعل أعود من رحلتى بنتائج طيبة ... »

ومن ڤيينا جاء رد كاراباتشيك مؤرخا ١٨٨١/٤/٩ :

« والآن الى البردى : كنتَ على حق اذ أرسلت هذه اللفائف الصغيرة ففيها قطع جميلة لا يزال خطها واضحا جديدا ، وبعض القطع كاملة . ومنها صك من عام ١٦٢ هـ (٧٧٩م) وفى الجزء الأخير منه ، صيغة كاملة وردت مبتورة فى بردية أخرى بتاريخ ١٨٠ هـ ، ولم يكن من المستطاع اكمالها لولا الظفر بالصيغة نفسها تامة ، فى هذه البردية التى أرسلتها مع الدفعة الجديدة . ومع سرورى البالغ بجمال

هذه القطع وقيمتها لا أزال ألح فى طلب مزيد منها ، فان قطعة صغيرة من صك أو وثيقة ما ، يمكن أن تضىء لنا ما ظل غامضا علينا لمدى طويل . واكتب لى فى خطابك التالى بيانا عن حالة الأختام على اللفائف ومدى سلامتها .

«وعشرون فرنكا للقطعة قد تبدو غالية ، لكن سوف نرى . وعلى أى حال لن تصاب بخسارة ما . ولى رجاء ، تجد على زاوية الصفحة الأخيرة من خطابى ، ثلاث عبارات عربية ، لها دلالة خاصة فى العربية ، وتستطيع أن تستفسر لى من بعض أصحابك العرب ، عما اذا كانت لا تزال مستعملة الى اليوم بدلالتها القديمة ؟ وثق أننى سوف أدين لك بكثير اذا ما قمت لى بهذه المهمة . ولكن يجب ألا تذكر اطلاقا أن هذه العبارات منقولة من نصوص البردى ، بل يكفى أن تقول انها وردت فى مخطوط قديم »[1].

* * *

والرسائل التى بعثها جراف من مصر عام ١٨٨٢ تنم عن قلقه البالغ بسبب أحداث الثورة العرابية ، وما يمكن أن تسبب من تعطل التجارة بعد أن تقدم العمل فى البردى بسرعة مذهلة ونجاح باهر ، لكنه استطاع مع ذلك ، أن ينظم العمل بفضل رجاله من الأعراب الذين كانوا يجوسون خلال الديار ويحملون البضاعة اليه حيثما كان ، فى حرص وأمان ، فنقرأ فى رسالة منه الى كاراباتشيك بتاريخ ١١/٤/١٨٨٢ :

« رجالى العرب Meine Araber قد تعلموا الآن جيدا ، ودربوا على العمل تدريبا طيبا ، وحتى فى حالة اضطرارى الى الغياب عن مصر ، فانهم سوف يحفظون لى كل ما يعثرون عليه من البردى . ومنذ ثمانية أيام وهم غائبون عن القاهرة فى جولة لجمع البضاعة ، وأنتظر عودتهم بصبر نافذ ، وأطمع فى أن يحضروا لى هذه المرة شيئا رائعا . »

---

(١) يعلق الدكتور هونجر ناشر الرسائل على هذه الفقرة بقوله : كل ما يتعلق بالبردى كان يتم فى الخفاء بصورة أو بأخرى . وقد حذر كاراباتشيك فى خطابه رقم ١١ الى تيودور جراف ، من الكلام فى مصر عن وصول شىء من البردى الى ڤيينا .

ثم كتب من القاهرة بعد خمسة أيام : « ... وقد تسلمت خطابك اللطيف ، ويؤلمنى حقا أن الطرد الذى بعثته اليك ـ وفيه أقمشة أثرية وبردى وعملات ذهبية قديمة ـ لم يكن قد وصل اليك فى ڤيينا ، حتى اليوم الخامس من ابريل . ولا بد أن رحلة الباخرة كانت سيئة لتأخر وصولها الى تريستا ...

« وأنتم ترون أننى أسير فى الطريق السليم وأرجو أن أوافيك قريبا بأشياء هامة مما نعثر عليه . وقد أحضر رجالى العرب تحفا مصرية أثرية ستأخذ طريقها الى ڤيينا ، ثم عادوا الى الصعيد يستأنفون بحثهم . وقد انتظم العمل بحيث يجد ما يعثرون عليه طريقه المأمون الىّ ، ولو لم أكن موجودا بمصر ...

« وقد زرت القنصل العام بالاسكندرية — البارون كوزيبك — ولم تتح لى فرصة لقائه ، لكن البارونه استقبلتنى بلطف زائد . ولما كانت مهمته بالسجاد القديم ، أهديت اليها نسخة من كتابك عنه .

« وأرجو أن يصلنى يوم الخميس خطاب منك عن الأقمشة والبردى والنقود الأثرية التى بعثت بها اليك ، فأنت لا تتصور مقدار لهفتى على وصولها ومعرفة رأيك فيها .

« بالأمس كنت فى طنطا وعدت الى القاهرة فى المساء ، ونحن نعيش هنا فى وقت عصيب بسبب الأحداث السياسية وقد اكتشفت مؤامرة على حياة البطل الأسطورى ـ عرابى باشا ـ فى اليوم الحادى عشر من هذا الشهر ، ولا يدرى أحد ما تأتى به الأيام القادمة ، وان شاء الله سأسافر اليوم الى الاسكندرية ومنها الى تريستا حيث أرجو أن أكون عندك بڤيينا فى آخر الشهر » .

ووصل جراف الى ڤيينا ، فلم يجد صديقه الدكتور كاراباتشيك هناك ، فبعث اليه رسالة بتاريخ ١٨٨٢/٥/٨ يقول فيها :

« صديقى العزيز ... جاءنى فى بريد اليوم من مصر نبأ سار : تم شراء صفقة جديدة من الأقمشة الأثرية ، قد تصل الى ڤيينا فى الأسبوع القادم . وكتب لى نائبى بالقاهرة أن من بينها قطعة طولها نصف متر ، وعرضها ٢٠ سم مطرزة بنقوش رائعة ، ويمكن أن تعد أجمل القطع التى اشتريت الى الآن على الاطلاق ، وسوف يسرنى أن تكون القطعة من الصناعة الساسانية حتى تثرى مجموعتنا .

وقد يواتينا الحظ فنعثر على روائع أخرى رومانية واغريقية قديمة ، فالذى لاشك فيه أن كثيرا منها مدفون فى رمال مصر » .

وظل جراف فى ڤيينا ، ينتظر الأنباء عن مجرى الأحداث فى مصر وهو مطمئن الى أن رجاله العرب هنا ، يواصلون البحث عن الكنز المدفون . وفى رسالة منه الى كراباتشيك مرسلة من ڤيينا بتاريخ ١٨٨٢/٩/٢٠ يقول :

«الصديق العزيز ... يبدو أن الأمور فى مصر تسمح لى لحسن الحظ ، باستئناف نشاطى هناك عن قريب ، بعد غد يصل السيد ترنتى Trenti من تريستا الى الاسكندرية والقاهرة . وأنا واثق تماما ، من أن رجالى العرب قد جمعوا فى الشهور الأخيرة كثيرا من التحف والبردى والمنسوجات الأثرية ، ولهذا فانى أنتظر أن أتلقى قريبا طرودا كبيرة من القاهرة ... والى اللقاء » .

* * *

وتكشف الرسائل عن الثمن البخس الذى دفعته ڤيينا — «الأرشيدوق راينر» فى هذه الصفقة التى لا يعرف العصر لها مثيلا ، كما تكشف عن الظروف التى تمت فيها والمساومات التى جرت بشأنها ، والمكاتبات التى تبودلت حولها ما بين القاهرة وڤيينا وبرلين .

لقد كان جراف يطلب فى مجموعة بردى الفيوم الأولى — وتبلغ عشرة آلاف بردية بست لغات ، ومعها مجموعة من الأقمشة الأثرية — ثمانين ألف جولدن فقط . والجولدن عملة هولندية تساوى الآن حوالى ١٢ قرشا مصريا . ولا أعرف كم كانت تساوى فى زمن الصفقة ، على أى حال فهى تساوى الآن شلنين انجليزيين ، فيما أخبرنى به مدير البنك الأهلى فى ڤيينا ، أى أن الصفقة بيعت بخمسة آلاف جنيه انجليزى تقريبا ، بالسعر الحاضر(*) .

والرقم لا يعطى هنا دلالته كاملة ، الا اذا رجعنا الى سجلات وزارة المعارف المصرية حوالى ١٩٥٠ ، لعلها تكون قد احتفظت بالمكاتبات التى دارت بين الوزير وبين سيدة من هواة الآثار حول كتاب واحد من البردى المصرى كان فى حوزتها ، وعرضته على وزارة المعارف وطلبت ثمنا له آلافا من الجنيهات . وقد سمعت بقصة

(*) عام ١٩٦٤ حين كنت فى ڤيينا ادرس بردى البرتينا .

هذا الكتاب من الأستاذ الوزير « على أيوب » رحمه الله ، وأخبرنى الأستاذ الدكتور طه حسين فى شهر أكتوبر الماضى أن الثمن الذى طلبته السيدة الأجنبية لكتاب البردى كان خمسين ألفا من الجنيهات !

ونعلم كذلك من الرسائل المنشورة فى كتاب الدكتور هونجر أنه حتى عام ١٨٨٣ لم يكن «الأرشيدوق راينر» ظهر على المسرح ولاعرف له أى دور فى القصة التى بدأت أحداثها تدور ما بين الفيوم والصعيد والقاهرة وڤينا ، من عام ١٨٨١، وانما كان الدوركله للمستشرق « يوسف كاراباتشيك » وتاجر السجاجيد الشرقية « تيودورجراف » الذى جازف فدفع ما دفع من ثمن البضاعة ، وطال عليه المدى فى انتظار استرداد هذا المال المعطل .

وكان الأمر — كما أشرت من قبل — يتم فى الخفاء طبقا لتعليمات كاراباتشيك. لكن صفقة جراف كانت من الضخامة بحيث لا يسهل أن تظل لمدى طويل طى الكتمان فلا تذهب الظنون كل مذهب فى الهيئة التى تتوارى خلف التاجر النمساوى . وشاعت شائعة فى الأفق الدولى تقول ان « جراف » لا يهتم بجمع البردى لحسابه الخاص وانما يعمل لحساب متحف ڤيينا . والرسالة التالية — وقد بعث بها جراف الى كاراباتشيك فى ١٤/٨/١٨٨٣ — تسجل صدى ما شاع من أمر الصفقة فى أكبر العواصم الأوروبية حينذاك .

« الصديق العزيز ...

منذ فترة تلقيت من أخى الدكتور برنارد جراف هذا المقال المنشور فى صفحة برلين اليومية بتاريخ ٣١ من مايو عن مجموعة البردى الكبيرة التى ظفرت بها ، وحين قرأت فيه أننى جمعت هذا الكنز لحساب المتحف النمساوى وجدت من مصلحتى أن أكتب الى الصحيفة ، مطالبا بتصحيح هذا الخطأ ومؤكدا أننى جمعت هذا البردى لنفسى لا للمتحف النمساوى . واليوم صباحا تلقيت من برلين خطابا من السيد جورج بورش Georg Bursch وسأنقله لك هنا :

— برلين فى ١٢/٦/١٨٨٣

(السيد المحترم : تلقيت من ادارة صحيفة برلين اليومية التى أتشرف بالعمل فيها ، خطابك الكريم المؤرخ فى الثالث من هذا الشهر ، وكم كانت دهشتى ودهشة زملائى كبيرة ، حين علمنا منه أنه لم يتم أى اجراء فى ڤيينا لشراء المجموعة

الهامة التى جمعتها من البردى لحساب الدولة . وأرجو أن تأذن لى فى أن اتقدم اليك بنصيحة ، وهى أن تتجه الى الادارة العامة للمتاحف فى برلين ، وتعرض عليها شراء البردى ، وأنا واثق تماما أن عرضك سوف يقبل على الفور ، وسأكون مدينا لك بالشكر اذا أبلغتنى قرارك فى هذا الأمر) .

« وواضح أن هذا العرض ياصديقى أنهم فى برلين مهتمون بمجموعتى من البردى بحماس شديد . على أننى لن أعرض هذا البردى للبيع خارج النمسا الا اذا طال الوقت ولم يتم شىء هنا ، وعندئذ أرسله الى برلين وأطلب ثمانين ألف جولدن ثمنا له . وهو ليس ثمنا كبيرا بحال ما ، اذا قدرنا ضخامة المجموعة وما فيها من قطع قيمة . ولك تحيات قلبية من صديقك جراف » .

ولم تمض سوى أيام معدودات ، حتى أتبع جراف خطابه هذا بالخطاب التالى المؤرخ ١٨٨٣/٦/٢٦ .

« صديقى العزيز ...

السيد فون أيتلبرجر Eitelberger مستشار البلاط — بالنمسا — أرسل اليومَ الى ، يرجو أن أقابله فى المتحف هـــذا الصباح . ويقول ان ســمـــو الأرشيدوق راينر ، قد كتب اليه لكى يتولى عنه المفاوضة فى شراء مجموعتى من البردى والنسيج ، وعلمت أن السيد فون أيتلبرجر والأستاذ فون هارتل Von Hartel كتبا اليك بهذا الموضوع .

« وسئلت أن أقابل الأستاذ ڤيسلى بعد ظهر اليوم وأبلغه قرارى النهائى عن الموقف والثمن الذى أطلبه على وجه التحديد ، وقد أبديت للسيد المستشار الامبراطورى استعدادى لقبول ثلاثين ألف جولدن لمجموعة البردى ، وعشرين ألف جولدن لمجوعة الأقمشة ، أى خمسين ألفا للمجموعتين ... » .

على هذا النحو تمت الصفقة الكبرى ودفع الأرشيدوق راينر ثمنها ، ومن ذلك الحين بدأ حرصه على تنميتها ورعايتها ومتابعة دراسة العلماء لنصوصها ، فنقرأ فى خطاب له أرسله من قصره الصيفى الى كارلباتشيك فى ١٨٨٤/٦/١٦ :

الأستاذ العزيز .

« الأيام القليلة التى أمضيتها فى ڤيينا لم تتح لى فرصة زيارتك فى مكان عملك . وأمسك بالقلم الآن لأعبر لك عن جميل شكرى على النشرات الأخيرة

والصور التى تفضلت فأرسلتها الى ... ويسعدنى حقا ، العثور على برديات جديدة باللغة الاغريقية أو الرومانية أو العربية ، مما يقدم دليلا جديدا على اهتمامنا بهذا العمل الجليل . وأتمنى أن يتم بنجاح فك أوراق كتاب البردى الذى حدثتنى عنـه كى تتاح لى قراءته كله ، وما أشك فى أنه سوف يعطينا مادة تاريخية هامة .

« واذ أكرر لك شكرى ، أتمنى لعملك الجليل أحسن النتائج وسأبقى المخلص راينر » .

* * *

وأتابع قراءة الرسـائل فأجد بينها رسـالة من جراف فى القاهرة بتاريخ ١٨٨٥/١/١٩ تنبىء بأن الفيضان الكبير للبردى فى مصر قد انحسر ، وترك لدى التجار بقايا ، يود جراف أن يعود بها الى وطنه . لكنهم يغالون فى ثمنها فيطلبون ثلاثين فرنكا لثلاث أو أربع أوان مليئة بلفائف البردى ! ويستطرد جراف قائلا : « وقد رفضت لوحات أثرية من الخزف عليها كتابات اغريقية وقبطية وديموطيقية وهيروغليفية ، عُرضت فى السوق بسعر سبعين فرنكا ، وهى الآن فى طريقها الى متحف اللوفر بباريس . والواقع أن نقص المال الذى تعانيه حكومتنا قد أصبح معروفا هنا ونفوذنا يتقهقر بسرعة الى الوراء ... وقد سمعت هنا قصصا مثيرة ، ومع ذلك يقولون : ان الشرق لنا .. ! » .

كما أجد بعدها رسالة كتبها جراف وهو فى ڤيينا الى صديقه المستشرق بتاريخ ١٥/١٢/٨٥ . وفيها يقول :

الصديق العزيز

« علمت مما كتبه نائبى بالقاهرة الى ، أن الاهتمام بالبردى ثار من جديد ، وقد انتشرت هناك شائعة تقول أنه تكونت فى برلين جمعية برئاسة هاينريش شليمان Heinrich Schliemann رصدت نصف مليون مارك لاجتلاب البردى من مصر » .

***

وتتابع الرسائل ، لنعلم منها أن الحكومة المصرية ظلت فى غفلة عن الأمر الى أن ذاعت أخبار سوق البردى وانتشرت قصص مثيرة عن المساومات التى كانت

تجرى فيها والهدايا التى كانت تحمل منها الى الملوك والقياصرة ، فبدا للحكومة أن تفرض رقابة على السوق لكى تحتكر البضاعة وتستأثر بالثمن المجلوب .

ويبدو أن اعلان عزم الحكومة على التدخل فى الموقف ، قد أزعج الأوروبيين الذين حسبوا أن الرقابة الحكومية جد لا هزل فيه ، فتوقف نشاطهم فترة خوفا من العقاب الصارم ، كما يظهر ذلك بوضوح فى رسالة بعث بها جراف الى كاراباتشيك فى منتصف ديسمبر عام ١٨٨٥ وقال فيها :

« ... وكتب لى نائبى فى القاهرة ، أنه قد بلغه أن الأستاذ أدولف أرمان — من علماء المصريات المشهورين — يبحث الآن فى كل مكان عن البردى ويسأل عنه كل من يلقى ، لكن دون أن ينجح الى الآن فى الوصول الى شىء منه ، وليس هذا بمستغرب ، فالبردى أولا ، لا يعوم بالقاهرة فى الهواء ! وثانيا : معروف هنا أن جواسيس الحكومة المصرية منتشرون فى كل مكان يحاولون أن يعرفوا أين عثر أو يعثر على البردى ، ومن الذى عثر عليه . ولهذا فان مصادر البردى لا بد أن تتوقف وتصمت لفترة طويلة . وأعتقد أنه بمجرد نشرك ما أعددت من مجموعتنا من البردى — وفيها وثائق بالغة الأهمية عن غزو المسلمين لمصر — سيكون من الخطر المجازفة بالسؤال عن البردى فى مصر ، فما بالك بمحاولة تصديره الى الخارج ؟

وعلى أى الأحوال ، لنا أن نعد أنفسنا سعداء لأننا استطعنا لحسن الحظ أن ننقل الى ڤيينا فى الوقت المناسب هذه الكمية الضخمة من وثائق البردى الموجودة لدى سمو الأرشيدوق راينر .

« وتتجمع الآن فى مصر سحب العاصفة آتية هذه المرة من السودان . متى تتمتع بالهدوء فى هذا البلد كى تسير الأمور التجارية على الأقل سيرا حسنا ؟ »

* * *

لكن فترة التوقف لم تطل ، الا ريثما كشفت الأيام عن عقم هذه الرقابة الحكومية وغفلة الحراس الاداريين الذين نام منهم من نام التماسا للراحة وايثارا للعافية ، وآخرون منهم أغمضوا عيونهم وقد أعشاها بريق المال : فصدق فيهم المثل : حاميها حراميها .

ودب النشاط من جديد فى السوق ، بعد أن أدرك المتعاملون فيها عبث الرقابة الحكومية ، واطمأنوا الى أنهم يستطيعون استئناف نشاطهم فى البحث عن بقايا الكنز فى غفلة من الخفراء والحراس أو بالتواطؤ معهم ! وعاد البردى يتدفق من مصر الى أوروبا . وحقق التاجر الماهر « تيودورجراف » جولات جديدة ظافرة فى الميدان ، فنقرأ فى رسالة منه الى صاحبه بتاريخ ١١/ ٢/ ١٨٨٧ خبرا عن مجموعة جديدة من البردى حملها بنفسه من مصر الى ڤيينا ، وطلب من صديقه المستشرق عرضها على الأرشيدوق راينر ، ثم افادته عن رأى سموه فيهما ، وختم خطابه قائلا :

« ... ولن يسعدنى فقط فى هذه الظروف التجارية السيئة أن تتم الصفقة ، بل أنى أرحب كل الترحيب باتمامها فى أقرب فرصة . لك لأنى أود أن أسافر خلال هذا الشهر الى القاهرة . وأرى من الضرورى تأجيل سفرى الى أن ينجلى الموقف بالنسبة الى هذه المجموعة الجديدة من البردى والرق . والواقع أنه لو ساورنى أدنى ريب فى تردد سمو الأرشيدوق راينر فى شرائها ، لكنت اضطررت الى عرضها للبيع فى مكان آخر ، لأنى دفعت فيها من رأس مالى ، ما لا أستطيع الاستغناء عنه طويلا فى مثل هذه الظروف ... » .

وقد تم بالفعل شراء البضاعة الجديدة لحساب راينر الذى ضمها الى مجموعته ، وكتب الى كاراباتشيك بتاريخ ١٣/٤/١٨٨٧ ما ترجمته :

الأستاذ العزيز ،

« ... ويسعدنى كذلك أن أسمع عما فى هذه المجموعة الجديدة وأن أعلم أن العمل فيها يتقدم بنجاح بفضل جهدك وجهود السادة زملائك المشتغلين بها . وأنا مقدر بطبيعة الحال أن العبء تضاعف بالزيادة المضطردة فى مجموعتنا التى ترجع الوثائق الأخيرة منها الى عام ٨١٨ م ، ولا شك فى أن ترقيم هذه المجموعة وتصنيفها ، يحتاج وحده الى جهد شاق ... وأحييك الى اللقاء . راينر .. »

ونستطيع أن نتصور مدى عقم الرقابة وغفلة الحراس ، اذا علمنا أن «جراف» لم يتردد فى القيام برحلة معلنة الى مناطق الكشف عن البردى فى الصعيد ، دون خوف أو حذر ، بعد عامين اثنين من فرض الرقابة التى حسبها فى أول الأمر ، تجعل مجرد السؤال فى مصر عن البردى مجازفة خطرة ! وهو يبدو فى عام ١٨٨٧

أقوى تفاؤلا وأرحب أملا فى العثور على بقايا ما سماه « الكنز الراقد تحت أرض مصر» ... ومن الفيوم ، بعث الى ڤيينا بهذه الرسالة المؤرخة فى١٩/١١/١٨٨٧:

الصديق العزيز .

« اليوم أبعث اليك تحية قلبية من الفيوم مكان العثور على بردينا Unsere Papyri — فلقد قمت أمس بزيارة مناطق الكشف عنه فى كوم فارس ، تل من أطلال أرسنوحى العاصمة القديمة للفيوم ، وتبعد عنها بحوالى ربع ساعة . ولست أشك فى أنه اذا اتيح لنا البحث الجاد فى الأكوام والأطلال الخربة ، فسوف نعثر على بقايا ممتازة من آثار العصور القديمة . فهناك يرقد الكنز تحت الأرض ، ولا يحتاج الا الى المال فقط لنستخرجه ، والبردى فى السوق قليل ، لكن الحظ حالفنى فاستطعت الظفر بكمية منه كادت تفلت من أيدينا ، اذ من المنتظر أن يأتى الأستاذ أولريش فيلكن Ulrich Wilken قريبا لزيارة هذه المنطقة ؛ فلولا سبقى الى البرديات الجديدة ، لكانت فيما أعتقد سأخذ طريقها الى برلين » .

ثم تلتها بعد يومين رسالة منه الى كارلباتشيك جاء فيها :

« ... من الفيوم أرسلت اليك أمس الأول تحية ألحقها اليوم ببضعة أسطر : ذكر لى رجالى العرب ، أنه قد عثر فى خرائب منزل قديم بأخميم على نحو مائتى لفافة مطوية من البردى ، وتدل الكتابة المقروءة بوضوح على الأجزاء الظاهرة منها ، على أنها ترجع الى عصور قديمة . وأبادر فأرسل اليك اليوم ، فى طرد بالبريد المسجل ، أربع لفائف منها لكى تفحصها وتحكم عليها . وهى تبدو صعبة الفتح ولا يدرى أحد شيئا عن النصوص المدونة فيها ، لكن من السهل عليك فتحها وقراءة نصوصها ، فاذا بدت لك ات قيمة فانى أستطيع أن أوافيك بالكثير منها ، وهو من نفس الحجم والصنف تقريبا . والعرب هنا تحت أمرى الى أن أتلقى برقية منك ... »

* * *

واستمر نشاط جراف وأمثاله رغم الرقابة المفروضة ، والحكومة عاجزة عن الاهتداء الى سر الكنز . وكان يحدث أحيانا أن يسمع موظفوها المكلفون بالرقابة عن نبأ العثور على بردى فى جهة ما ، ثم ما يكادون يصلون الى هذا المكان حتى يكون البردى قد افلت منهم كما حدث فى مجموعة بردى كوم اشقاو التى عثر عليها الفلاحون عام ١٩٠١ ، ثم لما وصلت شرطة طما الى القرية اختفى البردى

كله فلم تعثر على شيء منه ، وبعـــد مضى أسابيع ظهر لدى تاجر بالقـــاهرة لفائف اغريقية جيدة من البردى المختفى ، كما اشترى الأستاذ موريتس لفائف عربية منها . وبعد زمن ، ذاع خبر وصول كميات من بردى كوم اشقاو ، الى برلين وهايدلبرج ولندن واشتراسبورج وموسكو ، فضلا عن اللفائف الرائعة التى اشتراها الأستاذان « ايبشر ، وتاشند » من تجار القاهرة .

***

وأظنني بهذا القدر الذى رويته من قصة البردى قد بينت مدى اهتمام الدول الغربية بهذه الذخائر من تراثنا ، لماتضيء من التاريخ الحضارى للانسانية بوجه عام ، ومن حيث هى تراث مشترك لا يصح أن تتخلى دولة متحضرة عن مسئوليتها فى الكشف به عن معالم التطور البشرى ما بين ماض وحاضر ، فضلا عما يكشف لهم هذا التراث من سر وجودنا وطبيعة مزاجنا وملامح عقليتنا . ومن قبلهم سعت رسل الغرب الى أقطار الشرق باحثين عن كنوز مخطوطاته ، وجاء « نابليون » معه بجنود من العلماء لدراســـة أحوال الشعب المصرى والكشف عن أسرار تاريخه القديم ، فكيف بنا والتراث لنا والتاريخ تاريخنا ؟ ألسنا فى حاجة الى أن نكشف عن حقيقة ذاتنا ونهتدى الى معالم وجودنا منذ عهدنا التاريخ تقود البشرية على درب الحضارة والتمدن ؟

ان حاضرنا لا يمكن أن يستغنى عن تجارب ماضينا ، وعن الفحص الدقيق لأرضه التى يقوم عليها البناء الجديد .

(٥)

فحـــص المجموعة

استطعت بفضـــل المعونة الصـــادقة التى قدمتها لى الدكتورة لوبنشتاين Loebenstein مديرة المجموعة ، والأستاذ فاكلمان Fackelmann خبير البردى فى البرتينا ، أن آخذ فكرة كافية عن ذخائر مجموعة راينر .

وتقدر المجموعة بنحو مائة ألف بردية تم فك أكثرها ، ولايزال هناك نحو عشرة آلاف لفافة لم تفك بعد . ويتابع الأستاذ فاكلمان فكها بتطريتها والصاقها

على الورق المقوى . وقد قام كاراباتشـــيك ومعاونوه بفحص عدد من هذه الذخائر نشر منها فى دليل كاراباتشيك ١٤٠٠ نص مع شروح وتراجم وتعليقات . وما نشره جروهمان ، موجود فى كتبه عن البردى . وبقى نحو خمسين ألف بردية تم فتحها وصياتتها ، لكن دون أن تفحص أو تقرأ .

ويقف عمل الأستاذ فاكلمان Fackelmann الآن فيما يختص بالبردى العربى عند تطرية اللفائف وصياتتها دون متابعة الفحص والتنسيق ، لجهله باللغة العربية ، وقد قال لى فيما قال ان فحص نصوص البردى العربى فى مجموعة ألبرتينا وقف عند كاراباتشيك وجروهمان من بعده ، بحيث يمكن القول أن دراسة البردى العربى قد ماتت . أو بنص عبارته « Ist schon tot » على حين استمرت دراسة البردى اليونانى واللاتينى حية ، لوجود علماء متخصصين يواصلون فحصها واستقراء نصوصها .

وما تم فكه وفهرسته ، وضع منسقا فى خزانات ذات أرفف من الصلب ، أعدت خصيصا لهذه الغاية ، وهى مصونة فى غرف موصدة منيعة لا يباح الدخول فيها الا باذن خاص ، وفى صحبة مديرة المجموعة . وجدران الغرفة عازلة للصوت مكيفة الهواء والرطوبة ، مجهزة بما يقيها من الحشرات والتقلبات الجوية . وعلى كل رف بطاقة تحمل الرمز اللغوى للبرديات المودعة فيه ، وأرقامها فى الفهرس العام . وهذا بيان للرمز :

الرق العربى .A.P.G — البردى العربى .A.P — الورق العربى .A.C

ولم يتح لى بطبيعة الحال أن أشتغل بغير النصوص العربية وان كنت بدافع الاطلاع قد ألقيت نظرة سريعة على نماذج من البردى فى اللغات الهيروغليفية واللاتينية ، حيث لفتنى منها دقة خطها وروعة نسقها .

والجزء الذى اشتغلت عليه من البردى العربى ، يبلغ تسعمائة وخمسين بردية ، أرقامها فى فهرست المجموعة من ٥٥٠ الى ١٤٠٠ وكلها عن مصر . وأقدمها مؤرخة عام ٢٢ هجرية من عهد عمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وأحدثها مؤرخة عام ٧٨٠ هـ . من عهد السلطان المنصور محمد فى عصر المماليك . وهذا بيان لها :

عصر الخلفاء الراشدين :

الخليفة عمر بن الخطاب من رقم ٥٥٠ : ٥٦٢
الخليفة عثمان بن عفان من رقم ٥٦٣ : ٥٦٧

مصر فى العصر الأموى :

من عهد معاوية ويزيد من رقم ٥٦٨ : ٥٨١
من عهد عبد الملك بن مروان من رقم ٥٨٢ : ٥٩١
من عهد الوليد بن مروان من رقم ٥٩٢ : ٥٩٥
من عهد عمر بن عبد العزيز رقم ٥٩٦
من عهد هشام بن عبد الملك من رقم ٥٩٧ : ٦٠٧
من عهد مروان بن محمد رقم ٦٠٨

مصر فى العصر العباسى : (١٣٢ ـ ٢٥٥ هـ)

من عهد أبى العباس السفاح رقم ٦٠٩
من عهد أبى جعفر المنصور رقم (١/٩٠ مراسيم)
من عهد محمد المهدى من رقم ٦١٠ : ٦١٦
من عهد هارون الرشيد من رقم ٦١٧ : ٦٦٥
من عهد محمد الأمين من رقم ٦٦٦ : ٦٨٢
من عهد المأمون من رقم ٦٨٣ : ٧٢٣
من عهد المعتصم بالله من رقم ٧٢٤ : ٧٤٩
من عهد الواثق بالله من رقم ٧٥٠ : ٧٥٥
من عهد المتوكل على الله من رقم ٧٥٦ : ٧٧٥
من عهد المنتصر بالله رقم ٧٧٦
من عهد المستعين بالله من رقم ٧٧٧ : ٧٨٥
من عهد المعتز بالله من رقم ٧٨٦ : ٧٩٣

مصر فى الدولة الطولونية : (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ)

من عهد أحمد بن طولون من رقم ٧٩٤ : ٨٣٤
من عهد خمارويه من رقم ٨٣٥ : ٥٨٣

من عهد جيش بن خمارويه من رقم ٨٥٤ : ٨٥٧
من عهد هارون بن خمارويه من رقم ٨٥٨ : ٨٨٣

الدولة العباسية الثانية : (٢٩٥ ــ ٣٣٣ هـ)

من عهد الخليفة المكتفى بالله من رقم ٨٨٤ : ٨٨٥
من عهد الخليفة المقتدر بالله من رقم ٨٨٦ : ٩٠٧
من عهد الخليفة القاهر بالله من رقم ٩٠٨ : ٩١٣
من عهد الخليفة الراضى بالله من رقم ٩١٤ : ٩١٥
من عهد الخليفة المتقى لله رقم ٩١٦

مصر فى العصر الأخشيدى : (٣٣٣ ــ ٣٥٧ هـ)

من عهد محمد بن طغج الأخشيد من رقم ٩٤٩ : ٩٦٨
من عهد أنوجو بن محمد من رقم ٩٧١ : ١٠١٦
من عهد على بن طغج من رقم ١٠١٧ : ١٠٥٨
من عهد كافور الأخشيدى من رقم ١٠٥٩ : ١٠٦١

مصر فى العصر الفاطمى : (٣٥٨ ــ ٥٦٧) :

من عهد المعز لدين الله من رقم ١٠٦٤ : ١٠٧٣
من عهد العزيز بالله من رقم ١٠٧٤ : ١٠٨٩
من عهد الحاكم بأمر الله من رقم ١٠٩٠ : ١١٤٦
من عهد الظاهر لاعزاز دين‌الله من رقم ١١٤٧ : ١١٨٢
من عهد المستنصر بالله من رقم ١١٨٣ : ١٢٧٥
من عهد الآمر بأحكام الله من رقم ١٢٧٦ : ١٢٨٢
من عهد الظافر بأمر الله من رقم ١٢٨٣ : ١٢٨٦
من عهد العاضد بالله رقم ١٢٨٧

مصر فى العصر الأيوبى : (٥٦٧ ــ ٦٥٢ هـ)

من عهد صلاح الدين رقم ١٢٩٠
من عهد العزيز عثمان رقم ١٢٩١
من عهد العادل سيف الدين من رقم ١٢٩٢ : ١٢٩٧

من عهد الكامل محمد من رقم ١٢٩٨ : ١٣٠٢
من عهد الصالح نجم الدين أيوب من رقم ١٣٠٣ : ١٣١٠
من عهد الأشرف موسى من رقم ١٣١١ : ١٣١٥

دولة المماليك : (٦٥٧ ـ ٧٨٣ هـ)

من عهد السلطان سيف الدين قطز من رقم ١٣١٦ : ١٣١٧
من عهد ركن الدين بيبرس من رقم ١٣١٨ : ١٣٢٥
من عهد قلاوون من رقم ١٣٢٦ : ١٣٣٩
من عهد ناصر الدين محمد :
(فى ولايته الأولى) من رقم ١٣٤٠ : ١٣٤١
(فى ولايته الثانية) من رقم ١٣٤٢ : ١٣٤٨
(فى ولايته الثالثة) من رقم ١٣٤٩ : ١٣٦٤
من عهد المنصور أبى بكر رقم ١٣٦٥
من عهد الملك الصالح اسماعيل من رقم ١٣٦٦ : ١٣٧١
من عهد الكامل شعبان رقم ١٣٧٢
من عهد الناصر حسين من رقم ١٣٧٣ : ١٣٨٣
من عهد المنصور محمد من رقم ١٣٨٤ : ١٣٩٠
من عهد الأشرف شعبان من رقم ١٣٩١ : ١٣٩٩
من عهد المنصور على رقم ١٤٠٠

وقد شُغلت بمراجعه نصوص هذه الوثائق على ما نشره كارلباتشيك عنها ، كما شغلت بقراءة ما كتبه من تعليقات على أكثرها . وقدرت المشقة البالغة التى تحملها وهو يقرأ هذه الوثائق بخطها القديم ، فى أوراق قديمة لم تسلم من عبث البلى مما أجهدنى والعربية لغتى ونصوص التراث تخصصى . على أنى لاحظت أنه فى التعليق عليها قد جاوز فى أغلب الأحيان ، ما تعطيه نصوص البرديات من دلالات ، مضيفا اليها من مطالعاته وآرائه ما لا يحتمل النص .

(٦)

القيمة التاريخية لهـــذه النصوص

أشار (الميثاق) فى درس النكسة الى أن « أجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقته » .

وتراث البردى فى جملته ، يعطى وثائق مادية لهذا التاريخ الذى نحتاج الى استجلاء حقيقته فى مرحلة اكتشاف الذات .

وفيه مفاتيح لكثير مما غاب من ذلك التاريخ واضاءة لدور الشعب فى صنع حياته ، وهو الدور الذى أغفله أكثر مؤرخينا ، ممن داروا فى فلك القصور وشـــدت عيونهم الى البلاط يرصـــدون حركات السلاطين ، ومَن حولهم من حاشية وجند ووزراء وشعراء وندماء ، فجاء تاريخنا السياسى حلقات مسلسلة من أسماء أسر وحكام تتابعوا على العروش ، وسردا مفصلا لأعمالهم ومعاركهم الحربية والمذهبية ، كما جاء تاريخنا الأدبى فى جملته ديوانا جامعا لما نظم المرتزقة من شعر المدح وما قال المأجورون فى تمجيد أصحاب السلطان ، وتبرير الأوضاع أمام الجماهير المحكومة حكما فرديا مستبدا فى الغالب . ولقد استطاع المستشرق الدكتور يوسف كاراباتشيك أن يدرس بضعة آلاف من البرديات العربية فى « مجموعة راينر » من بداية الفتح العربى لمصر ، الى عصر المماليك . وقدم فى أول كتاب نشره عن بردينا وثائق تعطى مادة تاريخية لحياة هذا الشعب القومية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية :

رسائل أفراد من عامة الشعب عن حاجاتهم وشكاواهم ، وعن عواطفهم ، وأذواقهم . وتذاكر طبية من عصر مبكر تحدد أصنافا من الدواء وطرق العلاج منها مثلا البردية رقم ٧٤٣ من عهد المعتصم العباسى ، ورقم ٨١١ من القرن الثالث الهجرى .

وطلبات سلع وبضائع من الأهالى والتجار ، حملها البريد من أشمون الى الفيوم ومن دمياط الى الصعيد ، فى شراء أصناف من الأطعمة والملابس والحلى والعطور يتطلبها السوق أو يحتاج اليها بيت أو تجهز بها عروس . أذكر منها على سبيل المثال البردية رقم ٥٦٣ فى شعبان سنة ٢٦ هـ . من عهد الخليفة عثمان بن

عفان والبردية رقم ٥٧٤ من عهد معاوية ، وفيها طلب لثلاثة معاطف ، وعدد من مناديل الرأس والألحفة الصوفية مع تحديد ألوانها ، ومقدار من عصير البلح . والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبد الملك ، وفيها بيان لميزانية بيت أحد الاغنياء ، والمقرر لنفقات اصطبل خيوله . والبردية رقم ٧١٠ بتاريخ ٢٠٨ هـ من عهد المأمون ، وفيها مبادلة أصناف من السلع بين التاجرين فيب وقسطنطين من قبط مصر .

والبردية رقم ٧٧١ من عهد المتوكل ، ببضائع تجارية من الملبوسات والأقمشة مع بيان أسعارها ، ورقم ٨٤١ من العصر الطولونى وفيها بيان لمستحضرات حمّام: كحل قيمته ١/٦ دينار ، وعطر بربع دينار ، وزعفران لصبغ الشعر بدرهم وثمن درهم ، وحناء للشعر والأيدى بثمن درهم ، وزيت طيب بدرهم .

والبردية رقم ١٠٧٢ من العصر الفاطمى وفيها توكيل بشراء كتب وورق وأطعمة وأقداح شراب وغطاء مائدة ، مع تحديد أسعار كل منها . والبردية رقم ١٢٩٠ مؤرخة فى عام ٤٨٧ هـ من العصر الفاطمى أيضا ، بطلب شراء منديل رأس أحمر وقميص داخلى من قماش ناعم جدا أحمر اللون ، ومعطف من صنف ممتاز .

وحجج لوفاء النيل فى سنوات بعينها كالبردية رقم ٦١٨ من عصر الرشيد . وأمر ديوانى باحصاء لعدد السكان بمصر وأعمارهم ، وأماكن اقامتهم ، كالبردية رقم ٥٩٩ عن الاحصاء الذى تم فى عهد هشام بن عبد الملك واستغرق ستة أشهر .

وعقود زواج وايجار وصكوك معاملات رسمية وأهلية ، أذكر منها مثلا البردية رقم ٥٦٨ وفيها وثيقة صداق من عهد معاوية ، ورقم ٦٠٩ بصكوك ضرائب من أول العصر العباسى ، ورقم ٦١٣ من عهد المهدى ، وفيها نص وصية رجل قبل موته مع بيان بتوزيع تركته ، والبردية رقم ٦١٧ وتعد أقدم وثيقه عرفت حتى اليوم عن عتق مملوك من الاتراك اسمه تجيش كانت تملكه سيدة تدعى بنت يوسف ، والبردية رقم ٦٤٦ من عهد الرشيد وفيها صكوك ايصالات من أرملة اسمها « سمية » للأوصياء على أولادها الثلاثة القصر ، باستلام نفقاتهم السنوية من مال وطعام .

وشكاوى من أزمات القحط والغلاء ، منها ما يرجع الى العصر الأموى(بردية رقم ٥٩٦) ومنشورات ثورية ضد جور الجباة وعسف الولاة ، أذكر منها البردية رقم ٧٨٨ من آخر العصر العباسى ، وفيها ثورة ضد الوالى التركى . ورفض سيادته لأبناء مصر ، واعتبار ولايته غير شرعية لأنه تركى كافر !

وكل هذا مما يحتاج اليه تاريخنا ، تصحيحا لخطأ أو اكمالا لنقص أو كشفا عن تزييف وتزوير . الى جانب ما تقدمه هذه الآثار المادية الى التاريخ الحضارى العام والى المشتغلين منا بتوثيق مخطوطات تراثنا ، من اضاءة لتطور المواد المستعملة فى الكتابة وأنواع المدد ونسق الخط ، وأشكال الزخارف والرسوم ، وطرق اللف والطى والتجليد .

ويقول كاراباتشيك فى مقدمته لدليل البردى العربى ، بعد اشارة الى ماكانت مصر تعانى تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد :

« كلما اقترب بردينا Unsere Papyri الاغريقى من العصر البيزنطى ، تغيرما يظهر لنا منه عن تاريخ مصر ، واتضح لنا الى أى مدى كان هذا البلد العريق الذى جمع من اقدم العصور بين أخصب الأراضى وازهى العمران والتفوق الحضارى والتجارى ، كان به شعب يتحمل المصاعب بصبر ، كما ترينا صكوك البردى كيف شل الفقر الطبقة الشعبية ، وكيف خلق الضغط الضريبى أزمات عميقة ...

« وهى تفسر لنا كيف وقع أكثر بلد على الأرض بَرَكَةً ، كالثمرة الناضجة بين أيدى الفاتحين العرب ، وبعد نجاح الفتح فى تلك الفترة القصيرة من أغرب الأحداث فى التاريخ العام . وقد جاءنا البردى العربى بمعلومات قيمة فريدة عن مصر ، ونقل الينا صورة للحياة فيها بطريقة دقيقـة ، نشعر معها كأننا نعيش فيها ! ...

« ومن نصوص البردى لذلك العهد يظهر لنا أن فكرة غزو العرب لمصر ، كانت تحمل طابعا آخر غير ما نعلم ، وأن الكتابة الحديثة لتاريخ تلك الفترة ، وقعت فى أخطاء جسيمة متعددة .

« كم يظهر لنا فاتحو مصر ــ بفحص هذه الوثائق ــ فى صورة جد مغايرة للصورة المعروفة ! فهم لم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة مغامرين

من البدو راكبى الجمال ، وانما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها باخلاص . وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى ، أحداها مؤرخة فى ٨ يناير سنة ٦٤٢ م . وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن العرب الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة . وفى كتابة الأسقف يوحنا — المعاصر لتاريخ الفتح — اعترف بأن عمرو ابن العاص لم ينزع شيئا من أملاك الكنيسة » .

***

وقد أشرت الى أن أقدم الوثائق العربية مما فحص من مجموعة راينر يرجع الى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقمت بتصوير البردية رقم ٥٥٨ ونقرأ عليها بوضوح أنها كتبت فى شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين هجرية . وأحدثها من عصر المماليك حيث تحمل البردية رقم ١٤٠٠ تاريخ سنة ٧٨٠ هـ من عهد السلطان الملك المنصور على .

وليس من المتصور أن نكون قد عرفنا تاريخنا وأحطنا بأسراره علما دون مطالعة لما كشف الأجانب الغرباء من وثائق مادية لها مثل تلك الأهمية ، الى جانب ما لم يفحصه أحد من عشرات الالوف غيرها ، فضلا عن لفائف البردى التى لا تزال مطوية لم تفك . وعددها فى (مجموعة راينر) وحدها ؛ نحو عشرة آلاف .

وفيما يختص بجدوى فحص هذه الوثائق على الدراسات الأدبية واللغوية — موضوع تخصصى — كان من الضرورى أن أطلع على نماذج من الكتابة العربية فى العصر الاسلامى المبكر ، لأهتدى بها فى توثيق مخطوطات تراثنا ؛ من حيث نسق الخط ورسمه ومداده ، فضلا عما تضم مجموعة راينر من نصوص ذات أهمية فى معرفة نماذج من لغة الكتابة وأساليبها . وقد عنيت بوجه خاص بما فى المجموعة من برديات فيها نصوص قرآنية ، مثل البردية رقم ٧٢٨ وفيها الآيات من ٦٧ الى ٩٨ من سورة مريم . والبردية رقم ٧٢٩ وفيها آيات من سورة يونس ويبدو أنها كانت مستعملة كتميمة .

وعنيت كذلك بالرسائل ذات الطابع الأدبى ، مثل البردية رقم (٦١٥) من القرن الثانى الهجرى ــ عهد الخليفة المهدى العباسى ــ وفيها مظلمة يتيم اغتصب أحد الأعاجم دينا ضئيلا كان عليه لوالد الشاكى ، فهو يتضرع الى الوالى أن يستدعى المغتصِب ويرغمه على الاقرار بالحق ، ثم يدعو الله أن يطيل عمر الوالى ويباركه . والبردية رقم ٦٣٩ من عهـد الرشيد ، وهى من النثر الفنى العاطفى ، كتبها مريض أنهكه الحب نفسيا وجسديا .

والبردية رقم ٨٤٢ وفيها نص كتاب عتق « بارادة الله عتقناك ، مما لا يجعل لى أو لأى انسان آخر أن يتعرض لحريتك بأى طريق» مع التاريخ وتوقيع الشهود. والوثيقة رقم ١٠٦٤ من العصر الفاطمى ــ عهد المعز لدين الله ــ وفيها منظومة لأحد الإمامية فى هجاء معارضيهم السياسيين والدينيين ، واتهام لهم بالانحراف عن الاسلام .

والواقع أننى كما أشرت فى مقدمة هذا التقرير ، قصدت من رحلتى الى التماس مثل هذه النصوص والوثائق التى قدرت جدواها على ما أشتغل به من توثيق المخطوطات وتحقيق النصوص ، لكن قصة البردى المثيرة ، ما لبثت أن دفعتنى الى متابعتها ومراجعة كل ما يتسع له الوقت من سجلاتها ورسائلها والكتب المؤلفة فيها . فاتضح لى آخر الأمر أن موضوع هذه الذخائر لا يقتصر على أهميتها للمشتغلين بتحقيق التراث العربى والدراسات اللغوية والأدبية فقط ، وانما يتسع ويمتد ، فيتصل اتصالا مباشرا كذلك بتاريخنا القومى . وبالتاريخ الحضارى للانسانية بوجه عام .

توصيات ومقترحات

ونتيجة لما قمت به من عمل فى هذه المهمة العلمية، أتقدم بالمقترحات والتوصيات الآتية : —

١ ــ تتبنى جامعة عين شمس بالاشتراك مع دار الكتب قضية هذه الوثائق المجهولة لنا من تاريخنا ، وتدخلها فى برنامج نشاطها العلمى ، بحيث تخطط لها

فى مشروعاتها وترصد لها جزءا من رصيد ميزانيتها للبحوث والمهمات العلمية . وأرى أن هذه القضية تتصل فى التخطيط للمستقبل بموضوع انشاء معهد عال للتراث وسوف أتقدم للجامعة بمذكرة تفصيلية خاصة ، عن مشروع هذا المعهد الذى يحتاج اليه وجودنا الثورى قوميا ، وعلميا[1] .

٢ ــ توصى الجامعة بأن يدخل فى اتفاقية التعاون الثقافى بين مصر والنمسا تصوير الوثائق التى تم فحصها وفهرستها من مجموعة بردى ڤيينا ، وايفاد لجنة من السيد مدير دار الكتب وأساتذة الجامعة المتخصصين فى التاريخ المصرى والاسلامى والتراث العربى ومعهم أمين مكتبة الجامعة، لاستكمال فحص هذه الوثائق واختيار ما يجب تصويره منها .

٣ ــ تسعى الجامعة لدى وزارات التعليم العالم والثقافة والخارجية لتكليف ممثليها الثقافيين فى روسيا وألمانيا وفرنسا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وانجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بكتابة تقرير عام عن كل مجموعات البردى المشار اليها فى هذا التقرير . مع التوصية كذلك بترجمة ما كتب عنها .

وأود هنا أن اسجل شكرى الخالص وتقديرى الصادق لما لقيت من رعاية الأستاذ « السيد حسن التهامى » سفيرنا فى النمسا ومساعدة المكتب الثقافى العربى بالنمسا .

كما أذكر بجميل التقدير السيدة الدكتورة لوبنشتاين Dr. Loebenstein مديرة مجموعة بردى ڤيينا ، والأستاذ انطون فاكلمان Fackelmann, A. خبير البردى فى ألبرتينا ، لما قدما لى من معاونة صادقة وما هيئا لى من فرصة العمل المثمر .

---

(١) استجابت وزارة الثقافة لهذه التوصية ؛ فانشأت مركزا دراسيا لتحقيق التراث ؛ فى دار الكتب بالقاهرة ؛ عام ١٩٦٧ ـ لكنه توقف بعد ذلك ؛ للنظر فى تطويره .

قضايا نقدية فى كتاب الصناعتين

للدكتور ماهر حسن فهمى
أستاذ الأدب العربى المساعد بكلية البنات

مازالت الدراسات تترى محاولة كشف كل القيم فى نقدنا العربى الموروث ، تلك القيم التى وصلت اليها البحوث النظرية والتطبيقية ، فى القرنين الرابع والخامس الهجريين على وجه الخصوص . فقد كشفنا فى دراساتنا المعاصرة عن قدامة بن جعفر وأثر المنطق والفلسفة فى مقاييسه النقدية ، وكشفنا أسرار البلاغة عند عبد القاهر الجرجانى فى ضوء علم النفس المعاصر ، وعرضنا للآمدى والقاضى عبد العزيز الجرجانى وغيرهما فى مناهجهم ومقاييسهم وآثارهم .

والحقيقة أننا فى حاجة الى هذه الدراسات ، ليس فقط من أجل مناقشة تراثنا وتشريحه وتقويمه فى نطاق بيئته وزمنه ، ولكن أيضا من أجل فهمه فى ضوء النظريات النقدية المعاصرة . فدراستنا لتراثنا النقدى دراسة مستقلة عن النظريات النقدية المعاصرة ، يصور لنا هذه النظريات كأنها تفرعت عن أصول غربية محضة لم تعرفها الجذور العربية الضاربة فى باطن الزمن . من أجـــل ذلك أردت أن أعرض ــ من هذه الزاوية ــ لقضايا نقدية أبدى أبو هلال العكارى رأيه فيها ، ولكن لم يتوقف عندها وقفات طويلة ، فغامت أعين الباحثين فى كتاب الصناعتين عنها .

وعندما نستعرض الأبحاث التى تناولت كتاب الصناعتين ، نجدها قد التفتت الى رأيه فى الفروق بين البلاغة وبين الفصاحة ، كما التفتت الى مقاييسه النقدية لفنون الشعر من مديح ورثاء وهجاء ونسب ، وتأثره بأستاذه قدامة بن جعفر فى هذه المقاييس ثم مناقشتها مناقشة موضوعية . وعرضت لرأيه فى صناعة الكلام أوبمعنى آخر التوجيه المهنى فى الأدب وتبصير الأدباء الناشئين بماينبغى أن يتسلحوا به . ولم يفت هذه الدراسات أن تبحث فى أسهاب قضية اللفظ والمعنى عنده

ونشأة القضية مرتبطة باعجاز القرآن ، ثم آراء الذين سبقوا أبا هلال وانتصروا للفظ أو انتصروا للمعنى . كذلك عرضت لوجهة نظره فى الايجاز والاطناب ومواضع كل ؛ واختتمت تلك الدراسات عرضها بوقفات طويلة عند رأيه فى حسن الأخذ وقبحه أو بمعنى آخر قضية السرقات فى الأدب العربى ، ففصلت فى أنواعها ، وما استبقاه وما استبعده من دائرة السرقات وأدخله فى دائرة الفن . ولم أجد حتى من يتساءل عن سر احتراق هذه القضية الآن ، وهل يرجع ذلك الى انقسام الشعراء الى مدارس مختلفة ، أو يرجع الى التفات الشعراء الى تجاربهم الذاتية ، أو أن الأمر يعود الى شىء آخر غير هذا وذاك .

ولكننا عندما نعود الى قراءة الكتاب نفسه ، نجده أعمق من أكثر هذه الدراسات وأشمل ، بما فيه من قضايا نقدية يثيرها ، أو يعرضها فى صورة أحكام ، وكلها جديدة الى اليوم ، لم نزد على أن قمنا بتفسيرها أو بالاضافة اليها أو بعرض وجهة نظر أخرى لها . فعندما نقرأ قول أبى هلال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[1] » ندرك أن هذا النص ينقسم الى قسمين : يتناول القسم الأول تبليغ المعنى قلب السامع مع الصورة الجيدة . والتفت الى قوله « قلب السامع » فهو ليس معنى منطقيا جافا أو جملة رياضية تبلغ عقل السامع ، وانما هو معنى انفعالى يصل الى وجدان السامع ، أو موقف شحنته العاطفية ضخمة ، يمس القلوب لا عن طريق المعانى المجردة مهما كانت بعيدة عن المنطق الصارم ، ولكن عن طريق الصورة والعرض « صورة مقبولة ومعرض حسن » . ونستطيع هنا أن نتخيل ذلك العرض وتلك الصورة بما فيها من ايحاءات ، واذا كان أبو هلال قد عاد فأرجع الصورة الى دائرة البلاغة ، فالواقع أن الصورة تستمد قدرتها فى أكثر الأحيان من التشبيه والتمثيل والاستعارة ، قبل أن تتحول البلاغة الى مصطلحات فاقدة للقدرة على العطاء فى العصور المتأخرة . وفى ذلك يقول صاحب الصناعتين :

« الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة الى غيره ... بحسن المعرض الذى تبرز فيه ، وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١١

أنها تفعل فى النفس ما لا تفعل الحقيقة .[1] » وقد تلقف بعد-ذلك عبد القاهر الجرجانى هذه النقطة وعرض للصورة الشعرية عرضا مفصلا لا يكاد ينقص عما نراه اليوم فيها من تجسيم . ولا ينبغى أن تتصور المغالاة فى كل هذا ، أو نحسب أن كلمة الصورة بمدلولها المعاصر لم ترد على ذهن قبل عبد القاهر الجرجانى فى القرن الخامس الهجرى ، فالواقع أن قدامة بن جعفر أستاذ أبى هلال قد التفت اليها من قبل ، وذلك فى أول كتابه « نقد الشعر » عندما قال : (ومما يجب تقدمته وتوطيده ـ قبل ما أريد أن أتكلم فيه ـ أن المعانى كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم فيها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه . اذ كانت المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد فى كل صناعة من أنه لا بد فيها من شىء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة وعلى الشاعر اذا شرع فى أى معنى كان من الرفعة والضـــعة ... أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك الى النهاية المطلوبة) .

وما أريد توضيحه بعد ذلك ، هو أن هذا القسم الأول من رأى أبى هلال ، يجمل لنا رأينا فى قضية المضمون والشكل التى فصلنا الحديث عنها فى نقدنا المعاصر . ومن هنا كان تفريق أبى هلال بين الصورة والمعرض ، فالصورة مقبولة وهى جزء من المعرض أو ما نطلق عليه اليوم الشكل ويشمل الاطار بما فيه من وزن وقافية وموسيقى داخلية وغير ذلك ، ولا نقنع فيه بدرجة القبول وانما ينبغى أن يكون حسنا بوجه عام .

وأما القسم الثانى من النص ، فهو تمكين المعنى فى نفس السامع لأنه متمكن أصلا فى نفس الأديب . فلن يستطيع الشاعر أو الكاتب أن يؤثر فينا ، ما لم يكن هو متأثرا بما يعبر عنه ، أو بمصطلحنا المعاصر ـ ما لم يكن قد عانى تجربته وانفعل بها وبمعنى آخر ، ما لم يكن صادقا فى أحاسيسه ، لأن صدق الاحساس هو الذى يمنح العمل الفنى الاصالة ، بما يضيفه من عاطفة بعيـدة عن الزيف والجمود ، قادرة على التأثير المستمر . والتجربة الشعرية هى الحالة التى تلابس الشاعر وتوجه باصرته وذهنه الى واقعة من وقائع الدنيا وتؤثر فيه تأثيرا يدفع الى الاعراب عما يرى أو يتأمل . أو هى الصورة النفسية الكونية التى يشهدها

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

الشاعر معبرة عن أحاسيسه . وهو ليست عاطفية فقط أو عقلية وحسب ، بل هى عاطفية عقلية معا ، تعمل فيها النفس ويعمل فيها العقل وتعمل فيها خبرة الشاعر بوسائله اللغوية والموسيقية والخيالية ، ويمتزج هذا العمل كله وينصهر ويتوحد فى القصيدة .

وربما كان أفلاطون أول من أعلن مبدأ « الصدق » فأساس كل عمل جيد وخالد فى الأدب هو الاخلاص التام من الفرد لنفسه والاخلاص التام منه لتجربته الخاصة فى الحياة ؛ وهذه الصفة من الاخلاص هى التى عدها « كارليل » (العنصر الضرورى لتكوين كل عظمة) . فنحن لا نستطيع أن نطلب من كل انسان أن يكون له عمق غير عادى فى فطرته ولا نستطيع أن نطلب منه تجربة غير عادية ، ولكننا نطلب منه أن يعطينا أحسن ما يستطيع ، ولن يكون هذا الأحسن شيئا يملكه غيره[١] . وبدون الصدق لا يمكن أن يكون فى الأدب نتاج حى ، لأنه الوسيط الشفاف الذى يعكس تموجات المشاعر من الفنان الى متذوق الفن . وليس ضروريا أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه حتى يصفها ، بل يكفى أن يكون قد لاحظها وعرف بفكره عناصرها وآمن بها ودبت فى نفسه حياها ؛ ولا بد أن تعينه دقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة وسعة الأفق حتى يخلق هذه التجربة التى يصورها عن قرب ، على حين لم يخض غمارها بنفسه . ومن الحق أن هذه اضافة جديدة لفكرة صاحب الصناعتين لأن النقاد العرب فهموا الصدق بمقابلته بالكذب ، أو بمعنى صدق الواقع ، فكانت فصولهم فى اخطاء المعانى ، ولكن بقية الحق أن « بعض الشعراء لا يجيد الا فى وصف ما عاناه[٢] » .

وعندما نقرأ لصاحب الصناعتين قوله فى معرض حديثه عن الاستعارة « انها تفعل فى النفس ما لا تفعل الحقيقة » ، وعندما نقرأ له فى معرض حديثه عن جودة الألفاظ وصفائها وبعدها عن التقعر والخشونة « والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسى البشع ، وجميع جواج البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه وتنفر عما يضاده ويخالفه[٣] » ندرك أن أبا هلال قد جعل سر

---

(١) النقد الأدبى لأحمد أمين ص ٢٠ ، ٢١
(٢) المدخل الى النقد الأدبى لمحمد غنيمى هلال ص ٣٥٨
(٣) كتاب الصناعتين ص ٥٦

الجمال هو التأثير فى النفس ، وقد تلقف عبد القاهر الجرجانى هذه الفكرة بعد قرن فقال : « فاذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا ... فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوى ، بل الى أمر يقع من المرء فى فؤاده[١] » . ثم بنى عليها كتابه أسرار البلاغة ، وجعل أهم مقاييس الجودة الأدبية ، تعرف مقدار ما يتركه النص الأدبى من أثر فى نفس متذوقه[٢] . وقد تنبه أحد الباحثين المعاصرين الى هذه الصلة القوية بين دراسات عبد القاهر الجرجانى ، والدراسات المعاصرة فى ميدانى النقد وعلم النفس[٣] .

أليست هذه الالتفاتات الى الذوق والى التأثير النفسى جزءا من دراسات علم الجمال الآن . ان علم الجمال الذى دعم النقد التأثرى يرى العملية النقدية تذوقا مباشرا للعمل الفنى ، ونحن فى هذا التذوق لا شك نضيف الى النص قيما أضفنا بعضها من عندنا ومن وجهة نظرنا ، ولذا فالنشوة الذاتية مقياس الحكم الجمالى[٤] . ويحاول « سانتيانا » أن يحلل هذا التأثر النفسى فيقول :

« يتمثل الرائى فى ذهنه صورة مثلى للشىء الذى يصوره الأثر الفنى المشاهد ثم يدرج هذا الشىء الجزئى الماثل أمامه تحت الصورة المثلى التى تمثلها فى عقله ، وبمقدار ما يكون هنالك من تقارب بين الجزئى الماثل من جهة وبين الصورة العقلية من جهة أخرى ، يقول عن الجزئى انه جميل[٥] » . والحقيقة أن أرسطو قد عرض لهذه الناحية فى « كتاب الشعر » عندما تحدث فى الفصل السادس عن أثر المأساة فى التطهير . وعلى الرغم من اختلاف النقاد حول مدلول الكلمة التى استخدمها ، فانها تدل فى النهاية على التأثير النفسى الذى يعتمل فى صدر المشاهد .

واذا كان صاحب الصناعتين قد تأثر بقدامة بن جعفر فى اخضاع كثير من مقاييسه النقدية للمنطق فى محاولات للتقنين ، أو لموضوعية النقد ، فرأى ان

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣
(٢) من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده لمحمد خلف الله ص ٧٩
(٣) المرجع السابق ص ٩٥
(٤) الاحساس بالجمال لسانتيانا ص ٩ — ١٨
(٥) المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٣

التوله فى الهوى هو مقياس النسيب الجيد ، ورأى المديح الجيد والهجاء الممتاز هو الذى يلتفت الى الصفات النفسية ، ثم رأى الرثاء من باب المديح — وعلى الرغم من اختلافنا معه فى كل هذه المقاييس — فانه لم يغفل الجانب الذاتى . وكأنما أدرك أن النقد لا يمكن أن يكون علما محضا مهما حاولنا وضع القواعد ومهما تأثرنا بالعلوم الأخرى ومناهجها ، ولا يمكن أن يكون فنا خالصا ، كما رأى ذلك التأثريون فى العصر الحديث ، لأنه مزيج مركب من المقاييس العقلية ، وذوق الناقد وهو عنصر أصيل فى النقد . واذا كنا نتحدث اليوم عن ذوق الناقد المثقف ، فقد كان هذا هو المفهوم من معنى الذوق قديما ، وفى ذلك قال أحد نقاد العرب لشاعر يخالفه فى الحكم على أبيات من الشعر : « اذا استحسنت أنت درهما وقال لك الصيرفى انه زائف ، فما قيمة استحسانك ؟ » . والذوق نتاج البيئة والزمان والثقافة والحالة النفسية فى وقت واحد.

فجميع حواس البدن تسكن الى ما يوافقها كما ذكر أبو هلال ، واذا كانت الألفاظ البدوية الخشنة ، تلائم حياة البدوى ، فان سلاسة الألفاظ ورقتها ووضوحها أنسب للشاعر الحضرى فى كثير من ضروب التعبير ، وليس الأمر تقليدا محضا للموروث . وهكذا خصص صاحب الصناعتين فصلا تطبيقيا يوضح فيه نفور الأذواق من الأغراب . ومن المؤكد أن تطور الزمن يتبعه تطور فى الحياة الاجتماعية نفسها وبالتالى تطور فى الأذواق .وهكذا شأن الثقافة وان كان الطبع أقوى من الدربة كما يقول ابن الأثير[1] . ولم يكن حتى العنصر الرابع مجهولا فى تكييفه للذوق ، فالعاشق يؤثر النسيب والقوى يفضل الحماسة والزاهد يحب أبا العتاهية والفيلسوف يعكف على المعرى .

أثار لنا صاحب الصناعتين كما رأينا قضية الصدق الفنى ، كما أثار لنا قضية التأثير النفسى للعمل الفنى وحكم الأذواق وهو ما يدخل فى نطاق علم الجمال الآن . ثم يثير لنا بعد ذلك قضية هامة من القضايا النقدية المعاصرة عندما يردد فى الباب الثالث : « النفوس لا تجود بمكنونها ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود مع الرغبة والمحبة[2] » .

(١) المثل السائر ص ٣
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٢٩

واذا كانت هذه العبارة قد وردت فى معرض توجيهه للأدباء ، فانها تحمل فى طياتها مفهوما أشمل وأعمق ، أو بمعنى آخر تعبر عن وجهة نظر أبى هلال العسكرى فى قضية الالتزام واللاالتزام . والحقيقة أن هناك درجة أخرى هى الالزام ومن هنا كان الهجوم على شاعر مثل « بدر شاكر السياب » بدعوى أنه انحرف عن خطه الأول كأنما الشاعر ملزم حتى اذا تطور استهدف لسهام نقاد الالزام[١] ، هـــذا على الرغم من أن الشاعر السابق قد خصص أكثر شعره لقضايانا السياسية والاجتماعية ولكن كما قلت نلمح وجهات النظر المتطورة فيها .

وهى خطوة شديدة الانحدار بعد خطوات الالتزام المعتدلة ، التى لخصها لنا مندور[٢] عندما قال ان الفنان لا ينتج لنفسه فقط بل لغيره أيضا ، فينبغى أن يحسن احساسات الجماعة ويعبر عن مشاعرها ، وذلك يمنح تجربته العمق والأصالة . وهذا الفن الموجه يستطيع تحريك الشعوب ودفعها فى سبيل التطور والرقى . والكثيرون يرون مناظر البؤس أمامهم فيمرون عليها دون أن يلتفتوا اليها ، ولكن الوعى بها هو الذى يحركهم ، وقد مهد الأدب لكثير من الثورات الكبيرة فى التاريخ كالثورة الفرنسية وثورة روسيا الشيوعية . « ولنأخذ لذلك مثلا مسرحية (بومارشيه) الكاتب الفرنسى المسماة (زواج فيجارو) ثم روايته الأخرى السابقة على هذه وهى (حلاق أشبيلية) فقد هاجم الكاتب فيها نظام الأشراف الذى كان سائدا قبل الثورة الفرنسية أعنف هجوم ... وكان لهاتين الروايتين أثر بالغ فى التمهيد للثورة الفرنسية ، حتى ألقى بمؤلفهما فى الباستيل» .

واذا كان « سارتر[٣] » قد هاجم الأفكار البرجوازية التى تبدو كل فكرة فيها وكأنها تنهيدة صغيرة من تنهيدات الهناء والارتخاء ودعا الى الالتزام فى الأدب ، فقد رأى أن الفنان حر ولكنه مسئول ما دام عمله يهدف الى البناء . « والأدب الفعلى لا يمكن أن يتطابق مع ماهيته التامة الا فى مجتمع بلا طبقات ففى مثل هذا المجتمع فقط يستطيع الكاتب أن يتبين أنه ليس ثمة خلاف من أى نوع كان بين موضوعه وبين جهوده لأن موضوع الأدب كان دوما الانسان

---

(١) الشعر العربى الحديث لجليل كمال الدين ص ١٧٧ وما بعدها .
(٢) راجع فى الأدب والنقد ص ٣٧
(٣) الأدب الملتزم ص ١٠٣ وما بعدها .

فى العالم . » ثم يهاجم المحضية الجمالية ويرى أنها لم تكن الا مناورة دفاعية ذكية من البرجوازيين لابعاد الفن عن دوره الحق وقيمته الخلاقة . ويصل فى النهاية الى النتيجة ويرى أننا ملتزمون شئنا أم أبينا ولكننا أحرار فى هذا الالتزام أو بمعنى آخر اننا أحرار فى ان نختار ثم نلتزم .

أما وجهة النظر الأخرى وهى التى يتبناها دعاة اللاالتزام فترى أن الأشياء تبدو جميلة بنسبة عكسية للمنفعة . فالفن اذن ليس مطلوبا منه أن يكون أداة اصلاح ليؤثر فى الجماعة ولكنه يؤدى رسالته فى مجال التطور بطريقة غير مباشرة، لأن رسالته العظمى هى نقل التجارب الانسانية فى تمام عمقها وسعتها وقوتها ؛ وانتاج الفنان يتطرق الى فهمنا لماهية حياتنا البشرية نفسها ، وادراكنا لوجودنا البشرى كله .

ولكننا قد تساءل : مادام الفن له هذا التأثير الحيوى فى مجتمعنا الانسانى ، أليس للمجتمع أن يتدخل فى انتاج الفنان بحيث يفرض عليه ما يخدم أهدافه ويصادر منه ما يرى أنه خارج على هذه المفاهيم ؟ ويجيب النويهى على هذا السؤال قائلا : « اعتراضنا على هذا الرأى مبنى على فهمنا لطبيعة الفن ووظيفته فى حياتنا الانسانية . فعمل الفن أن يزيد من فهمنا لتجاربنا وأن يتعمق ادراكها وتقديرها بما لا يتاح لأكثرنا . فالفنان بما أوتى من شحذ خاص وحساسية زائدة يكون أعمق فهما وادراكا وتقديرا لهذه التجارب من سائر الناس ، ومعنى هذا أن نظرته اليها تكون دائما مخالفة للنظرة المعهودة مخالفة تصغر وتكبر . فاذا أخضعناه لهذه النظرة وحرمنا عليه الخروج عليها فقد منعناه من أن يستغل ميزته الخاصة فى عمله الذى أعدله . أضف الى ذلك أن الفن ليس مجرد حكاية للتجارب أو تسجيل حرفى لها ، وليس مجرد انعكاس آلى لأوضاع المجتمع كانعكاس الصورة فى المرآة ، بل هو تقدير لهذه التجارب وحكم عليها يقبل منها ويرفض ، ويؤيد ويعارض ، أى أنه يحاول دائما أن يدخل تعديلا وتغييرا يقودان الى تطوير هذه الأوضاع . وهذا التطوير ربما لا يوافق عليه معظم أفراد المجتمع ، بل هم فى الغالب يعارضون ؛ لأنهم يفضلون ما ألفوه ويخشون التغيير . المجتمع غالبا يؤثر أن يظل جامدا فى أحواله ومقاييسه وعرفه وتقاليده . وهو يعارض الداعين الى تغييرها معارضة كثيرا ما تكون عنيفة ، ولكنه لكى يبقى محتاج الى

التجديد المستمر والدفع الى الأمام . والفنان يحاول هذا بفنه ، بل الفن قد يكون أقوى أسلحتنا فى تجديد المجتمع . فان سخطنا للمجتمع أن يحجر على محاولته التجديدية هذه فاننا نضر لا بالفن وحده أو بالقيم الفنية وحدها ، بل بالمجتمع نفسه فى آخر الأمر »[1] .

وهكذا نصل الى وجهة نظر أبى هلال فى أن الضغط والاكراه لا يولدان الا الفن السقيم ، ان جاز لنا أن نطلق على ذلك النتاج اسم فن أصلا . أما الرغبة وهى مرادفة لصدق الاحساس فانها الدافع الأصيل للانتاج الخالد . هذا موجز رأى صاحب الصناعتين فى تلك القضية الهامة التى احتلت مكانا بارزا فى نقدنا الحديث ، واذا كان الناقد العربى لم يحاول التفصيل ، فقد فعلنا نحن ذلك بحكم الزمان والتطور الثقافى ، ولكن نظرته لم يزل لها قيمتها الكبيرة حتى الآن . ومن هنا نصل الى أن هذا الناقد العربى ـ وهو نموذج لنقادنا العرب ونقدنا الموروث ـ قد وضع يده على صلب القضايا النقدية المعاصرة على الرغم من ألف سنة تفصل بيننا وبينه ، وما زالت نظراته النقدية العميقة ، حية تتجدد حواشيها ولكن جوهرها خالد يحتاج الى مزيد من الكشف والتقويم فى ضوء النظريات النقدية المعاصرة .

---

(١) طبيعة الفن ومسئولية الفنان ص ٧٧

نشأة اللغة وتطورها

للدكتور عبد الحميد سند الجندى
الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

لمحة تاريخيـــة

(١)

اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وأصلها لَغوة بزنة فَعلة بفتح الفاء ، من لَغَوْتُ بمعنى تكلمت . وتُجمع على لغات ولُغين بضم اللام وكسر الغين ، والنسبة اليها لُغوى بضم اللام ، وفتحها خطأ .

وقد اختلف العلماء فى نشأة اللغات ، وهم فى ذلك فريقان ؛ فريق يرى أنها وحى وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، علّمها الانسان الأول . وكأن أصحاب هذا الرأى يتوهمون أن الانسان حين خلق كان الوجود فى حالة عماء وسكون مطبق ، فلم يكن يسمع صوتا ولا يحس من أحد . فكان من الضرورى أن يُلهَم لغته الأولى التى هى بمثابة الأداة الجوهرية فى الاحتفاظ ببقاء ذاته .

وهؤلاء لا يكتفون بهذا القدر الضرورى من الالهام ، ويزعمون أن الله علم الانسان لغات البشر كلها ، ما خلق منها وما لم يخلق ، وهى الآن تُعدّ بالآلاف .

ومن أصحاب هذا المذهب أفلاطون[١] ، وتابعه ابن فارس[٢] والأشعرى ، وغيرهم . وهم يستدلون على ذلك بقـوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، أى ألهمه لغات العـالم[٣] . وجرى على غبارهم كثير من المفسرين كالقرطبى والنسفى والبيضاوى وغيرهم .

---

(١) تاريخ الفلسفة القديمة ليوسف كرم ص ٢١٠
(٢) الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٣٨
(٣) انظر مقدمة تاج العروس للزبيدى .

ونحن نرى أنه لا فائدة فى هذا الالهام ، ولا داعى الى تعليم الانسان الأول لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة اليه ، ولتعذر الاستفادة منه فى ذلك التاريخ المفقود. ويزيد فى ضعف هـذا الدليل أيضا تأويل الآية على وجه آخر ، وهو أن المراد بالأسماء فى الآية الكريمة أسماء الملائكة . لا أسماء ولغات أهل الدنيا .

ويرى غير هؤلاء أن اللغة — وان كانت قد حدثت مع الانسان فى أول نشأته — تعتبر مع ذلك من أنواع الوجود الطارئة عليه . فهى خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغير والتدرج فى طبقات النمو ، والتحول فى أدوار التماثل الى الكمال ، وأنها بناء على ذلك وقفت بالتدريج عند درجات الحدوث من الطفولة الى ما يليها من صفات الكائنات الحية ، وكانت نتيجة لمواضعات مختلفة مبنية على دراسة تقليدية طويلة . وأهل هذا الرأى لا يأبَوْن التسليم بأثر الالهام فى تكوين اللغة على هـذا النحو الفطرى ، ولكنهم لا يفهمون أكثر من أنه الاقدار على الارتجال والتحويل ، أو التنويع فى التقليد والمحاكاة بقدر ما فى الانسان من قوة التمييز العاقلة التى ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم .

فالانسان الأول عندهم طفل تاريخى بدأ فى أغلب الظن لغته الأولى بالأصوات الفطرية الدالة على الانفعالات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة والفزع واللذة والألم .

(٢)

وقد بدأ الانسان وسيلته التفاهمية بهذه الأصوات الفطرية وحدها[١] ، ثم تدرج بعض الشىء ، فصحبها بالاشارة الحسية توسعا فى التفاهم بها ، الى أن صار يدل على الشىء بالاشارة الى أوصافه ، أو الى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن فى تعبيره عن الرجل بامرار يده على شاربيه ، وعن المرأة بتكوير يده ووضعها على صدره .

ثم أخذ الانسان بعد ذلك يحاكى الأصوات المختلفة التى تنقلب كل حين على سمعه ، وبين يديه ... من حفيف الريح ، وهزيم الرعد ، وخرير الماء ... ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن مُحْدثه ؛ كما يسمى

(١) الخصائص لابن جنى ١/٣١

الأطفال عندنا كثيرا من الحيوان بما يسمعونه من أصواتها ، كأن يقولوا عن الدجاج « كاكا » ، وعن الهرة « نونو » ، وعن الشاه « ماء ماء » ، وهكذا . ثم تكون له من تلك الأصوات مقاطع صوتية متنوعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسايرة لحاجات الحياة الأولية . ولما استقام له ذلك حكى على أمثاله ، وتابع ما يتجدد له من الحاجات بالوضع تارة ، وبتقليب الدوال القديمة تارة أخرى ، حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الألفاظ تدريجيا عن المحاكاة والاشارة ، وان كانت الوراثات المتعاقبة أبقت فى لغات الانسان المتمدين بعض ما يدل على استعانته بالاشارة فى تكوين لغته الأولى ؛ كما يشاهد فى أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه ، وتقطيب الجبين ، والاشارة باليد ، والايماء بالحاجب واللحظ واللسان ، مما هو معروف .

وقد كان هذا الدور الاستقلالى للألفاظ على دهور متطاولة ؛ كان اللفظ الواحد يقع فيها على المعانى الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى والاسم والفعل . كما كان ذلك شأن الانسان فى بقية فروع الحياة الأخرى ؛ اذ كانت القطعة من الجلد تقوم له مقام اللباس والفراش والآنية وغير ذلك ، الى أن استحدث لكل نوع من هذه كفاية خاصة وسمى لها أداة جديدة . ومر ذلك التسلسل اللغوى أيضا بأجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور ، حدث له فى خلالها التمييز بين الأسماء والأفعال ، ودخلت فى لغته الحروف والأدوات ، وتولدت بعدها مميزات الجنس والعدد ، وبعض صيغ الاشتقاق ، وانتهى نوع ذلك الكمال اللغوى فى بعض هذه اللغات بظهور الاعراب كما فى اليونانية واللاتينية القديمتين . وظهرت أصول اللغات فى أسرة الأمم الكبرى من أبناء نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقلب أول صفحة من تاريخ البشرية المعروف .

والى هذا القول بالمواضعة يذهب أكثر المحققين من اللغويين وعلماء الأصول[1] ، واليه ذهب من علماء العرب أبو على الفارسى من علماء القرن الرابع

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، ونشوء اللغة العربية واكتمالها للأب انستاس مارى الكرملى . وتاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون .

الهجرى ، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى فى خصائصه . وقد عقد الأخير فصلا فى كتابه لبيان أصل اللغة : أالهام" هى أم مواضعة ؟ ، وقال فى آخره بعد أن شرح المذهبين : « وان خطر خاطر فيما يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنـــا به ، وبالله التوفيق » . ولكنه جزم بهذا الرأى وهو أن اللغـــة تواضع واصطلاح ، وقد قرر ذلك فى أول هذا الفصل فقال : « هذا موضوع محوج الى فضل تأمل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح، لا وحى وتوقيف ... وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا اذا ذُكر عُرف به مسماه ليمتاز عن غيره ، وليستغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين » . وفى ثنايا كلامه يشير الى رأى ثالث يتفق مع أقوال علماء اللغات اليوم فيقول : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعة ؛ كدوى الريح ، وخنين الرعد ، وخرير الماء ، وشجيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » . وهذا الرأى يتفق وما أشرنا اليه منذ حين .

هذا هو رأى اللغويين العرب القدامى . وقد انتهت أبحاث علماء اللغات اليوم الى أن اللغة كائن حى خاضع لقوانين النشوء والنمو ، فهى ليست توقيفا ووحيا ، كما أنها ليست اصطلاحا وتواطؤا بالمعنى الذى فهمه ابن جنى وأصحابه ، وانما هى اصطلاح طبيعى ينشأ عن محاكاة أصوات الطبيعة والحيوان . فاذا ما نشأت اللغة تضافرت عوامل شتى لنموها وتطورها حتى تبلغ مرحلة النضج . وقد لا تكون البيئة ملائمة لحياة لغة من اللغات ، فيؤول أمرها الى الاندثار والانقراض .

(٣)

وقد اصطلح اللغويون من علماء العصر الحديث على تقسيم ما عرف من لغات الأمم القديمة الى راقية وغير راقية[1] . وجعلوا من غير الراقية اللغـــة الصينية واللغة المصرية القديمتين . ويرجح بعض المؤرخين أن الصينيين والمصريين القدماء من أقدم الأمم التى نزحت من شواطىء الفرات قبل الطوفان ، وأن لغتيهما —

(١) محاضرات المستشرق الدكتور شاخت فى الجامعة المصرية .

فى سذاجتهما وقلتهما — ترجح اتصال نسبهما بقابيل أحد أبناء آدم ، وبخاصة وأن التوراة قد وصفت نسل قابيل هذا بالمهارة فى الصـــناعة . والمعروف أن الصينيين من أقدم من عرف من أمم الأرض بالحذق فى الصناعه .

ومن اللغات غير الراقية أيضا اللغات الحامية التى منها لغات زنوج افريقية وهنود أمريكا الذين هم على الراجح عبيد افريقيون استخدمهم الأسبان فى هذه الأصقاع بعد الفتح .

وأما الراقية فقد جعلوها قسمين : متصرفة ، وغير متصرفة . وغير المتصرفة هى اللغات الطورانية أو المغولية ، وهذه تشمل الفروع التى يتفاهم بها سكان البلاد التى تقع بين شرقى النمسا وآسيا الصغرى ، فبلاد التتر ، ومنها التركية . ومعنى عدم تصرفها أن الاشتقاق فيها يكون بالحاق أدوات لا معنى لها فى نفسها لأصول ثابتة لا تتغير ، مثل كلمة « ياز » ، ومعناها فى التركية الأصل الدال على الكتابة ، ويؤخذ منها الماضى بالحاق « دى » فيقولون « يازدى » أى « كتب » . وكذلك يفعلون عند النفى والجمع وغير ذلك ... يضيفون أدوات كثيرة وتبقى الكلمة كما هى .

وأما المتصرفة فهى السامية والآريّة ، ويقال للأخيرة أيضا « اليافثية » نسبة الى يافث بن نوح ، ومنها (أى من الآريّة) لغات جنوبى آســـيا التى منها « الســنسكريتية » وفروعها كالفارسية والهندية والأفغانية وغيرها . ومنها لغات أوربا التى أشهرها اللاتينية وفروعها من لغات فرنسا وايطاليا واسبانيا . ومنها اليونانية القديمة والحديثة . ومنها لغات روسيا والبلقان وانجلترا وألمانيا وهولندا والدانمارك .

وأما السامية[1] ؛ أى المنسوبة الى سام بن نوح ، فتمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوارة والانجيل والقرآن ، وبأن التمدين القـديم ظهر أولا بين المتكلمين بها فى بابل وآشور وفينيقية ، وهى اللغات البابلية والأشورية والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والحبشية والعربية . ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعبرية والآرامية .

---

(١) ارجع الى كتاب تاريخ اللغات الســامية لولفنسون .

اللغـــة العربية

(١) اصـــلها :

هى احـــدى اللغـــات التى أطلق عليها العـــالم « شلوتسر Schlozer » اسم « اللغات السامية ، معتمدا على جدول أنساب النبى نوح المذكور فى التوراة . ومن هذه اللغات أيضا البابلية والأشورية والعبرية والآرامية « ومنها السريانية »، والكنعانية والحبشية ، وقد انقرض جل هذه اللغات .

والواقع أن المؤرخين لا يستطيعون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل علمى يبينون به الأصل اللغوى الذى انشعبت منه هـــذه اللغات السامية التى تنسب الى أب تاريخى يقولون انه سام بن نوح . ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامى الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللســان البابلى القديم ، فان تلك ظنون أدى اليها وجود بعض المشابهة بينه وبين هـــذه العربية لا يبتعد أن يكون سببها هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول . ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغير سامية يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الانسان الأولى التى لا تزال هى الأخرى مختبئة فى ضمير الزمن . وقد يُستأنس لهذا الاتصال بما بقى فى لغات العالم المختلفة من المشابهة فى بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة ؛ كضمير الخطاب ، فانه اذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف « التاء » فى أكثر اللغات .

وغاية ما توصل اليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية[1] أنه لا بد أن يكون قد دخلها فى أدوار التكوين شىء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحميرية والعبرية وبعض الآرامية القديمة . وبيان ذلك أن عربية عدنان الذى ينتهى اليه عمود النسب العربى الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه الى اسماعيل أبى العرب المستعربة . وهم يقولون ان اسماعيل عليه السلام كان له لسان آخر عبرانى أو كلدانى ، نَسِيه وتعلم العربية من العرب العاربة « أى القحطانية » حين هاجرت قبيلة جُرْهُم الثانيـــة الى بلاد العرب ، ونزلت بمكة وامتزج بهم اسماعيل بالمصاهرة والجوار ، ونشأ منهم ومنه جيـــل عربى جديد هم العـــرب المستعربة أو الاسماعيلية . ويقولون ان أولئك القحطانيين أصـــلهم من الحبشة ،

---

(١) اقرأ كتاب اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان .

عبروا الى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا الى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من المعينيين الذين هم قبائل من بدو الآراميين ، أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا الى بلاد اليمن فعمروها ، وكانت لهم دولةقبل السبئيين والحميريين ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي انتهت بعد فى آخر صورها بالخط المسند أو القلم الحميرى المشهور .

واذن تكون هذه اللغة العدنانية مزيجا موروثا من هذه اللغات السابقة ، وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض . وقد تمثلت بعد ذلك فى المضرية الفصحى فى الوقت الذى ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود حول أوائل القرن السادس الميلادى ، وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربيـة ، وصارت العرب تقريبا بما أدخلوه على لغتهم من ألوان التنقيح وعوامل التهذيب الىوحدة لسانية عامة لا يشوبها الا قليل من الخلاف فى النطق الذى اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات .

وتلك كانت العربية الفصحى ، لغة الشعر والنثر الجاهليين ، وهى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم على أفصح العرب محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . وكانت قبل الاسلام محصورة فى هذه الجزيرة العربية ، فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الاسلامية بين أواسط الهند شرقا ومضيق جبل طارق غربا ، وبين البحر الأسود شمالا وبحر العرب جنوبا ، ووسعت أصقاع العالم المتمدين من ذلك الحين الى وقتنا هذا .

والواقع أن هذا الذى نقوله فى تطور اللغة العربية والأدوار التى مرت بها ليس مبنيا على الجزم واليقين . فمن العسير أن ندلى بأن هذا رأى قاطع ، لأننا لا نملك أسانيد مادية نعتمد عليها فى هذا التتبع وتنتهى بنا الى نتائج يقينية .

وقد لاحظ أسلافنا منذ العصور الأولى اختلافا واضحا بين لغة سكان شمال الجزيرة العربية أو لغة عدنان ، ولغة سكان جنوب الجزيرة أو لغة قحطان . فقد نقل ابن سلام عن أبى عمرو بن العلاء قولته المشهورة : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] . وأورد ابن فارس فى كتاب

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨ طبعة صبيح .

« الصاحبى »[1] أنه « زعم قوم من العرب أن العرب العاربة لم تعرف نحوًا ولا اعرابا ولا رفعا ولا نصبا ولا هـزا » ، وذكر فى هذا المجال قصة عن وفود زيد بن عبدالله بن دارم على بعض ملوك حمير «فألفاه فى متصيّد له على جبل مشرف، فسلم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِبْ ، أى اجلس . وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال : لتجدنى أيها الملك مطواعا . ثم وثب من الجبل فهلك ، فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه فى الكلمة ، فقال : أما أنه ليست عندنا عربيت ، من دخل ظفار حمّر . وظفار المدينة التى كان بها ... أراد : من دخل ظفار فليتعلم الحميرية » .

من هذه الأحاديث وأمثالها يتبين لنا أن العرب أدركوا فرق ما بين لغة عرب الشمال وعرب الجنوب . وهم يزعمون من جانب آخر أن اللغة العربية الخالصة انما نشأت فى بنى قحطان حين اختلط اسماعيل باحدى قبائلهم كما ذكرنا . فاللغة العدنانية مأخوذة فى الأصل من لغة عرب اليمن . ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أن الخلاف كان شديدا بين اللغتين ؛ فقد عثر على نصوص بها نقوش باللغة الحميرية لا تدع مجالا للشك فى مخالفتها للغة العدنانية فى ألفاظها وقواعد نحوها .

والواقع أننا لا نستطيع أن نضع حدودا جغرافية واضحة تفصل شمال الجزيرة عن جنوبها ، وتبين لنا من أين والى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبى من اللغة العربية ، ومن أين والى أين سارت اللهجات الشمالية من العربية .

وليس هناك من شك فى أن اللهجات الشمالية قد أخذت قبيل الاسلام تتمتع بنفوذ كبير على سائر لهجات الجزيرة ؛ فى حين أخذت لغة اليمن تضمحل حتى كادت تندثر فى أواخر القرن السادس الميلادى . وكان مما أعان على سيادة لغة الشمال التدهور الاقتصادى والسياسى الذى ألم ببلاد اليمن ، وانتقال التجارة الى أيدى قريش . فمنذ ذلك الحين أخذت لغة العدنانيين تتمتع بسلطان بعيد على لغات الجزيرة ، ولم يكن هـذا السلطان للغة قريش وحدها كما يتوهم بعض مؤرخى الأدب . وأخذت اللهجات العربية تتقارب وتتداخل ، وقد أعان على هذا التقارب عوامل شتى أبرزها اجتماع العـرب فى مكة لقضاء مناسـك الحج ، واجتماعهم فى الأسواق والمواسم التى كانت صبغتها تجارية وأدبية معا ، وكان

---

(١) الصاحبى ص ٢٢

أكثرها بالحجاز حاضرة التجارة ، كسوق عكاظ قرب الطائف ، وذى المجاز وذي المجنة قرب مكة . فلا جرم أن تسود لغة الشمال وتتقارب اللهجات العربية .

ولكن توحد اللغة العربية لم يكن متاحا الا بتوحيد الأمة العربية . وهذا ما حدث فعلا بظهور الاسلام ونزول القرآن بلغة قريش . فقد تمّت بنزوله سيطرة لغة الشماليين . وقريش خاصة ، على سائر اللهجات العربية التى أخذت فى الانقراض . والقرآن هو الذى ضم شتات اللهجات العربية فى لغة قريش ، الا أنه ظلت بعض اللهجات القوية حية بعد الاسلام كلغة تميم . ثم تكونت من لغة قريش ، ومما بقى حيا من اللهجات العربية ، ومن الألفاظ الدخيلة المعربة ، هذه اللغة العربية التى تضمها معاجمنا والتى نسميها العربية الفصحى .

(ب) عوامل نموها :

لعلك لاحظت مما سقناه فى الكلام عن نشأة اللغات ميلنا الى المذهب الوضعى ، والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة ، وليست وحيا ولا توفيقا . وهى بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة ، بل كانت تتكون من الارتجال والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضرورى . ثم يتناولها بعد ذلك من دواعى الارتقاء وعوامل النمو أسباب كثيرة نجملها فيما يلى :

١ — التفئيم : وهو زيادة حرف أو أكثر فى صدر الكلمة أو وسطها أو نهايتها وهذه أول مرحلة من مراحل نمو اللغة . فقد رجحوا أن الأصول الأولى للغة العربية ولسائر اللغات أصول ثنائية ، على نقيض ما ذهب اليه لغويّو العرب القدماء من أنها ثلاثية[1] ، ثم زيد فى هذا الأصل الثنائى حرف أو أكثر فى أول الكلمة أو فى وسطها أو فى آخرها للدلالة على معان متفرعة من المعنى الأصلى . مثال ذلك للزيادة فى الوسط : من الأصل الثنائى (لم) نجد : لدم ، لطم ، لكم لتم ، لثم ... الخ وكلها تدل على الضرب ، الا أن كلا منها يدل على نوع منه . ومثال للزيادة فى الآخر : قطّ ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم ... فكلها لأنواع مختلفة من القطع . ومثال للزيادة فى الأول : أله ، بله ، تله ، دله ، عله ، وله ... وكلها تدل على معنى التحير والجزع .

---

(١) انظر المزهر للسيوطى ٢٠٧/٢

ولبعض اللغويين العرب القدماء كابن جنى فى « الخصائص » والزمخشرى فى « أساس البلاغة » لفتات دقيقة الى ما يقـوم بين الألفاظ من الاشتراك فى المعنى حين تشترك فى حروفها أو تتشابه .

٢ — القلب المكانى : وهو تقـديم حرف أو تأخيره من حروف اللفـظ الواحد ، مع المحافظة على معناه ، أو انحرافه قليلا عن أصله . ومن ذلك قولهم : جذب ، وجبذ ، ولطم ولمط ، وسكب وسبك . وكل هذه بمعنى واحد ، أو بمعان متقاربة . وكذلك قولهم : بعض وبضع ، وكلاهما بمعنى قطع . ويقولون : صاعقة وصاقعة ، ورجل شائك السلاح وشاكى السلاح .

ويحدث القلب فى اللسان اعتباطا فى الغالب ، وقد يكون سببه التخفيف فى اللفظ أو التفنن فيه . ومثل ذلك كثير الحدوث فى لغتنا العامية ؛ فيقولون ملعقة ومعلقة ، ويقولون « جوز » بدل زوج ، ويقولون « أجا » فى جاء . وقد يختلف المعنى مع القلب وقد لا يختلف .

٣ — الابدال : وهو وضع حرف مكان آخر يقرب منه لفظا . ويقع غالبا بين الحروف التى من مخرج واحد ، أو من مخارج متقاربة ، وهو أعظم أثرا وأوسع دائرة . وأمثلته كثيرة فى لغة العرب ، مثل : الخثالة والحسالة والخفالة للردىء من كل شىء ، واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب الى الحاكم أن ينصفه منه ، وغير ذلك من الأمثلة .

والابدال فى الغالب نتيجـة علة طبيعية فى أعضاء النطق فى أول الأمر ، ثم يصيّره الاستعمال مستقلا عن الأصل ، وان حفظ معنـاه ، أو تغير عنه بعض التغيير وربمـا جعلوا لكل نوع من الألفاظ الحادثة ما يقابله من تنوعات المعنى الأصلى ، فيقولون مثلا : لطم اذا ضربه بكفه مفتوحة ، ولدمه اذا ضربه بشىء ثقيل . كما يقولون فى قضم : أكل بأطراف الأسنان ، أو أكل خشنا ، وخضم : أكل رطبا ، أو أكل بأقصى الأضراس . ومن نحو هذا ما نجده فى اللغة العامية المصرية ، فانهم يجعلون من لفظ « ثقيل » بالثاء المثلثة لفظين ، لكل منهما معنى مستقل ، فقالوا : « سقيل » بالسين بمعنى ثقيل الظل ، وقالوا : « تقيل » بالتاء المثناه بمعنى رزين ، وقالوا فى « ثبات » « سـبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر ، وقالوا « تبات » بالتاء بمعنى صفاقة الوجه .

٤ — النحت : وهو صوغ كلمة من كلمتين أو أكثر نحو عبشمي وعبقسى وعبدرى ، أى منسوب الى عبد شمس وعبد قيس وعبد الدار . وكقولهم « بسمل » اذا قال : باسم الله ، و « حوقل » اذا قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، و « حمدل » اذا قال : الحمد لله ، و« حسبل » اذا قال : حسبنا الله ، و « سبحل » اذا قال : سبحان الله . ومثلها « الطلبقة » و « الدمعزة » فى أطال الله بقاءك ، وأدام الله عزك[1] ...

وفائدة النحت اختصار الألفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق ، وهو مع ذلك نماء فى اللغة ، لأنه زيادة فى عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها . ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف انما هى بقايا ألفاظ لها معنى فى نفسها ، وأنها انما صارت حروفا بعامل النحت ... ومن ذلك حروف المضارعة ؛ فانهم قالوا انهم أخذوا الهمزة من (أنا) ، والنون من (نحن) ، والتاء من (أنت) ، والياء من (هى) ، وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الأصول تقريبا ، فأدت المعانى مع اختصار اللفظ .

ورجحوا أن الأصل فى استعمال باء الجر كان للظرفية ، لأنها لا تستعمل فى اللغات السامية الا لها . وقالوا ان أصلها (بيت) ، بدليل أن هذه فى السريانية معناها فى أو بين ، ثم صارت (بى) فى الكلدانية ، ثم الباء وحدها فى العربية ، فكأن الباء بقية لفظ (بيت) أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ[2] .

ولم يعد لأحد من المتكلمين بالعربية الآن حق فى استعمال الأسباب السابقة من عوامل نمو اللغة فى وضع ألفاظ جديدة على هذا النحو ، لأن ذلك — على ما يقولون — حق خاص بالعرب وحدهم ، وقد انقضى دهر منذ القرن الثانى للهجرة . وان لك أن تقول حينئذ ان أكثر اللغات الحية قد يفضل اللغة العربية من هذه السبيل لخلوص هذه اللغات من قيود الصبغة الدينية التى دعت أهل العربية الى المحافظة على صورتها الموروثة ، استبقاء لطريق الشريعة ، وحرصا على سلامة الكتاب والسنة اللذين هما عماد الملة وقوام الاسلام .

---

(١) انظر كتاب « الاشتقاق » لابن دريد ص ١٦٢ وما بعدها .

(٢) ارجع الى كتاب : تاريخ اللغات السامية ص ٢١

ولئن فاتنا الشيء الكثير من هذا فلن يفوتنا ما نتعوض عنه من وسائل أخرى نذكر منها ما يلى :

٥ — الاشتقاق : واللغة العربية من اللغات الاشتقاقية ، ويعتبر الاشتقاق من أهم العوامل فى نمو اللغة واتساعها ، وقد بنى على مقاييس ثابتة . وهو أداة المجامع اللغوية حين تقصد الى وضع مصطلحات جديدة . ويحسن أن يصدر ذلك عن نخبة من حملة اللغة ورجال العلم وأهل الصناعات المختلفة يمكن أن يثمر مجهودهم ما يعد كفاية للحاجة على قدر المستطاع .

والاشتقاق معروف ، وهو أخذ كلمة من كلمة تشترك معها فى مادتها وتركيب أكثر حروفها ؛ كصيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والأداة ، وغير ذلك من ضروب الاشتقاق .

٦ — المجاز : ان الكلمة لا تحتفظ بمعناها الأصلى ، بل سرعان ما يكسبها الاستعمال معانى أخرى مجازية تتصل بالمعنى الأصلى بصلات أبرزها المشابهة ، وهو ما يعرف بالاستعارة ، وقد تكون العلاقة غير المشابهة ، ويكون ذلك فى المجاز المرسل . واذا شاع استعمال المعنى المجازى لغرض من الأغراض صار بمثابة الحقيقة ، لا سيما اذا لاحظنا أن أكثر الألفاظ كان يدل فى أول نشوئه على المعانى المادية ، ثم صار يدل على المعنويات ؛ كلفظ العقل مثلا ، فانه من عقل البعير أى ربطه ، وكلفظ الرحم بمعنى القرابة ، ثم الرحمة ، فهما من رحم المرأة . وقد ضاعت الأصول الأولى لكثير من الألفاظ ، ولم تبق الا المعانى المشتقة منها .

٧ — التعريب : أخذت اللغة العربية منذ أقدم الأزمان ألفاظا كثيرة من لغات الأمم المجاورة ، برغم انعزالها النسبى . وفى شعر بعض الجاهلين ، والأعشى خاصة ، وفى القرآن الكريم طائفة كبيرة من الألفاظ المعربة نحو : استبرق ، وجهنم ، وزنجبيل ، وطوبى ، وكافور ... الخ[1] .

---

(١) يمكنك الوقوف على كثير من الألفاظ الدخيلة فى القرآن بالرجوع الى كتاب الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ١٤٢ وما بعدها ، وكتاب المعرب للجواليقى ص ٤ ، ٥

ولا تنفرد اللغة العربية بالاخذ عن اللغات الأخرى ، بل هو أمر تشترك فيه اللغات جميعا . وينجم من اتصال الأمم بعضها ببعض من طريق المجاورة ، أو التجارة ، أو الحرب . او غير ذلك من أسباب الصلات .

٨ — الاصطلاح : أضيف الى اللغة العربية طائفة كبيرة من المصطلحات ، ولعل من أقدمها تلك المصطلحات التى جاء بها الاسلام ، كلفظ الاسلام نفسه ، والصلاة ، والزكاة . والكفر ، والصيام ، والنفاق ، وغيرها من الألفاظ التى أوجدها الاسلام معانى جديدة غير معانيها الأولى .

(جـ) خصائصها :

يذكر اللغويون خصائص تمتاز بها اللغة العربية ، فهى تمتاز من اللغات السامية باشتمالها على عناصر جدّ قديمة تمتّ الى الساامية الأم . ولهذا يرى بعض المستشرقين مثل الأستاذ « أولسهوزن Olshausen » أن العربية أقرب أخواتها الساميات الى اللغة الأم[١] . وربما كان لانعزال الأمة العربية الى حدّ ما فى جزيرتها التى تحف بها الصحارى والبحار ما يقوى هذا الرأى . ولكننا لا نستطيع اعتبار هذا الرأى يقينا علميا ثابتا لعدم توافر الأدلة .

ولعل من الخصائص التى تمتاز بها اللغة العربية الأمور الآتية :

١ — الاعراب : وهو من صفات العربية قديما وحديثا . ولا عبرة بقول من يقول ان من العرب من كانت له عامية ملحونة[٢] ، فان ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلا نادرا لا يُعتدّ به . ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة فى مرتبة لغة الخاصة من الشعراء والأشراف .

ويبدو لنا أن اللغة العربية لا تنفرد بخصيصة الاعراب ، فقد كانت بعض اللغات القديمة تعرف الاعراب[٣] . ولا تزال تعرفه من اللغات الحاضرة الألمانية

---

(١) نشوء اللغة العربية لانستاس الكرملى ص ٨٢

(٢) انظر كتاب الأصول العربية لأسد رستم ص ١١٠

(٣) انظر ككتاب اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان ص ١٨

والحبشية . وتكاد تنسلخ عنه الألمانية على مرور الأيام . ولكن اللغة العربية سوف تحتفظ به الى يوم الدين .

٢ — دقة التعبير فى الألفاظ والتراكيب : أما فى الألفاظ فيكاد يوجد عندهم لكل معنى من المعانى وأجزائها لفظ خاص . فقد استوعبوا كل ما أحاط بهم ، فاطلقوا عليه اسما يميزه ، كاجزاء الحيوان والانسان والنبات والطير والليل والنهار ، فجعلوا لكل جزء منها لفظا يخصه ... فساعات النهار مثلا : الذرور ، فالبزوغ فالضحى ، فالغزالة ، فالهاجرة ، فالزوال ، فالعصر ، فالأصيل ، فالصبوب ، فالحدور ، فالغروب . وهى أيضا : البكور ، فالشروق ، فالاشراق ، فالرأد ، فالضحى ، فالمتنوع ، فالهاجرة ، فالأصيل ، فالعصر ، فالطفل ، فالحدور ، فالغروب . وساعات الليل : الشفق ، فالعتمة ، فالسدفة ، فالفحمة ، فالزلكة ، فالبهرة ، فالسحر ، فالفجر ، فالصبح ، فالصباح[1] .

ومن ذلك تفرع المعانى من الفعل الواحد ، ونذكر مثلا لذلك فعل « النظر » ، فانه يتفرع الى رمق ، ومعناه نظر الى الشىء بمجامع عينيه ، ولحظ : أى نظر من جانب أذنه ، ولمحه : نظر اليه فى عجلة ، وحدجه : رماه ببصره مع حدة ، وشفن : نظر كالمتعجب أو الكاره فان أدام النظر فى سكون طرف قيل رنا ... الى غير ذلك مما نراه مبسوطا فى كتب اللغة عامة ، وفى المخصص لابن سيده بنوع خاص .

وكذلك دقة التعبير فى التراكيب واتيانها على مقتضيات الأحوال . وربما كان من أبرز ذلك مزيدات الأفعال وصيغ المشاركة ، وهذا من خصائص اللغة العربية . ذلك أنه يمكن التعبير باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لا يتأتى التعبير عنها فى غير العربية الا بعدة ألفاظ ، مثل تقاضوا وتقابلوا .

وينبغى ألا ننسى أن بيئة العرب كانت قليلة التنوع ، فهذه الدقة محدودة فى نطاق ضيق ، حتى لقد اضطر العرب منذ الاسلام أن يعربوا كثيرا من الألفاظ التى لا عهد لهم بمسمياتها .

---

(١) انظر الجزء الثانى من المزهر للسيوطى .

٣ — الايجاز : والعرب أقدر على هـذا النوع من البيان من غيرهم من الأمم التى لا تخلو بلاغتها من شىء منه . وقد تصل العبارة من القصر الى حد الايماء والاشارة ، مع اشتمالها على المعنى ووفائها بالغرض ؛ كالمثل والحكمة . وقلما تكون لغة من لغات العالم كالعربية فى هذين الأمرين .

٤ — الترادف والتضاد : وقد فاق العـرب فيهما سائر الأمم ؛ فعندهم للمطر والريح والنور والظلام والأسد والسيف والناقة والخمر والماء والبئر أسماء كثيرة ؛ من عشرين فى بعضـها الى ثلثمائة فى بعضها الآخر ، وكذلك الشأن فى الأوصاف ... فللطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يعبَّر بها عنها تعدّ ثروة واسعة فى اللغة ومفرداتها .

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت فى الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد وظواهره ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج ، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال وغلبت عليها الاسمية[1] .. فان الخَطَّار والخَطَّام والباسل والأصْيد من أسماء الأسد ، ولكل منها وصف خاص مغاير لمـا يدل عليه الآخر . وكذلك ما يعد من أسماء السـيف كالمصمّم والصمصام والهندى والهندوانى والحسام والعضب وغير ذلك .

وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله فى العربية لغات لقبائل مختلفة ، ولم يراع نقلة اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه .

والترادف عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأسـتاذ عند محاولة البسـط والترغيب فى فضائل الأمور والبلوغ الى تقريب الغامض من حقائق الأشياء ، وتكشيف المعانى المبهمة بعرضها فى جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها فى النفوس .

وأما التضاد ، وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده ، فهو من خصائص اللغة العربية ؛ كالجَوْن للأسود والأبيض ، والجلل للعظيم والحقير ، والشَّف للزيادة والنقصان ، والصَّريم للصبح والليل المظلم . وفى اللغة مئات الألفاظ من هذا ونحوه يدل كل واحد منها على الشىء وضده . وينبغى أن يلاحظ فى التضاد أيضا

---

(١) ارجع الى كتاب علم اللغة للدكتور على عبد الواحد .

اختلاف الوضع كما سبق ، لان الاصل فى وضع اللفظ ان يكون أداة للفهم ، لا وسيلة الى الابهام والتعمية .

٥ — الاشتراك اللفظى : اى دلالة اللفظ الواحد على المعانى الكثيرة . وقد يكون هذا من عيوب اللغة وقصورها ، الا اذا استطاع المتكلم أن يجد لهذه المعانى دوالّ أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظى . فقد قدمنا أن الانسان فى بدء نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعانى الكثيرة ، وكان ذلك من معانى العجز فى اعتبار علماء اللغة عن ايجاد الكميات اللفظية لهذه المعانى ، اذ كانت اللغة لا تزال حينئذ فى طور الوجود الأول تقريب . واذن لا ينبغى أن يعد الاشتراك اللفظى دليلا على رقى اللغة الا على هذا النحو الذى قدمناه . ومن ذلك مثلا كلمة الروح : فهى ما به الحياة ويؤنث ، والملك ، والوحى والقرآن ، وجبريل ، وعيسى . ومن ذلك كلمة العين : فهى للباصرة ، والجارية ، والسحاب ، واليد ، والدينار ، والذهب ، والجاسوس ، والكبير من القوم ، والمشهور من الناس والأشياء . وكذلك كلمة الخال : فهى لأخى الأم ، واللواء ، والظن ، والكبر ، والشامة .. وغير ذلك كثير فى اللغة نكتفى منه بما ذكرنا .

(د) اختلاف اللهجات :

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع فى جملته الى ثلاثة أوجه ، ويلاحظ أن العلماء كثيرا ما يضعون اللغة مكان اللهجة .

الأول : ما يمكن من تنوع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ ، وهو أهمها. ويرجع سببه فى الغالب الى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة ، كالذى يرى الآن فى القرى المتجاورة والمتباعدة فى أعلى مصر وأسفلها . ومن أمثلة ذلك قول بعضهم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما ترى فى رجل فلحتّى بضبى » ، فقال له : وما عليك لو قلت : ضحتّى بظبى » ، فقال : انها لغة بكسر اللام ، فكانت هذه أعجب[1] .

الثانى : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات ، وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق . ومن ذلك أن أبا هريرة رضى الله عنه لما قدم من دوس

---

(١) انظر كتاب البلغة لصديق خان ص ٦٧

« وهى بطن من الأزد اليمانية » عام خيبر لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد ، فكرر له القول حتى قال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها ، فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكينا[1] ؟

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربى ، مع اطباق العرب على النطق بخلافه . وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك قد وقع لهذا العربى من لغة قديمة طال عليها العهد ، وبادت آثارها .

واذن يكون التعويل فى اختلاف اللهجات على الوجه الأول ، وهو لا يتعدى صورة النطق بالكلام ... ويلحقها فى بعض الأحيان ابدال حرف بآخر ؛ كابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن ، اذ يقولون : با اسمك ؟ مكان : ما اسمك ؟ ويقولون[2] : مكر فى بكر ، وكتردد الكلمة بين الادغام والفك ، وبين الاتمام والنقص ، أو بين الصحة والاعلال ، والاعراب والبناء ... فمثلا أهل الحجاز يفكون المضارع المضعّف المجزوم بالسكون وأمرَه ، وتميم تقولهما بالادغام . وخثعم وزبيد تنقص نون «مِن» الجارّة ، فيقولون : خرجت مِلْبيت ، كلغة عامة أهل مصر فى قولهم : خرجت من البيت ، وغيرهم من العرب يتمها . وطيىء تُعِلّ الأفعال الثلاثية التى من باب فرح ، كبقى ورضى بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها . وقيس بن ثعلبة تعرب لدن ، وغيرهم يبينها .

هذا الى أنه قد كان لكل قبيلة عيب فى النطق ، اشتهر منه : عجعجة قضاعة ، وهى جعل الياء بعد العين جيما ، مثل قولهم : الراعج فى الراعى .. وطُمْطمانية حمير ، وهى جعل أمْ بدل ال ، وبلغتهم الحديث الشريف : « ليس من امبرّ امصيام فى امسفر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر .. وتلتلة بَهراء . وهى كسر أحرف المضارعة مطلقا ... وفحفحة هذيل ، وهى جعل الحاء عينا ، مثل : العَسَن فى الحَسَن ، واللعْم فى اللمم .. وعنعنة تميم ، كقولهم فى أن عن ، بابدال الهمزة المبدوء بها عينا ... وكشكشة أسد وربيعة ، وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل : عليشِ فى عليكِ ... وكسكسة هوازن ، وهى

---

(١) الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب لابن السيد البطليوسى ص ١٨١

(٢) انظر فى ذلك مقدمة ابن خلدون ، والمزهر للسيوطى .

زيادة سين بعد كاف المؤنث ، فيقولون : أعطيتُكِس و منكِس ... ولتَخلصَخانية الشَّحْر ، كقولهم : مشا الله ... واستنطاء أسد ، كقولهم : أنطى فى أعطى بجعل العين الساكنة نونا مع الطاء ... وشنشنة اليمن ؛ وهى جعل الكاف شينا مطلقا نحو : شلمنى فى كلمنى ، والتَّبْيش فى لبَّيك ... وقَطعة طيىء ، وهى حذف آخر الكلمة ، فيقولون : يا أبا الحكا فى يا أبا الحكَم ؛ كما فى لغـــة كثير من أقاليم مصر .

هذا وقد أتى تهذيب اللغة فى أدواره المختلفة على أكثر هذه الهنوات الا ما كان منها تابعا لتأثير البيئة ، فقد بقى منه شىء حتى بعد ظهور الاسلام . ولا يزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين باللغـــات من جميع الأمم المختلفة .

(هـ) أطوار تهذيب اللغة وعوامله :

ليس من المعقول أن تكون اللغة ــ كما يقول بعضهم ــ قد برزت الينا من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة . ومن المحقق أنهـــا تقلبت فى أدوار مختلفة وأدهار طويلة ، تنازعها فيه ما يتنازع الأحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقى والانحطاط . ومن العبث أن يتطاول انسان الى تحديد الزمن الذى تمثَّلت فيه اللغة بصورتها المروية لنا . وكل ما يقال فى ذلك يراعَى فيه تقريب هذه الحقيقة الى التصور على وجه من وجوه تغليب الظن ليس غير . ومما لا شك فيه أيضا أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها فى بعض ، ولاتحاد أكثر قبائلها فى كثير من دواعى المعيشة وأساليب الحياة ، ولَمَّا كان بينهم من الأواصر القوية فى الجنس وطبيعة البيئة والعادة .

وذلك ــ بجانب ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التى سنذكرها بعد ــ قد أدى كله الى تخلصها من الاختلافات ونقائها بالتدريج من الوحشية والغرابة ، وصيرورتها الى درجة من الوحدة والعذوبة صلُحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الاعجاز ، واشتملت على أعلى مراتب البيان والفصاحة . ويرجح الباحثون أن من بين هذه الأسباب[1]:

---

(١) اللغة العربية كائن حى لجورجى زيدان ص ٤٨

١ ــ تنقيح اسماعيل عليه السلام ، وهو أصل العربية العدنانية كما ذكرنا . ولا يبعد أن يكون ذلك الهاماً الهياً خص الله به نبياً من أنبيائه ، أو يكون ذلك على الأقل ناجما عما امتاز به ذلك الأب العربى عن سائر أهل عصره من سلامة الفطرة وقوة الذكاء وحسن الاختيار والتتبع ، مع ما يلحق بذلك من تطاول الزمن الذى هو وعاء طبيعى لبلوغ الكائن الحى درجة من الكمال فى تدرجه الى الارتقاء . واقترن ذلك الوقت بظهور اسماعيل عليه السلام ، ثم درج العرب بعد اسماعيل على هذا السنن الفطرى من الانتقال فى مدارج النمو والتحسين . وقد اشترك فى هذا التهذيب أكثر القبائل العربية ، اذ كان بعضهم يأخذ من بعض بالمخالطة والاجتماع فى أيام وقائعهم ، وعند تلاقيهم فى الانتجاع ، وخروجهم فى المنافرة الى الحكام ، واحتشادهم للمفاخرة بالأحساب والأنساب . وكان للشعراء من هذا الاصلاح نصيب لا يقل عنه ما كان للأشراف من خطباء العشـــائر فى محاكاة العامة لهم ، واجتهادهم فى مساماة ألسنتهم ، حتى نشأ بينهم التنافس فى احكام اللغة والمفاخرة بالبيان . ويمكننا أن نعتبر ذلك الدور الأول .

٢ ــ وكان الدور الثانى هو استفحال نهضة قريش وتسنّمهم ذروة النفوذ الأدبى ، واستحواذهم على السيادة العامة فى جمهرة القبائل العربية . وقد وصلت لغتهم الى درجة عالية من الفصاحة ، وأخذت بأطراف العذوبة ، وأقبل العرب يحاكونها ويمشون على أثرها ، حتى انتهى آخر ذلك الاصلاح القرشى بظهور الأسواق الأدبية التى كان لقريش فيها أيضا من الفضل ما لها ، اذ كان العرب يرجعون الى منطقهم ، ويتأثرون بعذوبتهم فيما يُعدّونه من القريض وما يحبرونه من الخطب التى يتحاكمون فيها الى قضاة يُصـــدرون عن رأيهم ، ويسمعون لحكمهم فى هذه الأسواق التى أشهرها عكاظ ، وهى موضع بين نخلة والطائف ، وقد أقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة ، وبقيت بعد الاسلام ، وان لم تكن فى شأنها الأول ، حتى نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة . وكانت تقوم هلال ذى القعدة الى عشرين منه ، ثم ينتقل العرب منها الى مَجَنَّة ، وهى موضع قرب مكة ، ثم الى ذى مجاز ، وهى على فرسخ من عرفة ، فيكونون بها الى أيام الحج .

وكان الأشراف من العرب انما يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم الا عكاظ ، فانهم كانوا جميعا يتوافدون اليها لمفـــاداة أسراهم ، والتحـــاكم فى خصوماتهم ، وللمفاخرة بالأحساب ، والتباهى بصفات الفضائل : من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والأشعار والخطب . وفيها أنشد عمرو بن كلثوم مطولته فيما يقول بعض الرواة . وكان للنابغة الذبيانى قبة تُضرب له يتحاكم اليه فيها الشعراء ، كما هو معروف ، وقصـــته مع الأعشى والخنساء وحسان مشهورة . وفيها خطب قس بن ساعدة الأيادى خطبته المشهورة ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جمل أورق .

وقد كان هذا الاجتماع العام مظهرا جميلا من مظاهر الحضارة ، يقتضى طبعا تجويد المنطق ، وارهاف اللسان ، والمبالغة فى اتقان صناعة الكلام ، والاجتهاد فى مقاربة العذوبة فى لغة قريش التى لم يقتصر فضلها على حمل العرب فى جملتهم على اتباع مناهجها والتأثر بأسلوبها ، بل كانت لا تزال تشهد هذه المواسم وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل فى هذا الدور الأخير من التهذيب ، حتى بلغت لغتها الى أرفع مراتب الكمال اللغوى فى هذا العصر .

* * *

وبعد ، فهناك حقيقة خليقة بالذكر ، وهى أننا نلاحظ أن اللغة العربية تكاد تكون أقل اللغات تطورا على ممر العصـــور . ومرد ذلك أنها لغة القرآن ، والقرآن ، فضلا عن كونه كتاب المسلمين الأقدس ، هو كتاب العربية الأول ، ونموذج رائع معجز ، تعنو له جباه أساطين البلاغة والبيان . كل ذلك جعل لغة القرآن تصبح قدوة الكُتّاب ورائد الأدباء فى كل عصر ، مما حال دون أن يلمّ باللغة العربية كبير تطور كذاك الذى أصاب سائر اللغات العالمية ، ومما باعد بين لغتنا الفصحى ولغاتنا العامية المتطورة .

ملاحظات على الموسوعة العربية[1]

للدكتور عبد العزيز مطر

المدرس بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية البنات

لعل من أهم الأحداث الأدبية فى عام ١٩٦٥ صدور « الموسوعة العربية الميسرة »[2] التى أسهم فى اخراجها نخبة من العلمـــاء والفلاسفة والأدباء ، المتخصصين فى كل علم وفن ، فألفوا ، وترجموا ، واقتبسوا خلاصة معرفة متخصصة وقدموها فى عرض علمى ، سهل التناول ، محكم الترتيب ، جميل الاخراج .

وليس من شك فى أن هذه الموسوعة قد صدرت ومكانها شاغر فى المكتبة العربية ، بعد أن مضى حين من الدهر على موسوعة بطرس البستانى ، وبعد أن اختلفت طريقة التأليف عنها فى موسوعة فريد وجدى ، ولطول الأمد قبل اتمام موسوعة فؤاد أفرام البستانى ، ولعدم تيسر « دائرة المعارف الاسلامية » كاملة لقراء العربية ، ثم لحاجتنا فى مرحلة نضجنا الثقافى والعلمى الى أن تكون لنا موسوعة تسجل نهضتنا فى عرض علمى ، وبأسلوب العصر ، فنقدم لقراء العربية ثمار تجاربنا وتجارب الآخرين ، ونقدم لأصحاب الموسوعات الأجنبية معارف عربية يترجمونها عنا ، فنزداد من العالم قربا ، ويزدادون بنا معرفة .

وقد دفعنى تقديرى لهـــذا المجهود الى أن أضع بين يدى القراء ولجنة الموسوعة هذه الملاحظات :

(١) نشرت هذه الملاحظات فى صحيفة « الأهرام » فى المدة من ٦٦/١/١٤ الى ١٩٦٦/٤/٨ ، ثم قررت الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية ، طبعها وتوزيعها على اعضاء المؤتمر الثالث للمجمع ، المنعقد فى المدة من ٦٦/١٠/١١ الى ١٩٦٦/١٠/٢٧

(٢) اعدتها لجنة باشراف محمـــد شفيق غربال ، ونشرتهـــا « دار القلم » ومؤسســـة « فرانكلين » للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥

الموسوعة تنسب الى القرآن ما ليس فيه

١ — فى مادة « جهنم » فى الموسوعة العربية نص ينسب الى القرآن الحكيم ما لا تدل عليه آياته ، حين يقرر :

□ أن القرآن — فى آيات كثيرة منه — صور جهنم على هيئة حيوان هائل ، فغرفاه ، وكشف عن أنيابه ، وتأهب لالتهام الظالمين .

□ وأن القرآن — فى آيات أخرى — صور جهنم على أنها تتألف من دوائر متحدة المركز على هيئة فوهة بركان . وهذا هو نص ما جاء فى الموسوعة : « ... وقد تردد ذكر جهنم كثيرا فى القرآن ، فصورت فى آيات كثيرة على هيئة حيوان هائل فغر فاه ، وكشف عن أنيابه ، وتأهب لالتهام الظالمين . وفى آيات أخرى تصـــوير لها يجعلها تتألف من دوائر متحدة المركز على هيئة فوهة البركان » .

الحق أننى عندما قرأت هذا النص فى الموسوعة ، خيم على نفسى ستار قوى من الشك فى أن يكون فى القرآن الكريم آية واحدة ، بله آيات كثيرة ، تصور جهنم على النحو السالف . ولكن تيارا آخر كان يقاوم هذا الشك فى نفسى ، هو أن مادة كهذه لا بد أن يحررها متخصص ، يستند فيها الى المصدر الأصيل ، ولا بد أن تكون قد مرت بمرحلة من المراجعة تكشف الخطأ قبل نشره . ولكن هذا الاحتمال أو ذاك لا يغنى من الحق شيئا ، فسلك البحث طريقه المنهجى ابتغاء الوصول الى كلمة الفصل :

(١) وكانت أولى خطوات البحث الرجوع الى المصدر الأول والأصيل ، وهو القرآن الحكيم . وبدأت استقراء المواضع التى ذكرت فيها جهنم (٧٧ مرة) والنار (١٤٥ مرة) والجحيم (٢٦ مرة) والسعير (١٦ مرة) وسَقَر (٤ مرات) والحُطَمة (٢) وهاوية (١) وقـــرأت الآيات كلها ، محاولا استجلاء أسرارها البيانية ، مستعينا بأوثق تفاسير القرآن . وانتهت هذه الخطوة من البحث بتقرير أن القرآن الكريم ، فى تصويره لجهنم لم يجعلها « حيوانا هائلا ، فغر فاه ، وكشف عن أنيابه ، وتأهب لالتهام الظالمين » . وأنه كذلك لم يجعلها « تتألف من دوائر متحدة المركز على هيئة فوهة البركان » كما تزعم الموسوعة .

(٢) وكانت الخطوة الثانية محاولة الكشف عن المرجع الذى يحتمل أن يكون محرر المادة قد نقل عنه هذا الكلام :

اتجه البحث أولا الى الموسوعات العربية الحديثة ، فرجعت الى « دائرة معارف وجدى » و « دائرة معارف البستانى » و « دائر المعارف الحديثة » فلم أعثر فى أى منها على تصوير جهنم عند المسلمين بصورة الحيوان الهائل ، أو الدوائر التى على هيئة فوهة البركان .

واتجه البحث ثانيا الى دوائر المعـــارف الأجنبية ، وبرزت فى مقـدمتها موسوعة « كولمبيا قايكنج دسك » التى ترجمت منها جمهرة المواد المنشورة فى موسوعتنا العربية . وقد أسفرت مقابلة النصين العربى والانجليزى ، عن أن محرر مادة « جهنم » فى موسوعتنا ترجم عن موسوعة « كولمبيا » جميع مادته ، ما عدا النص الذى نحن بصدده ، فان الموسوعة الأمريكية كانت من الدقة بحيث لم تأخذ بهذه الفكرة التى نقلها محررنا العربى من مصدر آخر ، دون أن يرجع الى المصدر الأول والأصيل وهو القرآن الكريم .

كذلك كانت دائرة معارف « لاروس » الفرنسية ، من الدقة فى تصوير « جهنم » عند المسلمين ، بحيث لم تقع فيما وقعت فيه « الموســـوعة العربية الميسرة » .

(٣) وكان آخر المطاف « دائرة المعارف الاسلامية » وبقراءة مادة «جهنم» فيها تتكشف جوانب الموضوع ، فقد تبين لنا أنها هى المصدر الذى نقلت منه موسوعتنا هذه الفكرة الغريبة عن القرآن والاسلام ، نقلتها خطفا من غير أناة ، وتسليما من غير بحث ، وتخليا عن المنهج العلمى السليم الذى يقضى بالرجوع الى المصدر الأصيل .

ومع أنى لا أرتضى مسلك الموسوعة فى اتخاذ الموسوعات الأجنبية مصدرا أصيلا فى مسائل عندنا مصادرها ، فقد كنت أرجو ــ وهذا أضعف الايمان ــ أن يكون الرجوع الى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية ، لاشتمالها على تعليقات وتصحيحات قام بها صفوة من علمائنا المتخصصين ، وهذا عمل

يحمد للجنة ترجمة هذه الدائرة الى اللغة العربية . ولو أن محرر مادة « جهنم » فى الموسوعة رجع الى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية وقرأ التعليق الذى كتبه أحد علماء الاسلام[1] لتخلّى فورا عن نقل هذا النص ، ولما نسب الى القرآن الكريم ما لا تدل عليه آياته .

ومن حق القارىء الآن أن أورد له ترجمة ما جاء فى « دائرة المعارف الاسلامية » وقد نقلته الموسوعة ، وأتبعه نص التعليق عليه فى الترجمة العربية :

جاء فى الدائرة (مادة جهنم) : « وقد تردد ذكر جهنم وفكرة جهنم كثيرا فى القرآن ... فالواقع أنه فى بعض الآيات يتحدث عن جهنم وكأنها شىء يحمل (وجاء رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيء يومَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يومَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ وَأَنَّى لهُ الذِّكْرَى)[2] . ويلوح أن النبى محمدا فى هذه الآية (كذا فى الدائرة . والقرآن كلام الله) يمثل جهنم على صورة الحيوان ، فهى فى نظره أشبه بوحش هائل ، فغرفاه وكشف عن أنيابه ، وتأهب لالتهام المغضوب عليهم . وقد صور أحيانا فنانو الغرب فى العصور الوسطى مظهر القديس (براندان) على هذا النحو » .

هذا هو نص الترجمة العربية ، ومنه نقلت « الموسوعة العربية الميسرة » النص الذى تؤاخذها به ، بعد أن استبدلت بكلمة « يلوح » عبارة تقريرية تقول « فصورت فى آيات كثيرة على هيئة حيوان .. » وبكلمة « المغضوب عليهم » كلمة « الظالمين » .

وهذا هو نص التعليق الوارد فى الترجمة العربية للدائرة والذى لم يطلع عليه محرر « الموسوعة » :

« ما قاله هنا كاتب المقال ليس فيه شىء يطابق المنهج العلمى للبحث ، هو يكتب على عقيدته ، لا يصدق برسالة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فليست لنا حيلة فى اقناعه . ومن عجب أن يفهم من آيات سورة الفجر أنه يلوح

---

(١) المغفور له الشيخ أحمد محمد شاكر .
(٢) سورة الفجر : ٢٢ — ٢٣

له أن رسول الله يمثل جهنم على صورة الحيوان .. الخ . وما أدرى من أين يلوح هذا له ، ولم يلح لأحد من العرب الذين سمعوا القرآن ، وكفروا به قبل أن يؤمنوا ، أو يؤمن أكثرهم ، وانما قوله : « وجِيءَ يَومَئِذٍ بِجَهَنَّم » أنها عُرِضت عليهم أو عُرِضوا عليها ، جيء بهم اليها . وهذا مجاز معروف للعرب ، فهى فى معنى قوله تعالى : « وبُرِّزَتْ الجَحِيمُ للغاوِينَ »[1] ، وقوله تعالى : « وبُرِّزَت الجَحِيمُ لِمَن يَرَى »[2] . هذا هو التعليق الوارد فى الترجمة العربية وتفسيره للآية يوافق أوثق التفاسير ، وعليه اقتصر الأستاذ الامام محمد عبده اذ قال فى (تفسير جزء عم) :

« (وجِيءَ يومئذٍ بجَهَنَّم) هو كقوله تعالى : (وبُرِّزَت الجَحِيمُ لمَنْ يَرَى) أى كُشِفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، فكأنها كانت بعيدة وجاءت اليهم » .

وقد استمدت « الموسوعة العربية » قولها « فى آيات كثيرة » من قول « دائرة المعارف الاسلامية » : « على أن تصور جهنم على هيئة الحيوان ليس هو الغالب فى القرآن » ، وكان تعليق الترجمة العربية على العبارة السابقة : « بل هو لا يوجد فى القرآن ولا فى شىء مما يعرف المسلمون » .

بقى الآن الشق الثانى من النص الذى ينسب الى القرآن ما لا تدل عليه آياته ، أعنى ادعاء أن فى القرآن تصويرا لجهنم على هيئة دوائر متحدة المركز على هيئة فوهة البركان . وهذا الكلام أيضا نقلته الموسوعة عن « دائرة المعارف الاسلامية » دون بحث ، ولو قرأ الناقل النص بتمامه لوجد أن كاتبه لم يجد فى القرآن من هذا التصوير الا ذكر أبواب جهنم السبعة . أما بقية هذا التصوير فقد استقاه من كتاب تركى عنوانه « معرفة نامه » جاء فيه أن جهنم « تتكون من سبع طبقات على هيئة فوهة بركان هائل » وكان تعليق الترجمة العربية : « وما قيمة هذا الكتاب التركى ، وهل هو حجة فى الاسلام ؟ أو حجة على الاسلام ؟ » .

---

(١) سورة الشعراء : ٩١

(٢) سورة النازعات : ٣٦

قالوا عن « موطأ » مالك : ألفه أنس بن مالك !

٢ - الثابت يقينا أن « الموطأ » وهو من أشهر كتب الحديث والفقه من تصنيف الامام مالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى (ت ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م) .

ولكن « الموسوعة » نسبت هذا الكتاب الى أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ - ٧١١ م) خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأحد رواة حديثه .

وربما خطر للقارىء أن الخطأ هنا مطبعى ، حيث وضع « أنس بن مالك » مكان « مالك بن أنس » . ولكن « الموسوعة » أكدت هذه النسبة الخاطئة مرتين ، ففى مادة « الموطأ » (ص ١٧٨٥) قالت الموسوعة : « كتاب لابن مالك .. انظر ابن مالك : أنس » . وفى مادة « ابن مالك : أنس » (ص ٢٦) قالت « الموسوعة » : « اشتهر بكتاب الموطأ وهو أساس الفقه المالكى انظر الموطأ » . والمعروف أن مالكا أتم تصنيف كتابه بعد وفاة أنس بن مالك بأربعة وستين عاما .

وانصافا لمن كتب مادة « مالك بن أنس » (ص ١٦٣٠) أسجل هنا أنه قال : « وله كتاب الموطأ » . ولكن هل يقوى هذا الصواب على محو الخطأ الذى تكرر فى مادتين أخريين فى « الموسوعة » ؟

وأصحاب القراءات المشهورة !

٣ - فى مادة « القراءة » : طريقة تلاوة القرآن ونطق ألفاظه (ص ١٤٧٢) قالت « الموسوعة » : « ومنها السبع الصحيحة وهى : قراءات أبى عمرو بن سليمان المعروف بحفص ، وحمزة ، وعاصم ، وابن عامر ، وابن كثير ، ونافع ، والكسائى » .

ففى علم « الموسوعة » أن حفص بن سليمان من القراء السبعة ، وهذا خطأ ، ويجب أن يوضع مكانه : أبو عمرو بن العلاء المازنى ، مقرىء البصرة ، وأحد السبعة المشهورين (ت ١٥٤ هـ - ٧٧٠ م) .

أما حفص بن سليمان بن المغيرة ، وكنيته : أبو عُمَر - لا أبو عمرو كما ذكرت الموسوعة مرتين - فليس من السبعة ولا من العشرة ، بل هو أحد اثنين

رويا القراءة عن عاصم بن أبى النجود (ت ١٢٨ هـ — ٧٤٦ م) أحد السبعة . وحفص هو أعلم أصحاب عاصم بقراءته .

وهذا الخلط — فى الموسوعة — بين أبى عمرو بن العلاء ، وأبى عمر حفص أدى الى خطأ آخر ، وهو :

٤ — فى مادة « حفص » (ص ٧٢٧) ذكر تاريخ ميلاده ووفاته ، هكذا (٦٨٩ — ٧٧٠ م) وهو نفسه تاريخ ميلاد ووفاة أبى عمرو بن العلاء . وصحة تاريخ حفص بن سليمان هو (٧٠٩ — ٧٩٦ م) .

□ فى مادة «القراءة» أيضا ، قالت «الموسوعة» : « وقد يضاف اليها ثلاث (قراءات) فتصبح عشرا ، وهى : رواية يعقوب ، وخلف ، وأبو عبيد » .

وذكر أبى عبيد فى القراء العشرة غلط . ويجب أن يوضع مكانه : أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى (ت ١٢٨ هـ — ٧٤٦ م) أحد القراء العشرة المشهورين . (راجع فى كل ما سبق — مثلا — « البرهان فى علوم القرآن » للزركشى ، « غاية النهاية فى طبقات القراء » و « النشر فى القراءات العشر » لابن الجزرى) .

لقد خطر فى نفسى أن أعلق على هذا الغلط ، مع وضوح وجه الصواب فيه . ولكنى أرى فى مجرد العرض ما يغنى عن التعليق .

أخطاء فى التاريخ والأدب

حول هجرة الرسول :

٥ — تشغل مادة « هجرة » فى الموسوعة (ص ١٨٩١) خمسة أسطر لم يتم ملء فراغ سطرها الخامس ، بالرغم من أن الموسوعة (ص ١٧٦٤) كتبت عن المهاجرين الملكيين الذين فروا من الثورة الفرنسية ، أربعة عشر سطرا ، أى ثلاثة أضعاف ما كتب عن هجرة الرسول عليه السلام ، ومع ذلك نسجل على هذه الأسطر الخمسة غير الكاملة الملاحظة التالية :

٦ — قالت الموسوعة : « تتابع المسلمون بعد النبى فى الهجرة الى المدينة جماعات ووحدانا . وسموا بالمهاجرين » .

أى أن معلومات المؤرخين فى الموسوعة ، أن النبى عليه السلام وأبا بكر هاجرا الى المدينة أولا ، ثم هاجر بعدهما المسلمون . وقد أكدت « الموسوعة » هذه المعلومات فى مادة أخرى هى مادة « الأنصار » (ص ٢٤٥) فقالت : « هاجر اليهم بعده (الرسول) مسلمو مكة أو المهاجرون» . وتكفى نظرة فى أحد مصادر التاريخ الاسلامى ، لكشف خطأ الموسوعة فيما كتبته من أن هجرة المسلمين الى المدينة وقعت بعد هجرة الرسول وصاحبه ، ففى هذه المصادر الوثيقة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أمر أصحابه أولا بالهجرة الى المدينة ، واللحاق باخوانهم من الأنصار الذين بايعوه ، فهاجر مسلمو مكة الىالمدينة وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالهجرة ، ولم يبق معه بمكة الا أبو بكر وعلى رضى الله عنهما . ولما أذن له بالهجرة هاجر وفى صحبته أبو بكر ، وأقام علىٌ بعدهما ثلاثة أيام ليؤدى الودائع التى كانت عند رسول الله ، ثم هاجر الى المدينة .

(راجع فى ذلك — على سبيل المثال — « السيرة النبوية » لابن هشام : ٢/٧٥ وما بعدها . و « تاريخ الطبرى » : ٢/٩٧) .

٧ — وبمناسبة هذا الموضوع ، أسجل على « الموسوعة العربية » أنها أغفلت التاريخ الهجرى ، ولم تعتـــدَّ به فى التاريخ للأحـــداث والأعلام ، العربية والاسلامية . وكان الواجب أن تجمع بين التاريخين الهجرى والميلادى ، فى المواد العربية والاسلامية — على الأقل — فان تاريخ الهجرة هو الأساس الذى جرى عليه تحديد تراثنا ، وحوادث تاريخنا ، وتراجم أعلامنا . أنا لا أطلب هذا المطلب من « موسوعة كولمبيا قايكنج دسك » التى نقلت عنها جمهرة مواد موسوعتنا ، وانما أطلب هذا المطلب من « الموسوعة العربية الميسرة » ! .

٨ — الثابت يقينا أن أبناء على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء — رضى الله عنهما — أربعة هم : الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . ولكن الموسوعة فى مادة « فاطمة الزهراء » (ص ١٢٦٧) قالت : « تزوجت على بن أبى طالب ، وأنجبت منه الحسن والحسين وزينب » فأين راحت أم كلثوم ابنتهما الرابعة ؟ لم تثبتها الموسوعة فى هذه المادة ، وان كان محرر مادة « على بن أبى طالب » (ص ١٢٣٠) قد أثبتها هناك .

٩ — فى مادة « مريم العـــذراء » (ص ١٦٨٩) قالت « الموســـوعة » : « وبنت عمران كما ذكرت فى القرآن احدى عشرة مرة » .

والصحيح أنها ذكرت فى القرآن الكريم أربعا وثلاثين مرة (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وان أرادوا أن (ابنة عمران) وردت هـــذه المرات الاحدى عشرة فهذا غير صحيح أيضا ، لأن لفظ « عمران » ورد فى القرآن ثلاث مرات (الآيات : ٣٣ ، ٣٥ آل عمران ، ١٢ التحريم) .

١٠ — مادة « سليمان بن داود » (ص ١٠٠١) قالت « الموسوعة » : « ذكر فى القرآن ست عشرة مرة » .

والصحيح أنه ذكر فى القرآن سبع عشرة مرة .

١١ — مادة « قارون ، من وزراء فرعون » (ص ١٣٦٠) جاء فى الموسوعة : « ورد ذكره فى القرآن ثلاث مرات (السور : ١٨ ، ١٩ ، ٤٠) » .

والسورة رقم ١٨ فى المصحف هى : الكهف ، ورقم ١٩ هى : مريم . وليس فيهما ذكر لقارون .

والصواب : ورد ذكره فى القرآن أربع مرات (السور : ٢٨ وهى القصص ، ٢٩ وهى العنكبوت ، ٤٠ وهى غافر) وقد ورد ذكره فى سورة القصص مرتين .

١٢ — مادة « سبأ » (ص ٩٥٦) قالت « الموسوعة » : « ورد ذكرها فى التوراة فى قصة زيارة بلقيس ملكتها لسليمان فى القرن ١٠ ق.م » .

ولم تشر « الموسوعة » مطلقا لما ورد فى القرآن الكريم عن قصة سبأ (سورة النمل من ٢٢ الى ٤٤ — سورة سبأ من ١٥ الى ٢١) .

١٣ — فى مادة « رأس السنة » قيل : « ورأس السنة اليهودية هو تشرين أى سبتمبر » . والصحيح أن تشرين الأول (وهو فى العبرية : تشرى) يقابل : اكتوبر . وتشرين الثانى (وهو فى العبرية : أشوان) يقابل نوفمبر .

١٤ — مادة « أعشى حمدان : عبد الرحمن بن عبد الله » هكذا جاء فى «الموسوعة» حمدان (بالحاء) . والصواب : همدان (بالهاء) نسبة الى همدان بن

مائث . وبعض الظن أن محرر هذه المادة ترجمها عن نص أجنبى ، ولم يرجع الى ما كتب عن أعشى همدان فى المصادر العربية ، وبخاصة (الأغانى : ٦/٣٣) .

١٥ — فى مادة « الجرجانى » حُرِّف اسم الامام البلاغى : عبد القـــاهر الجرجانى (صاحب أسرار البلاغة) الى : عبد القادر (رأس مادة) .

١٦ — مادة « العسكرى أبو هلال » (ص ١٢١٢) ذكرت «الموسوعة» من كتبه : « الحماسة فى تفسير القرآن » وصواب العنوان « المحاسن فى تفسير القرآن » .

١٧ — وفى المادة نفسها جاء أن من كتب أبى هلال كتاب « المصون » ونسبة هذا الكتاب الى أبى هلال واردة فى عدد من المراجع ، ولكن كنا نطمع فى أن يتتبع محرر هذه المادة أحدث الآراء التى أكدت أن كتاب « المصون » ليس من تأليف أبى هلال ؛ بل هو من تأليف خاله أبى أحمد العسكرى (ت ٣٨٢ هـ) وقد عثر على هذا الكتاب مخطوطا فى مكتبة « الأسكوريال » (ورقمها ٣٧٧) وعن هذه النسخة نشر الكتاب بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون عام ١٩٦٠ وفى مقدمته تأكيد نسبته الى أبى أحمد العسكرى . كما نفى العالم الألمانى « كارل بركلمان » (ت ١٩٥٦) أن يكون « المصون » لأبى هلال ، فقال : « وليس له بل لخاله » (تاريخ الأدب العربى : ٢ — ٢٥٢ من الترجمة العربية) .

١٨ — لا شىء يشكك فى الحقائق العلمية مثل التناقض الذى يبدو فى التعبير عنها ، ومن أمثلة هذا التناقض ؛ الى جانب ما أوردناه فيما سبق ، أن عنوان كتاب « الصناعتين » لأبى هـــلال العسكرى ، جاء فى مادة « نقد أدبى » فى « الموسوعة » (ص ١٨٤٣) بعنوان «سر الصناعتين» بينما جاء العنوان صحيحا خاليا من اضافة كلمة « سر » فى مادة « الأدب العربى » (ص ٨٥) ، ومادة « العسكرى » (ص ١٢١٢) . والكتب المعروفة التى اشتملت عناوينها على «سر الصناعة » أو « سر الفصاحة » هى : « سر الصناعة وأسرار البلاغة » لأبى على الحاتى (ت ٣٨٨ هـ) ، و « سر صناعة الاعراب » لابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) و « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) ، ولم يرد عنوان « سر الصناعتين » فى أى مرجع من المراجع القديمة التى ترجمت لأبى هلال ، أو وصفت

مؤلفاته ، ولم يكتب على نسخة من نسخه المطبوعة أو المخطوطة . ولكن جاء هذا العنوان فى كتاب حديث هو « النقـــد المنهجى عند العرب » [1] الذى اشتركت معه الموسوعة فى احدى موادها ثم خالفته فى مادتين أخريين .

١٩ — الامام المؤرخ ، المحدث ، المفسر ، اللغوى المشهور : عبد الرحمن ابن الجوزى (ص ١٣) كتبت عنه الموسوعة ثلاثة أسطر ، ذكرت فيها أنه ألف فى التاريخ والحديث عدة كتب ، ولم تذكر ميلاده ولا وفاته . فهل تصدق كلمة « عدة » على مؤلفات ابن الجوزى التى نشر منها حتى الآن ثلاثون كتابا ، ولا يزال المخطوط منها خمسين ومائة كتاب ؟ وقد صدر فى بغداد هذا العام كتاب عنوانه « مؤلفات ابن الجوزى » يقع فى ٢٩٠ صفحة .

٢٠ — فى مادة « قاموس » ذكر اسم مؤلف (تاج العـــروس) : الامام محب الدين المرتضى الزَّبيدى . وليس فى اسم السيد محمد مرتضى الزَّبيدى ولا لقبه : (محب الدين) .

٢١ — فى مادة « عدنان » وفى جدول النسب ، ورد اسم : جندف (بالجيم) والصواب (خندف) (بالخاء) اسم امرأة الياس بن مضر ، واليها نسب ولد الياس ، وهى أمهم . والجدول مكتوب بالخط (كليشيه) وكان يمكن مراجعته .

٢٢ — فى مادة « الأدب العربى » (ص ٨٨) قالت « الموسوعة » عند أبى على القالى : « وكان من معاصريه الرياحى (ت ٩٦٨) » .

والصواب : الرَّباحى (بالباء الموحدة) ، وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى الرَّباحى نسبة الى قلعة رَباح ، من أعمال طليطلة فى الأندلس (ترجمته فى طبقات النحويين للزَّبيدى : ٣٣٥) .

٢٣ — فى مادة « الأدب العربى » أيضا جاء : « المتنبى الذى شرح ديوان ثلاثة من أعلامهم (المغاربة) الشنتمرى ، والافليلى ، وابن سيده » .

والصواب : شرح ديوانَه ثلاثةً ..

---

(١) تأليف الدكتور محمد مندور .

٢٤ — فى مادة « معتزلة » (ص ١٧١٨) جاء : « تمامة بى الأشرس » .
والصواب : ثمامة (بالثاء المثلثة) .

٢٥ — مادة « على محمود طه » (ص ١٢٣٢) قالت « الموسوعة » : « احتل مكانة ممتازة بين شعراء العقد الخامس عندما ظهر ديوانه « الملاح التائه » ١٩٤٥ وتتابعت دواوينه بعد ذلك ، أى أن أول دواوين على محمود طه صدر قبل وفاته بأربع سنين » .

والصواب : أن ديوان « الملاح التائه » صدر عام ١٩٣٤ ، ثم صدر ديوان « ليالى الملاح التائه » ١٩٤١ ، و « أرواح شاردة » ١٩٤١ ، و «أرواح وأشباح» ١٩٤٢ ، و «زهر وخمر» ١٩٤٣ ، و « الشوق العائد » ١٩٤٥ ، و «شرق وغرب» ١٩٤٧ .

٢٦ — مادة « ابن سريج » (ص ١٨) : جاء بيت « عمر بن أبى ربيعة » هكذا :

تشكّى الكُمَيتُ الجرىَ لمّا جَهدتُه
وبيّن لو يستطيع أن يتكلما

والشطر الثانى على هذه الصورة مكسور (البيت من بحر الطويل)
والصواب : يَسْطِيع بدون التاء وهو مضارع اسطاع . بحذف التاء (راجع شرح ديوانه : ٤٦٢) .

٢٧ — فى أى موسوعة يجب أن يراعى الكاتب الحياد وعدم الانحياز ، وهذا أمر لم يتحقق فى حكم عام صدر على الحركة النقدية المعاصرة فى مادة « نقد أدبى » (ص ١٨٤٣) نصه :

« أما الحركة النقدية فى الأدب العربى المعاصر فتتمثل فى كل من طه حسين والعقاد » .

ومفهوم كلمة « تتمثل » هنا أنه ليس فى الأدب العربى المعاصر نقاد ، لا فى مصر ولا فى غيرها ، سوى العقاد (كان) وطه حسين — أبقاه الله — وأترك للأدباء والنقاد فى العالم العربى الحكم على هذا « الحكم » .

٢٨ — فى مادة « عبد السلام محمد عارف ، المشير » (ص ١١٨٣) قالت « الموسوعة » : « أفرج عنه ، حينما نجحت ثورة الجيش فى ١٤ فبراير سنة ١٩٦٣ » .

والحقيقة التى لا جدال فيها أن تاريخ هذه الثورة هو : ١٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ — ٨ فبراير (شباط) ١٩٦٣ .

وقد جاء هذا التاريخ صحيحا فى الموسوعة نفسها : (ص ١١٨٤ ، ١١٩٧) ولكن هذا لا يعفى « الموسوعة » من الخطأ والتناقض فى هذا التاريخ المشهور .

٢٩ — جاء فى مادة « عبد العزيز فهمى » أنه (رئيس مجمع اللغة العربية) والحق أن عبد العزيز فهمى لم يكن رئيسا للمجمع بل كان عضوا فيه . ولم يتولّ رياسة المجمع سوى ثلاثة : محمد توفيق رفعت (منذ انشاء المجمع عام ١٩٣٢ الى أن توفى فى ١٠ ابريل سنة ١٩٤٤) ثم انتخب بعده أحمد لطفى السيد ، فى جلسة ١٦ يناير سنة ١٩٤٥ ، وبعـــد وفاته عام ١٩٦٣ انتخب الرئيس الحالى الدكتور طه حسين ، الذى لم تذكر الموسوعة فى ترجمته أنه رئيس أو عضو فى المجمع .

٣٠ — من مظاهر عدم الدقة استخدام كلمة « انتخب » مكان كلمة « عين » فى مادة « اسماعيل مظهر » (ص ١٦٠) حيث قالت الموسوعة : « انتخب ١٩٦١ عضوا بمجمع اللغة العربية » .

والصحيح أن المرحوم اسماعيل مظهر لم يدخل المجمع عن طريق الانتخاب ، انما عين ضمن عشرة أعضاء ، تطبيقا لقرار جمهورى بزيادة أعضاء المجمع .

(انظر القرار الجمهورى بالتعيين رقم ٥٧ لسنة ١٩٦١) .

٣١ — وعلى ذكر المجمع اللغوى نلحظ أن الموســـوعة ذكرت أن عدد الأعضاء المراسلين فى المجمع (ص ١٩٦٥١) « قرابة ٩٠ عضوا مراسلا » .

والرقم الصحيح الدقيق من واقع ملفات المجمع هو : ٧١ (واحد وسبعون) .

٣٢ — مادة « بدوى ، أحمد محمد » (ص ٣٣٣) جاء من مؤلفاته : « موكب الشمس » .

وصواب العنوان : « فى موكب الشمس » .

أخطاء لغوية

٣٣ — جاء فى مادة « على بن أبى طالب » (ص ١٢٣٠) : « ولد لاثنين وثلاثين سنة ... » .

والصواب : لاثنتين ...

٣٤ — قالت الموسوعة « جماد الأول » و « جماد الثانى » (ص ٦٤٠) .

والصواب : « جمادى الأولى » و « جمادى الآخرة » .

٣٥ — فى أول حرف الحاء جاء هذا النص : « استبدلته الأمم التى اتصلت بالعرب كالترك والفرس والمالطيين بهاء » يريد أنهم نطقوا بالهاء بدلا من الحاء .

وصواب التعبير لغويا : « استـــبدلت به الأمم .. الهاء » لأن الباء تدخل على المتروك ، وهو فى هذا التعبير الحاء لا الهاء .

٣٦ — فى وصف (الذال) قيل : «وينطق اليوم دالا فى العاميّات» . والتعبير الدقيق أن يقال : « وينطق اليوم دالا فى بعض العاميات ، وزايا أحيانا ، على حين بقى على صفته العربية فى بعض اللهجات وبخاصة لهجات البدو . وينطق ظاء فى بعض المواقع حيث يقال : هاظا » .

٣٧ — فى وصف حرف « الباء » قيل : ان للباء أربعة عشر معنى ، وذكرت هذه المعانى (وهى منقولة عن مغنى اللبيب لابن هشام) ، وفى المعنى الرابع عشر ، قيل : الزائدة .

وهذا صحيح ولكن ما المعنى فى حالة الزيادة ؟ انه (التوكيد) ولم تذكره « الموسوعة » . فكان ينبغى أن يقال : (١٤ — التوكيد ، وهى الزائدة) . وهو

نص ما قاله « ابن هشام » فكان أدق تعبيرا .. وقد حدث هنا أيضا اختصار مخل ، فذكر أن الزائدة تدخل على الفاعل وجوبا وغالبا وضرورة . واطلاق كلمة (الفاعل) هنا يخل بالمعنى ، فكان ينبغى أن يقال : « تدخل على الفاعل فى بعض الأساليب : وجوبا فى فعل التعجب بصيغة أَفعِلْ (بكسر العين) ، وغالبا فى فاعل « كفى » وضرورة فى الشعر » .

٣٨ — فى مادة « الأشورية » (ص ١٦٧) قالت : «لغة سامية من المجموعة الأكاديمية .

والصواب : الأَكَادِيَّة . وهى لغة الشعوب السامية التى أقامت فى منطقة ما بين النهرين حوالى الألف الرابع قبل الميلاد . وهى منسوبة الى « أكّاد » بتشديد الكاف .

٣٩ — فى جدول اللغات (ص ١٥٥٨) جاء من فروع الأكادية : اللغة البالية :

والصواب : البابِلية ، نسبة الى « بابل » . وينبغى التمييز بين هذه اللغة ولغة أخرى تسمى « البالية » من اللغات الهندية الايرانية ، وهى اللغة المقدسة عند البوذيين فى سيلان والهند الصينية ، وهى واردة فى موضعها فى الجدول صحيحة .

اخطاء منهجية

٤٠ — تكرر التعريف بالعالم التركى (أحمد عارف حكمت) (١٧٨٥ — ١٨٥٨ م) فعرف به مرة فى مادة « أحمد » وأخرى فى مادة « عارف » وهذا عيب فى «الموسوعة» . ويبدو أن محررى الترجمتين مختلفان ، ففى مادة «عارف» ذكر أنه ولد ١٧٨٦ ، وفى مادة « أحمد » ولد ١٧٨٥ ، وجاء فى « عارف » أنه أسس مكتبة باستانبول على حين أنه فى مادة « أحمد » : «اشتهر بخزانة كتب كبيرة له فى المدينة المنورة » (وهو المعروف) .

٤١ — تكرر التعريف والاختلاف أيضا فى ترجمة شهاب الدين الخفاجى صاحب (طراز المجالس) و (شفاء الغليل) (١٥٦٩ — ١٦٥٦ م) فعرف به

مرتين ، فى مادة « الخفاجى » ومادة « الشهاب » ، وحددت الترجمة الأولى ميلاده بعام ١٥٧١ والثانية بعام ١٥٦١ — مع الاتفاق فى سنة الوفاة — وكانت الترجمة الثانية أكثر تفصيلا .

٤٢ — من قواعد المنطق الصورى فى التعريف العلمى ألا يعرف الشىء بما يساويه فى المعرفة والجهالة ، وألا يرد المعرف نفسه فى التعريف .

ومن أمثلة مخالفة هذه القاعدة فى « الموسوعة » ما جاء فى صفحة ١٨٥٦ :

« نوح : بانى سفينة نوح التى أنقـــذت الحياة البشرية والحيوانية من الطوفان » ، ولم تزد مادة « نوح » كلها عن ثلاثة أسطر . ان تعريف رسول الله نوح بأنه بانى سفينة نوح ، مع مخالفته لأصول التعريف العلمى يذكرنى بالمثل العامى المشهور : « خشبة حبشى . حبشى مين ؟ صاحب الخشبة » !

٤٣ — فى مادة « حج » (ص ٦٨٩) قالت : « وأركانه : الاحـــرام من أماكنه (انظر مواقيت) » .

ونبحث فى «الموسوعة» عن مادة «مواقيت» التى أحيل القارىء عليها ، فلا نجد غير مواقيت الصلاة (ص ١٧٦٦) فأين راحت مواقيت الحج ؟

٤٤ — لم توحّد فى الموسوعة طريقة كتابة حرف الـ (g) فى الأعلام ، فكتب غينا فى « أغادير » وأهل المغرب ينطقونها « أجادير » بالجيم القاهرية ، وكتب غينا فى « هنغاريا » و « أوغسطين » ، على حين رسم جيما فى « يوجوسلافيا » و « ديجول » و « دى جويه » فاذا كانت اللجنة كتبت « هنغـــاريا » بالغين لشهرتها فى العربية ، فلماذا لا تطبق هذه القاعدة على يوجوسلافيا ؟

الجغرافية التاريخية لمدينة أسوان

للدكتورة عطيات عبد القادر حمدى

بقسم الجغرافيا ـ بآداب الاسكندرية

كانت الصلات المختلفة بين مصر والعالم الخارجى عاملا هاما أدى الى وجود الحاجة الملحة لنشأة مدن تصبح مراكز للتجارة والمبادلة ومعاقل لهذه الصلات . فقد نشأت مدينة الاسكندرية على شاطىء البحر المتوسط ومثلها رشيد ودمياط لتأكيد صلات مصر بذلك الحوض ، ونشأت القلزم على البحر الأحمر ومثلها القصير لتوطيد صلات مصر مع الشرق البعيد . ولنفس السبب نشأت مدينة أسوان عند الحدود الجنوبية لمصر لتحدد صلاتها بالبلاد الجنوبية .

وكانت نشأة المدينة فى هذا الموضع ضرورة هامة وحاجة ملحة بحيث توالت المدن فى ذلك الموضع مع توالى عصور التاريخ . ولقد كان المصريون القدماء (فى بعض العصور) يعتبرون كل الأراضى الواقعة جنوب أسوان وجزيرة الفنتين بلادا خارجة عن أراضيهم [1] ولذلك أصبح من المهم بمكان أن تنشأ مدينة على الحدود لتحافظ على العلاقات بين المنطقتين [2] .

وكانت المدن تحيا وتموت فى هذا الموضع ولكن كل مدينة كانت تمثل عصرا من العصور نشأت على انقاض أختها أو بجوارها وحلت محلها فى الأهمية وقامت بنفس وظيفتها قال جومار [3] « هنا عند سيين نرى تتابع الشعوب والعصور المختلفة أكثر من أى مكان آخر . وقد ترك كل جيل آثاره التى تدل على وجوده أو مروره بالمنطقة » .

---

(1) Gauthier (M.H.), Précis de l'Histoire d'EGYPTE, le Caire 1932 — T.I., P. 57.

(2) وان كان بعض حكام مصر قد رأى فى بعض العصور أن يضم الأراضى الواقعة جنوب اسوان الى مصر ليضمن الأمن فى جنوب الأراضى المصرية مما سيأتى ذكره .

(3) Jomard (E). Description de Syène et des cataractes, desctiption de l'Egypte Paris 1821, T.I., P. 131.

تطور اسم أسوان خلال التاريخ :

ذكر على الآثار المصرية أسم أبو Abu [١] ليدل على الموقع القديم الأول لمدينة أسوان . وكان Abu يعنى أرض الفيلة . وكانت أسوان هى أولى مقاطعات مصر الجنوبية كذلك ذكرت المدينة فى النقوش الهيروغليفية باسم SWNT سونت وتعنى السوق . فقد كانت مركزا تجاريا تتجمع عندها متاجر بلاد النوبة لتذهب نحو الشمال وفى بعض الأحيان كانت تلك المدينة سوقا لسن الفيل خلال تاريخها القديم [٢] .

ويذكر ايبرز Ebers [٣] أنه عند اسوان يوجد مدخل مصر ولذلك كان اسم SOUN فى اللغة المصرية القديمة بمعنى « السماح بالدخول » ينطبق على ذلك المدخل ومنه جاء الاسم اليونانى Syene . وهو يذكر أن الفيل هنا بعد أن يسير فى أقاليم صحراوية يتخطى منطقة الجندل ثم يدخل الى الوادى الضيق الأخضر فكأن هذه المنطقة باب الدخول الى مصر وبذلك فان تسمية أسوان باسم سون Soun كانت فى رأيه تسمية ناجحة .

وفى العهد اليونانى سميت المدينة باسم Syene سوينى ومعناها «المضيئة» [٤] ولعل هذه التسمية قد أتت بسبب أن الشمس كانت تسطع فى بئر أسوان فى يوم الأنقلاب الصيفى [٥] . ولهذا البئر شهرة قديمة .

وقد استطاع بعض الكتاب [٦] أن يستنتج من لغة البجاة أن كلمة Syene تعنى الدائرة Cercle . وفعلا كان فى أسوان أول محاولات للعلماء اليونانيين من أجل قياس محيط الأرض (أراتوستين عام ٢٧٦ ق.م) .

(١) Budge (E.A.W.) The Nile, Cairo 1901, P. 444.

(٢) احمد كمال : الحضارة القديمة . محاضرات نشرت فى مجلة الجامعة المصرية ـ القاهرة ص ٧٥ (بدون تاريخ) .

(٣) Ebers (G) Egypt, translated from german, Vol. 1 London 1879, P. 347.

(٤) Mazuel (Jean), l'oeuvre geogr. de linant de Bellefonds, le caire 1937, P. 25.

(٥) Pliny, Vol. 1 book II chap. 75 P. 107 — Strabo, Vol. III book XVII P. 263-264.

(٦) Bruce (J.) voyage aux sources du nil Paris 1790 Tome Premir, P. 174. (Traduit do l'Anglais par M. castera).

وفى العهد البلطى تحول الاسم وأصبح سنو Sunnu [١] الا أن الكتاب الأقباط أطلقوا على تلك المدينة اسم ســـوان COYAN أو سنون ЄENON ولكن الاسم « سوان » كان أكثر استعمالا [٢] .

وقد استمرت المدينة تسمى بهذا الاسم « سوان » حتى جاء الفتح العربى لمصر وعرب العرب كثيرا من الأسماء الرومانية فأضافوا حرف الألف أمام الأسم الى كثير منها لتسهيل نطقها مثل أسيوط وأخميم [٣] وبذلك تحول الأسم «سوان» الى « أسوان » . ومع ذلك فقد ذكر ياقوت أنه وجد أبا سعيد السكرى يكتب سوان بغير الهمـــزة [٤] أما هو فقد أوردها باسم أســـوان بضم الألف [٥] وقد ذكرت بعض الكتب العربية أن أسوان معناها « حزين » . ذكر المقريزى [٦] « أسوان من قولهم أسيان وأسوان أى حزين » . ولا نرجح هذا التفسير لأن معظم الكتاب العرب ذكر أن أسوان فى العصر العربى كانت مزدهرة ولعل تلك التسمية أن تكون قد أتت بسبب بعد المدينة فى أطراف القطر مشرفة على مناطق صحراوية .

وقد حاولنا بمعاونة بعض النوبين تفسير كلمة « أسوان » فى اللغة النوبية التى يتكلمها أهل المنطقة فوجدنا فى تلك اللغة [٧] أن كلمة « أسى » Essy تعنى المياه . وتطبيقا على هذا من المرجح أن يكون أصل كلمة «أسوان» فى تلك اللغة

---

(١) Budge (E.A.W.) P. 444.

(٢) Quatremere (ET) Mémoires Geographique et Historiques sur l'Egypte et sur Quelques Contrées Voisines, Paris 1811, Vol. 1, P. 280 — Ebers (G), Egypt, London 1879 P. 347.

(٣) Ebers (g) op., cit., P. 347.

(٤) الامام محب الدين ابى الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى الحنفى ــ قاموس تاج العروس ــ القاهرة ١٣٠٦ هـ ــ جـ ١٠ ص ١٧

(٥) ياقوت (الامام شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى البغدادى) المتوفى فى ٦٢٦ هـ ــ معجم البلدان ــ طبعة أولى القاهرة ١٣٢٣ هـ ــ ١٩٠٦م المجلد الأول ص ٢٤٨

(٦) المقريزى ــ (تقى الدين احمد بن على) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ــ طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ جـ ١ ص ٣٠٥ ــ وكذلك جاء فى لسان العرب للامام العلامة ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقى المصرى ــ طبعة بيروت ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م مجلد ١٤ ص ٣٥

(٧) عن لسان احد النوبيين بمدينة أسوان وهو السيد عبد الفتاح محمد موسى ــ امين مكتبة دار الثقافة بمدينة أسوان .

هو كلمة « أسى أوانج » النوبية Essy Awang ومعناها الميـــاه المتدفقة أو السريعة فاذا سرنا مع انحدار مياه نهر النيل وجدنا مدينة « اسنا » ونرجح أن أصلها أيضا فى اللغة النوبية موجودا فى كلمة « اسى نيروسى Essy Neirosi ومعناها المياه النائمة أو الهادئة فاذا سرنا أيضا مع انحدار النهر بعد ذلك نحو الشمال وجدنا مدينة « أسيوط » التى نرجح أن أصلها فى اللغة النوبية كلمة « اسى واطيوس » Essy Watius أى الميـــاه المنخفضة وهـــذه التسميات تتلاءم مع انحدار مياه النهر نحو الشمال ويكون ترجيح هذه التسمية فى اللغة النوبية أن أسوان Essy Awang بلد المياه العـــالية التى تنحدر كلما اتجهنا شمالا مع انحدار النهر .

هذا ملخص لدراسة أسماء المدن التى نشأت فى موضع مدينة أسوان . ولندرس بعد ذلك هذه المدن القديمة خلال عصـــور التاريخ ونرى أهميتها ووظيفتها فى ذلك الموضع الحساس من الجمهورية العربية المتحدة .

موضع مدينة أسوان :

تتلخص أهمية أسوان فى كونها نقطة على الحدود المصرية الجنوبية . وقد نشأت الحاجة الى وجود مدينة فى هذا الموضع منذ أقدم عصور التاريخ وكانت المدينة تتحرك عن موقعها من عصر الى عصر ولكنها بقيت على مدى العصور فى نفس الموضع لتمثل حدود مصر الجنوبية هناك . وسنرى فى الجزء القادم من البحث تطور نشأة المدن فى موضع مدينة أسوان .

آبو Abu الفرعونية :

اهتم المصريون القدماء بالبلاد الجنوبية وكانت علاقتهم بالجنوب غامضة حتى عهد الأسرة السادسة حينما استقرت احدى أسرات الحكام فى المقاطعة الأولى الجنوبية TAKENS [1] وكان مقرها مدينة « آبو » ومنذ ذلك الحين أخذت العلاقات التجارية بين مصر والبلاد الجنوبية تزداد وتزدهر . وقام هؤلاء الحكام برحلات جريئة فى السودان والصحارى بل يرجح أنهم كانوا أول من ارتاد مجاهل

(١) Budge (E.A.W.), P. 444.

أفريقية [١] ولذلك فقد اتخذت آبو أهمية كبيرة منذ ذلك العصر (٢٤٢٣ — ٢٣٨٠ ق.م) .

ويذكر معظم الكتاب الذين كتبوا عن آبو هذه أنها تقع الى جنوب غربى أسوان الحالية [٢] . كذلك ذكر الأستاذ أحمد كمال أن القسم الأول من مصر فى عهد الفراعنة يسمى (توخنتيت) وكان متاخما لبلاد النوبة وقاعدته مدينة (آبو) التى سماها اليونانيون باسم الفنتين وبالعربية جزيرة (البربا) [٣] .

وجزيرة الفنتين (واسمها الحديث جزيرة أسوان) تقع الى غرب مدينة أسوان ويفصلهما شريط من مياه النيل يبلغ عرضه حوالى ١٥٠ مترا وتوجد فى الطرف الجنوبى لهذه الجزيرة آثار قديمة لمعابد ومقابر فرعونية [٤] (شكل ١) . وقد سميت الفنتين « الجزيرة اليانعة والحديقة المشرفة على المدار » [٥] .

« L'ile Fleurie et le jardin du tropique »

ولم تكن أهمية الفنتين أنها أكثر خصوبة من أى مدينة أو مقاطعة أخرى فى وادى النيل فحسب بل جاءت أهميتها نتيجة لموقعها الجغرافى فى وسط اقليم صحراوى فأصبحت بالنسبة له محطة للاستراحة من عناء السفر الطويل عبر تلك الصحارى الموحشة ابتداء من فيلة أو ما حولها . ويقول جومار ان الفنتين كانت فى هذه العهود القديمة « مفتاح مصر الجنوبى » فقد كان بها كما قال هيرودوت حامية فى عهد بسامتيك .

ولقد كانت الفنتين احدى مدن الحدود القديمة فى عهد الامبراطورية الرومانية. ولم تقتصر أهمية الفنتين على هذا وانما كانت لها مكانة سياسية كبيرة . فان كل

---

(١) نجيب ميخائيل ابراهيم ـ مصر والشرق الأدنى القديم جـ ١ طبعة الاسكندرية ١٩٦٢ ص ٢٥٠ ، ٢٥١

(٢) على باشا مبارك ـ الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ـ الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٥ جـ ٨ ص ٦٥ ـ كذلك ذكرها علماء الحملة الفرنسية .

Jomard (E.) descrip de syéné... Paris 1821, T.I, P. 128.

(٣) احمد كمال : الحضارة القديمة ص ٧٥

(٤) انظر :

Porter (Bertha) Mess (Rosalind)

Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs Paintings (V. Upper Egypt — sites) Oxford 1937, P. 222.

(٥) Jomard (E) Descrip de l'Egypt, T.I, P. 175.

أسوان

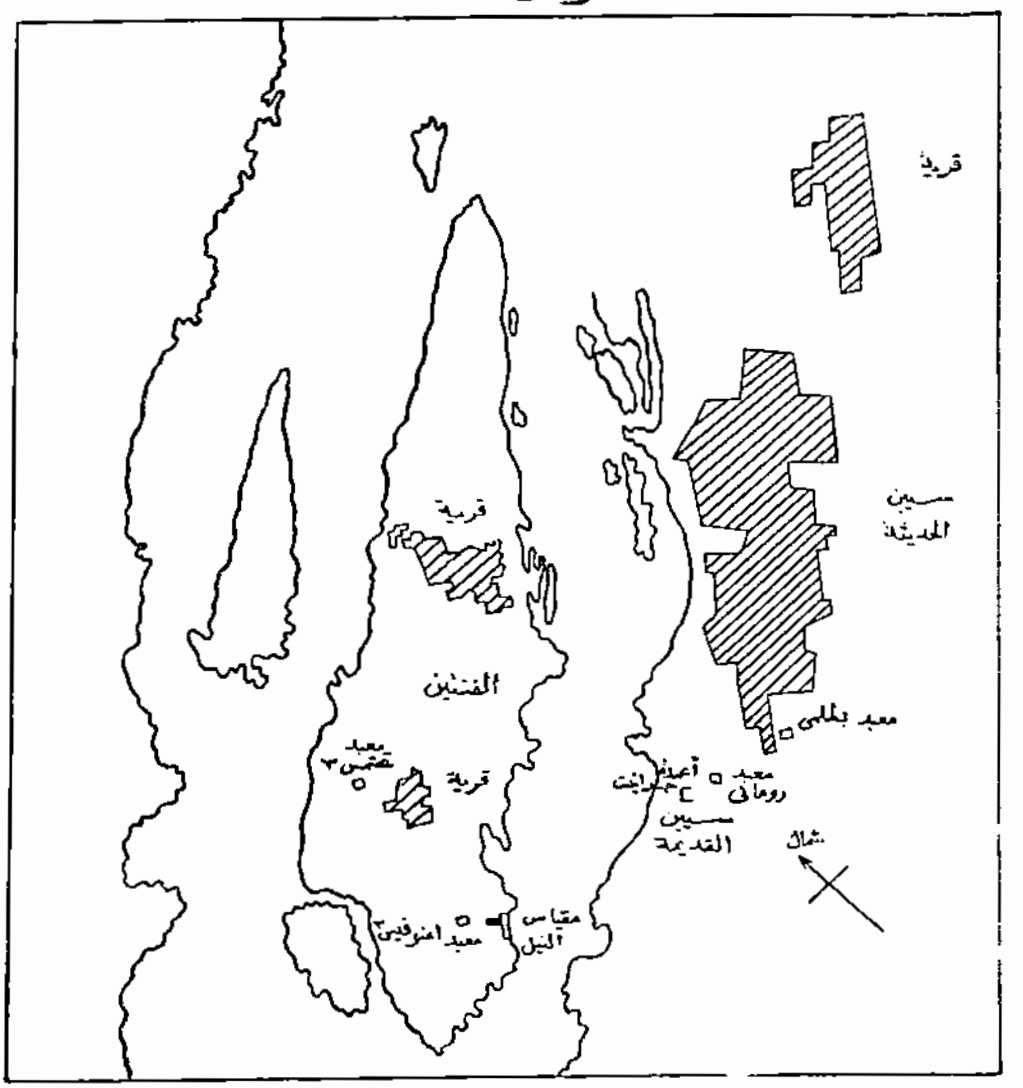

(شكل ١)
أسوان كما رسمها علماء الحملة الفرنسية

مقتبسة عن : Descrip. de l'Egypte
(Ant. i. PL. 31)

الذين كتبوا تقريبا عن حكومة مصر وادارتها ذكروا أنه كان يوجد فى الفنتين حكومة مستقلة تحت اسم حكومة الفنتين .

ويذكر جومار [١] أنه لا يعقل أن تكون هناك حكومة مستقلة فى جزيرة صغيرة مثل هذه الجزيرة التى لا تكاد تصل مساحتها الى أكثر من ١٤٠٠ متر طولا ، ٤٠٠ متر عرضـــا . وقد خالف جومار هـــؤلاء الكتاب فذكر أنه من الممكن أن تكون هناك مديرية مســتقلة فى تلك البقاع . ولكنها أكثر مساحة فتشمل كل الجزر الموجودة فى داخل مجرى النيل جنوب أسوان بما فى ذلك جزيره فيلة . وأصبح يستند فى رأيه ذلك على أن كلمة الفنتين Elephantine أصلا جاءت من كلمة فيل Fil وأن فيلة أيضا أصلها كلمة فيل وانها أيضا أصل لكلمة Elephantine نفسها القديمة . وأضيف اليها مقطع اغريقى . ولذلك ففى رأيه أنه يمكن اطلاق اســم Elephantine على كل الجزر المتناثرة فى مجرى النيل جنوب سيين Syene بما فى ذلك جزيرة فيلة نفسها مستندا فى ذلك الى أن هيرودوت لم يفصل بين الاسمين حينما تكلم عن الفنتين فلم يذكر كلمة فيلة بل تحدث عن فيلة على أنها هى نفسها الفنتين . كذلك بلينى خلط بين موقع الجزيرتين ومثله فى ذلك استرابون ولم يحاول أى منهم الا ذكر اسم واحد هو الفنتين لأى جزيرة من جزر هذه المنطقة . لذلك رجح جومار أن تكون هناك ولاية أو حكومة مستقلة فى الزمن القديم فى تلك المنطقة تشمل كل الجزر الموجودة جنوب سيين وسميت الأسرة الحاكمة بها أسرة الفنتين [٢] .

وبعد دراسة تلك المواقع القديمة فاننا نرجح أن نشأة مدينة أسوان كانت نشأة مزدوجة منذ عهــود سحيقة وفى رأينا أنه لا يعقل أن تكون نقطة الحدود جزيرة فى داخل النيل وليس لها حماية أو ظهير على الشاطىء . لذلك فأننا نرجح أنه فى أيام الفراعنة كانت توجد فى ذلك الموضع مدينتان احداهما على شاطىء النيل (برية) وتقع على ربوة مشرفة عليه ، والأخرى جزيرة الفنتين (بحرية) وسميت المدينتان بنفس الاسم وهو (آبو) . ولذلك جاء الخلط [٣] ولم يذكر الموضع

---

(١) Jomard (E), op., cit., P. 213.

(٢) Ibid., T. I, P. 208.

(٣) يذكر Budge (The Nile ص ٤٤٤) أن سيين تقع الى جنوب غرب اسوان الحالية وهى نفسها جزيرة الفنتين بينما يذكر غيره أن سيين تقع على شاطىء النيل وليس فى الجزيرة (كاترمير — جومار) .

الا باسم واحد . وربما كانت المدينتان تتبادلان الأهمية فى العهود المختلفة : ففى عهد تكون الجزيرة أهم من مدينة الشاطىء . وفى عهد أخر تكون مدينة الشاطىء أهم من الجزيرة . ويفضل كثير من كتب عن سيين أن يقول ان جزيرة الفنتين كانت مهمة وأنها كانت عاصمة المقاطعة الأولى المصرية وبها الآثار المصرية القديمة لمعبود تلك المقاطعة ومقابر لبعض الملوك (تحتمس الأكبر وأمنوفيس ٣) ولكننى أرجح أن تكون آبو التى تقع على الشاطىء هى المدينة الرئيسية ومن معلوماتنا عن الحضارة المصرية القديمة نعلم أن المصريين القدماء كانوا يبنون بيوتهم ومدنهم من الطين النىء بينما مقابرهم ومعابدهم ــ ديار الخلود ــ فكانت تبنى من الحجر أو الجرانيت . ولذلك بقيت مدينة الأموات خالدة واندثرت مدينة الأحياء على منن الوجود .

واذا علمنا أن المصريين القــدماء كانوا يدفنون موتاهم فى الغرب فى مكان غروب الشمس ــ مصدر الحياة ــ فأننى أرجح تماما أن تكون مدينة آبو هى الواقعة على شاطىء النيل فى الشرق بينما المدافن هى التى تقع فى الجزيرة فى غرب أسوان [١] وهى التى بقيت وشاهدها الكتاب الذين كتبو عن سيين أو عن آبو وظنوا أنها هى المدينة الأصلية . لذلك كله فأننى أرجح أن تكون آبو على ربوة على الشاطىء الشرقى المقابل لجزيرة الفنتين بدليل أننا سنرى فيما بعد أن فى عهد اليونان ازدادت أهمية المدينة الموجودة على الشاطىء أى آبو البرية حينما وضع بها مقر الجيش [٢] وأصبحت أكثر أهمية من آبو البحرية (الواقعة على الجزيرة) وأخذت تكبر وتزدهر على حسابها بينما آبو البحرية أخذت فى التدهور فى ذلك العصر بالرغم من كثرة الهجمات التى تعرضت لها المنطقة ولذلك أخذت آبو البرية تزدهر كمدينة والتى نشأت منذ عهد الفراعنة فى رأيى بينما أخــذت أختها فى الجزيرة تتدهور وتنهار ثم تموت .

ويرجع قولنا هذا أن الموضع هنا استراتيجى وهام بالنسبة للدخول الى مصر حيث لا يوجد مدخل الى النيل الا فى ذلك الشريط من المياه الواقع بين جزيرة

---

(١) يذكر الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم (مصر والشرق الأدنى القديم) جـ ١ ص ٢٢٢ أن مقابر حكام الجنوب كانت تقع فى غرب شاىء النيل المقابل لأسوان .

(٢) يذكر (Egypt) Ebers (g.) أن الحامية المصرية كانت فى العهد اليونانى توضع على الضفة الشرقية للنيل أمام جزيرة الفنتين ص ٣٤٨

الفنتين والشاطىء وان وقوع المدينة الأصلية على البر كان مهما بينما تساعدها أختها البحرية فى حماية ذلك المدخل المحصور بين المدينتين ويكون تموين المدينة عن طريق البحر الأحمر سهلا أيضا وميسورا استنادا لما حدث فى عهود لاحقة من التاريخ حينما كانت جيوش حامية أسوان تمون من موانى البحر الأحمر المصرية أثناء الحروب مع النوبة .

بذلك نستطيع أن نرجح أن الفراعنة أنشأوا مدينة آبو على شاطىء النيل فى مقابل جزيرة الفنتين وهى التى نمت وتطورت فى عهود اليونان والرومان وأصبحت المدينتان حارستين للمدخل الجنوبى لمصر أو بمعنى أخر أن مدينة الأحياء ومدينة الأموات كانتا معا البوابة الأولى للدخول الى مصر فى هذه العهود القديمة .

سيين اليونانية ـ الرومانية Syene :

نشأت سيين كمدينة حديثة لعهد جديد على انقاض أختها آبو البرية اذ أن أهمية هذا الموضع فى العهد اليونانى أصبحت كبيرة ليس من الناحية العسكرية أو التجارية فحسب بل من الناحية العلمية . واتجهت الأهمية نحو البر وأخذت المدينة البرية تزداد أهمية على المدينة البحرية وتغير اسمها من آبو (أى الفيل) الى سوينى (أى المضيئة) ودليلنا على ذلك أن العلماء (أراتوستين ـ هيبارك ـ واسترابون ـ وبطليموس) اتخذوا من موضع مدينة سوينى هذا مكانا لتحديد أبعاد الأرض فازداد الاهتمام بها على حساب أختها آبو البحرية (مدينة الأموات). وكان فى ذلك الموضع بئر يضاء تماما [١] ولا يرى فيه أى ظل وقت الظهر أثناء الانقلاب الصيفى ومنه بدأ اراتوستين (٢٧٦ — ١٩٦ق.م) فى قياس محيط الأرض واستفادت الدولة بتلك القياسات اذ حددت مواضع حدود المقاطعات الشمالية والجنوبية وسجلت فى دفاتر الحكومة أو فى دفاتر الضرائب [٢] .ومن هنا جاءت الأهمية الكبرى لمدينة سوينى أو سيين .

---

(١) اقرأ عن هذا الموضوع :

Louis — A. Christophe : La Nubie et le tropique de cancer Bulletin de S. degeogr. d'Egypte T : XXXIV le caire, 1961, P. 75-80.

(٢) Ebers (G), Egypt, London 1879, P. 349.

قال على باشا مبارك : « لم يكن أشهر من هذه المدينـــة بين الجغرافيين فى الأزمان القديمة ... وكان اعتقاد الأقدمين أنه لا توجد مدينة غيرها واقعة على دائرة الانقلاب الفاصلة بين المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة »[١] .

وقد نجح أراتوستين فى قياس محيط الأرض الى حد كبير لدرجة أنه نسب اليه حفر بئر سيين ولكن الحقيقة فى رأى جومار أن أراتوستين لم يذهب حتى الى سيين والا لكان أصلح حساباته قليلا ولأدرك أن مركز الشمس يوم المنقلب الصيفى يبعد عن المدينـــة بقدر ربع درجة . ويعزى حفر بئر سيين الى قدماء المصريين وعلمائهم الذين كانوا يستخدمونه لنفس الغرض . وعلى ذلك فقد اتضح من الحسابات الدقيقة ان هذه المدينة ليست على دائرة الانقلاب بل بعيدة عنها الى الجنوب قليلا . ومع هذا ففى يوم المنقلب الصيفى وقت الزوال يكون الظل غير محسوس فى هذه المدينة[٢] .

وقد اتخذ جومار بعد مدينة أسوان الحديثة عن مدار السرطان وبعد سيين عنه فى نفس الوقت دليلا على أن الموضعان يدلان على أن أسوان الحديثة ما هى الى سيين القديمة[٣] .

وتقع سيين الى الجنوب الغربى من أسوان الحديثة[٤] ويحيط بها النيل من الغرب كما يحف بها من الشرق تلال من الجرانيت . وهى تقع على منحدرات تلك التلال بعكس كل المدن المصرية التى نشأت فى الوادى السهلى . ويستطرد جومار فى وصف سيين فيقول ان منظر المدينة العام يختلف عن بقية المدن المصرية اذ نرى بها آثار الحوائط التى تبدو فى شكل مدرجات تحيط بالمدينة ويعلو كل حائط منها الآخر حتى يكاد الانسان أن يظن أنها غير مسكونة بالبشر وليس لدينا وصف شاف للمدينة فى تلك العهود الغابرة[٥] وكل ما وصلنا اليه هو أنها حينما وصل اليها رجال الحملة الفرنسية لم تكن سوى مدينة عجوز محطمة تحيط بها من كل

---

(١) على باشا مبارك ـ الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ـ طبعة اولى بولاق ـ ١٣٠٥ هـ جـ ٨ ص ٦٤

(٢) نفس المرجع جـ ٨ ص ٦٤

(٣) Jomard, T. I. anti, P. 126.

(٤) Ibid, deseripde l'Egypte, T. I. anti., P. 128.

(٥) Budge (W.E.A.) The Nile, Cairo 1901, P. 444.

الجوانب صخور عارية تعلوها الأتربة . ويقع بالقرب من سيين محاجر الجرانيت وكانت تشغل مساحة ٦٠٠٠ متر مربع تقريبا وتحيط بالمدينة من الغرب والجنوب والشرق . وقد عثر بالقرب من أسوان على أثار مسلة وتمثال عظيمين . كما كان يوجد فى غرب سيين واد مملوء بأشجار النخيل وهو الآن غطته الرمال وربما يكون هذا الوادى هو المكان الذى ذكر أحد السواح الأقدمين أنه أرض يزرع بها القمح فى أسوان [١] . ويتكهن على باشا مبارك أنه بسبب شهرة المدينة يستفاد أنه كان بها مبان كثيرة ومعابد كما أنه بسبب شهرة بئرها يظن أنه كان بها مرصد أو معبد لأن الرصد كان من خصائص القسس فى ذلك الوقت وهم الذين كانوا يسكنون المعابد . وبهذه المناسبة نذكر أنه كان لسيين أيضا مركز دينى . فقد وجد لترون Letronne بالمدينة قطعة من الصوان عليها نقوش دينية تدل على مكانة تلك المدينة فى ذلك العصر واستمرار عبادة الآلهة المصرية القديمة خنوم واله الجندل Sati ، والاله Anuke فى هذه المدينة [٢] ويذكر Budge أنه فى عهد الرومان بنى فى سيين ٣ معابد Coherts وأصبحت بذلك ذات أهمية بالغة . وفى القرن الثانى عشر الميلادى كانت مركزا دينيا عظيما[٣] .

وفى الواقع نجد أن البطالمة لم يتوسعوا فى انشاء المدن الأغريقية فى مصر لأن وجود مثل هذه المدن المستقلة كان يتعارض مع سياسة الحكم المطلق التى كانوا يتبعونها فى وادى النيل [٤] .

ولقد بدت أهمية سيين الأولى فى ذلك العهد فى اشتهارها بانتاج الخمور[٥] . وبلغ من أهمية هذه الصناعة فى المدينة أن سكانها كانوا يستخرجون نوعا من الطين الناعم يسمى Clay of Art من شاطىء النيل الشرقى المقابل لجزيرة الفنتين لصناعة قدور الخمر [٦] .

---

(١) على باشا مبارك : الخطط جـ ٨ ص ٦٦ وكذلك .
Jomard (T.I. Anti.) P. 143.

(٢) Ebers (Egypt) ... P. 348.

(٣) Budge ... The Nile ... P. 444.

(٤) محمد عواد حسين ـ عبد اللطيف احمد على ـ مصر ـ من الاسكندر حتى الفتح العربى ـ القاهرة ١٩٥٤ حاشية ص ٦٨

(٥) Budge, The Nile, P. 444.

(٦) Ibid ... P. 252.

وفى أواخر عهد البطالمة كانت الحكومة المركزية لكى تدعم سيطرتها على أقليم طيبة قد عينت هناك موظفا يحمل لقب Espistratêges وكان هذا الموظف مزودا بسلطات مدنية وعسكرية واسعة . وراقت لأغسطس الفكرة فقسم مصر الى ثلاث مناطق كبرى على رأس كل منها « مدير عام » . وهذه المناطق هى طيبة ومصر الوسطى والدلتا .ولم تكن لهؤلاء المديرين أى صفة عسكرية ولا مالية فيما يبدو الا نادرا وانما كانت اختصاصاتهم ادارية فقط[١] . وكانت سيين بطبيعة الحال داخلة فى منطقة طيبة الادارية .

ولما جاء عهد الرومان احتفظ الأباطرة بالتقسيم القديم لمصر وكانت مدينتهم سنو Sunnu أو أسوان فى الجهة الشرقية من النيل الا أن قاعدة هذا القسم الجنوبى أو الأول من مصر كانت هى مدينة نويت[٢] (وهى كوم أمبو الحالية) والتى عرفها اليونان باسم أمبوس Ombus وكان هذا القسم يشتمل على مدينة سوانو (سيين) وكذلك على الجزيرتين الشهيرتين باسم سنوميت (بيجة وبلاق) وقد التجأ اليهما آخر عباد للأوثان الذين اضطهدهم المسيحيون وكان يوجد بهذه المدينة معبد سوتيس أو سوريس (الشعرى اليمانية) وكان سكان المنطقة يستدلون بظهوره على زيادة مياه نهر النيل .

وكان لمدينة سوان أهمية دينية فى انتشار المسيحية اذ لجأ اليها بعض الرهبان الهاربين من اضطهاد روما ونشروا منها المسيحية فى القرن الخامس الميلادى الى بلاد النوبة والسودان وما زالت بعض قرى النوبة تحمل أسماء مسيحية حتى الآن[٣] .

اسوان العربية :

كان من أهم صفات الرواد العرب الأوائل صفة التقشف فلم يكن اهتمامهم بالمبانى التى تدل على الثراء اهتماما كبيرا لذلك أهملت محاجر الجرانيت فى سوان واختفت معاصر الخمور بطبيعة الحال كما قلت أهمية بئر سوان المضىء ويقول

---

(١) محمد عواد حسين ـ ص ١٣٥

(٢) احمد كمال ـ الحضارة القديمة ص ٧٥

(٣) Munier (H.) and Wiet (g.) l'Egypte Byzantine et Musulmane, Precis de l'Histoire d'Egypte par divers Historiens et Archéologues, le Caire, 1932, T. II P. 60.

على مبارك[١] « ان منزلة سوان انحطت درجتها فى زمن دخول العرب أرض مصر واعترى الخراب أكثر مبانيها » الا أن الفتح الاسلامى كان عاملا جديدا فى تطور مدينة أسوان لتكتسب عروبتها اذ تغير اسمها الى أسوان وأخذ العرب فيما بعد يشيدون المبانى على انقاض المدينة القديمة وعلى منحدر بسيط من الأرض وبنى سور حولها يصل حتى حافة الهضبة الشرقية ويسير بمحازاتها . ونعتقد بأن المدينة العربية قد اتخذت موضعا نحو الشمال قليلا عن موضعها القديم بدليل أن السور الذى بنى حولها كان يبعد حوالى ٣٠٠ متر عن حدود المدينة القديمة[٢] . وقد بنى هـذا السور من قطع الصوان التى أخذت من المحاجر ومن المبانى القديمة وكانت تظهر عليه الأبراج فى مسافات تفصلها جدران عالية . وقد ظهر هذا السور فى خريطة نوردان وكان يحف بالمدينة من الشرق والجنوب الشرقى والجنوب . (أنظر الخريطة شكل ٢) ويقول الأستاذ أحمد كمال[٣] أنه كان هناك سور عظيم مبنى بالطوب الأحمر يمتد من الجبل الأحمر حيث محاجر الجرانيت الى مدينة الشلال ولم يذكر تاريخ بنائه أو زمانه وانما أخبرنا بأنه كان معدا لحماية العمال الذين يشتغلون فى المحاجر من هجوم رجال القبائل المجاورة للمنطقة .

ومن المقارنات الهامة أيضا أننا نجد أن كثيرا من المـدن المصرية قد أصابها التدهور والخراب عند دخول العرب اليها فمثلا وجدنا نفس الحال ينطبق على مدينة الاسكندرية[٤] ويعزى الأستاذ الدكتور الشيال هـذا الانهيار فى حياة مدينة الاسكندرية الى النزاع الشديد الذى كان يقوم بين الرومان والبطالسة أو بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين ثم النزاع بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين .

ولعل هذا أيضا أن يكون السبب فى تخريب كثير من المدن المصرية الأخرى وأن كانت الحال فى أسوان تختلف قليلا اذ أنها كانت تعتبر فى تلك الأزمان ملجأ

---

(١) على باشا مبارك الخطط جـ ٨ ص ٦٥
(٢) المرجع السابق ـ الخطط جـ ٨ ص ٦٥
(٣) أحمد كمال ص ٧٥
(٤) انظر : جمال الدين الشيال ـ الاسكندرية ـ طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر ـ القاهرة طبع دار المعارف (بدون تاريخ) ص ٢٠٩

المضطهدين الدينيين[١] وملجأ للعصاة وأصحاب الأحزاب المختلفة . فكان كل منهم يجمع فيها أصحابه ورجال القبائل المجاورة ويحارب بهم رجال الحكومة . فلقد جاء فتح العرب لمصر بعد عهد من الأضطهاد والفوضى لقيته مصر فى الحكم الرومانى . فقد حرم المصريون فى أثناء ذلك العهد من الأشتراك فى حكم بلادهم واضطهدوا من الناحية الدينية ومنعوا من الاشتراك فى الجيش حتى لا تكون لهم قوة حربية من أى نوع تستطيع مقاومة الحكم الرومانى .

وقد اشتط الرومان فى جمع الضرائب حتى ضاقت سبل العيش بالمصريين وأصبحوا يهجرون مزارعهم وأراضيهم وانتشرت الثورات فى البلاد ضد هـذا الحكم الجائر . وزاد اضطهاد الرومان للمسيحيين فى مصر بوجه خاص ولذلك كان دخول العرب الى مصر بمثابة انقاذ للسفينة التى على وشك الغرق[٢] . ولذلك تأثرت كل مدن مصر بسبب هـذه القلاقل ثم توالى الحكام العرب لمصر بعد عمرو بن العاص ومر على مصر عهود من الطمأنينة والسلام وعهود من الفوضى والثورات والحروب بين الولاة المختلفين ومركز الحكم فى الدولة الأسلامية الكبرى بسبب التنازع على السلطة ولذلك نجد أن مدينة أسوان كغيرها من المدن . قد تأثرت بتلك الأحوال منذ القرن السابع الميلادى حتى دخول العثمانيين أرض مصر.

وظهرت نفس أحوال الفوضى بوجه خاص زمن دخول السلطان سليم الى مصر واستمرت حتى زمن استيلاء محمد على على حكم مصر[٣] ويمكن أن نستنتج من هذا أنه فى الأوقات التى كانت تضعف فيها الحكومة المصرية كانت أسوان وكل المنطقة التى توجد فى نهاية مصر من الجنوب تصبح ميدانا للفتن التى يحس أصحابها أنهم أصبحوا أحرارا عن الحكم المركزى فى العاصمة . وفى عهد محمد على حينما رجعت الحدود المصرية الى الجنوب كثيرا دخلت بلاد النوبة كلها ضمن الأراضى المصرية وسادها نوع من الأطمئنان . وقد قال ابن زولاق « ان الشدة

---

(١) Munier, Précis ... P. 60.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر بتلر ــ فتح العرب لمصر ــ ترجمة محمد فريد ابو حديد القاهرة ١٣٦٥ هـ ــ ١٩٤٦م ص ٣٢٨

(٣) على باشا مبارك ــ الخطط جـ ٨ ص ٧٠

(شكل ٢)

عن : Norden (F.L.), Voyage, Paris 1793

يلاحظ ما يأتى :

١ ــ تظهر اسوان فى هذه الخريطة فى الركن الايسر العلوى اذ يلاحظ ان شمال الخريطة فى اسفل الصورة .

٢ ــ يظهر سور مدينة اسوان فى الخريطة فى الشرق والجنوب الشرقى والجنوب من المدينة . كما تبدو منطقة زراعة النخيل فى شمال المدينة .

أخذت تقل شيئا فشيئا بسبب اتساع حدود مصر نحو الجنوب وقد عم فيها (فى أسوان) الأطمئنان والرخاء »[١] .

والعرب حينما استقروا فى مصر قسموها الى قسمين كبيرين مصر العليا ومصر السفلى ثم قسم كل منهما الى كورات . وكان عدد هذه الكورات ٤٧ كورة بدلا من ٧٢ كورة موجودة قبل ذلك فى الثلث الأول من القرن السادس . وفى هذه الحالة ضمت فيلة الى أسوان فى كورة واحدة .

الا أن هـذا التقسيم أخذ يتطور مع تطور الزمن . وبالتالى أخذت أهمية أسوان تتطور مع الزمن : ففى بعض العصور العربية كانت أسوان تكون عاصمة لأحدى هذه الكورات قال المقدسى فى القرن العاشر الميلادى[٢] « أما الصعيد فقصبتها أسوان . ومن مدنها حلوان قوس أخميم بلينا علاقى » ومعنى هذا أن أسوان أهم من قوص . وفى عهود أخرى لم تكن أسوان العاصمة بل كانت مجرد مدينة كبيرة فقط فى الأقليم . كما حدث فى أواخر القرن العاشر وأوائل الحادى عشر فقد كانت أسوان مدينة كبيرة كثيرة التمر الا أن قوص كانت أهم منها وقد اكتسبت قوص هذه الأهمية لتحول طريق التجارة نحو طريق عيذاب منذ عهد المستنصر بالله الفاطمى (١٠٣٥م) فصارت المتاجر تسير فى النيل جنوبا حتى قوص ومنها الى عيذاب . وكانت قبل ذلك تسير فى الطريق الشمالى من القاهرة الى القلزم على البحر الأحمر[٣] قال الظاهرى[٤] « يلى أقليم الأسيوطية من الجنوب أقليم القوصية به مدينة قوص وهى مدينة عظيمة جدا وهى أعظم مدن الصعيد يرد اليها التجار من البلاد الجنوبية الواصلون من البحر المالح الى القصير تجاه جدة . وبه أيضا مدينة أسوان وهى مدينة كبيرة كثيرة التمر » . ومعنى ذلك أن قوص كانت أهم من أسوان . وقد ازدادت أهمية قوص فى عهد المماليك . ولكن بعد

---

(١) وقد وصل عدد سكانها فى عام ١٢٩٠ نحو ٤٠٫٠٠٠ نسمة عن نفس المرجع جـ ٨ ص ٦٦

(٢) المقدسى (ابو عبد الله محمد بن أحمد) (الف ٩٨٥ م) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . نشرة دى غوية ليدن ١٩٠٦ ص ١٩٤

(٣) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ــ القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٧٣

(٤) الظاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك طبعة باريس ١٨٩٤م ــ ص ٣٣

دلك فى القرن الرابع عشر ذكرت أسوان على أنهـا مدينة مستقلة وبعد أن كان حاكمها نائبا لوالى قوص[١] وكانت أسوان مضافة الى ولاية قوص بالرغم من أن حاكمها معين من قبل السلطان الا أنها فى ذلك العهد (القرن ١٤ زمن السلطان برقوق) . أصبحت مستقلة كولاية قائمة بذاتها [٢] وكانت أقسام مصر الجنوبية فى ذلك العهد هى :

١ — والى البهنسى ٢ — والى الأشمونين ٣ — والى قوص وأخميم . ٤ — والى أسوان .

وقد بنى العرب فى أسوان كثيرا من المحاريب وذلك أن أسوان كانت تقع مع مكة المكرمة فى الأقليم الثانى [٣] من الأقاليم التى قسم العرب العـالم المعروف اليها . وكان هذا الاقليم مكرما ومقدسا لوقوع مكة فيه ولذلك اهتم العرب بمحاريب أسوان وأصبح لها شهرة كبيرة .

ولقد وصـف كثير من الكتاب والرحالة العرب مدينة أسـوان فى القرون الوسطى . وصفها المسعودى بأنها بلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة فى الأرض فتنبت نخلة ويؤكل ثمرها بعد سنتين . ونجد أن غالبية الكتاب العرب سموا أسوان ثغرا [٤] لقيامها بالتجارة النهرية مع بلاد النوبة . فقد كانت لذلك ذات أهمية بالغة وبخاصة فى القرن العاشر فقد ذكرها المقدسى[٥] بقوله « أسوان قصبة الصعيد على النيل عامرة كبيرة بها منارة ... ولها نخيل وكروم كثيرة وخيرات وتجارات وهى من الأمهات » .

وكانت أسوان فى عهد الطولونيين (قرن ٩ ، ١٠م) مدينة هامة[٦] . ولكن يظهر أنه بعد ذلك فى عهد الفاطميين أهملت حامية أسوان وطمع فيها ملك النوبة

---

(١) القلقشندى (١٤١٨ م) أبو العباس احمد . صبح الأعشى فى صناعة الانشا) القاهرة ١٣٣١ هـ ، ١٩١٣ م . جـ ٣ الفصل الثانى ص ٤٠١

(٢) نفس المرجع جـ ٤ ص ٢٦

(٣) ابن خلدون (١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد ـ مقدمة ابن خلدون ـ بيروت ١٩٠٠ م ص ٢٩ ـ على باشا مبارك ـ الخطط جـ ٨ ص ٦٦

(٤) المقريزى (تقى الدين احمد بن على) السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٢٩ جـ ٢ قسم أول ص ٢٥٩

(٥) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ـ طبعة دى غورية ليدن ١٩٠٦ ص ٢٠١

(٦) انظر ابى محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى سيرة احمد بن طولون تحقيق محمد كرد على مطبعة الترقى دمشق ١٣٥٨ هـ ص ٦٥

وكثرت أغارات البدو على المنطقة [١] أكثر من أغارات أهل النوبة مما دعا الى انهيار أهمية أسوان فأصبحت مدينة صغيرة .

وصف الأدريسى [٢] أسوان فى القرن الثانى عشر فقال « أسوان بلد صغير من ثغور النوبة وهى آخر بلاد الصعيد الأعلى وهى عامرة كثيرة الحبوب والفواكه والبقول رخيصة الأسعار » . وقد اتفق هـذا مع عهد الأيوبيين حينما تعرضت أسوان لغزوات النوبيين وفتن من الموالين للدولة الفاطمية .

وفى القرن الثالث عشر عادت أسوان فأصبحت مدينة كبيرة واتفق هذا العهد مع دولة المماليك فقد ذكر ياقوت [٣] « أنها مدينـــة كبيرة وعاصمة فى آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة . وفى جبالها مقطع العمد التى بالاسكندرية » .

ويظهر أن أسوان فى القرن الخامس عشر الميلادى قد أصابها شىء من الأزدهار فهذا العهد عهـد المماليك عهد غنى وثروة واطمئنان فى مصر [٤] . وقد وصفها المقريزى [٥] فى ذلك الوقت فقال « هى ثغر من ثغور الأقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر . وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول وكانت كثيرة الحيوان والابل والبقر والغنم ولحمانها هناك غاية فى الطيب الطيب والسمن وكانت أسعارها أبدا رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منهـا الى بلاد النوبة » .

وهكذا كانت الأيام دول والحوادث غير فى مدينـــة أسوان وكانت أهميتها تزداد فى عصور الأطمئنان والسلام وقوة الحكومة المركزية فى مصر . أما حينما تضعف فكانت المدينة تنهار ويطمح فيها سكان الجنوب من أهل النوبة أو البدو من الصحارى المجاورة .

---

(١) Quatremére (Et.) vol. I, P. 89.

(٢) Wiet (gaston) Un Resumé d'idrisi, Bulletin de la S.R. d'Egypte, Juin 1939, P. 165.

(٣) ياقوت « معجم البلدان » طبعة اولى مجلد اول القاهرة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٦ م ص ٢٤٨

(٤) Munier (H.) Precis ... T. II. P. 258.

(٥) المقريزى — المواعظ جـ ١ ص ٣١٩

أسوان حديثة :

لما فتح العثمانيون مصر فى القرن السادس عشر اهتم السلطان سليم بحدود مصر الجنوبية وقد وجد مسجد [١] فى أسوان منقوش عليه اسم سليم مما يرجح أنه بنى [٢] مدينة فى هذه المنطقة تقع الى الشمال الشرقى من المواضع القديمة لمدينة أسوان . وعلى أساس هذه المدينة نشأت نواة أسوان الحديثة شكل (٣) فى الجزء السهلى مشرفة على نهر النيل وهو جزء ضيق الرقعة ويتسع كلما اتجهنا شمالا . ثم امتدت المدينة فى جزئها المتوسط الأرتفاع على ربوة عالية أخذت تتسع هى الأخرى نحو الغرب والشمال . وهكذا أثرت الظروف الجغرافية فى المنطقة وجعلت أسوان تتخذ شكلا طوليا شريطيا فرضة الموضع الذى نشأت فيه محصورة بين حافة الهضبة وشاطىء النيل فى هذا الجزء الضيق من الوادى .

ويقول جومار : « ان المدينة الحديثة كانت تحف بها من الشمال الشرقى غابة من النخيل والحدائق التى تمتدبعيدا حتى شاطىء النيل المنخفض الذى كان يمتلىء بالمستنقعات بعد الفيضـــان . وفى الجنوب نجد منطقة جبلية بها محاجر الجرانيت أما من الشرق فنجد مساحة كبيرة من الأرض تشغلها منازل منخفضة وكان طول المدينة يبلغ حوالى ٨٠٠ متر . أما منازلها فهى مبنية فى الغالب من الطين ، ويلاحظ أن كثيرا من المنازل مبنى على شكل العقد .. أما ميناء المدينة فقد كان مطلا على نهر النيل ومتسعا نوعا ما وكان مغلقا من أحد الجوانب بواسطة صخور كبيرة » (شكل ٤) .

ولقد وصف كترمير [٣] فى أوائل القرن التاسع عشر مدينة أسوان فقال : بأنها تقع فى منطقة خصبة بها القمح والشعير والفاكهة والخضروات والحشائش التى ترعى عليها الحيوانات وبها أعداد كبيرة من الجمال والثيران والأغنام التى تباع بأسعار رخيصة وتشتهر بجودة لحومها . وأما المنطقة التى تقع الى شرق أسوان فيسكنها قوم غير مسلمين ، والى الجنوب من أســـوان يوجد منجم الزمرد ، ومنجم الذهب على بعد ١٥ يوما من المدينة .

---

(١) على باشا مبارك ـ الخطط جـ ٨ ص ٦٦

(٢) Jomard (Descript. T. I. Anti) P. 131.

(٣) Quatremere (Et.) Memoires ... T. II P. 4.

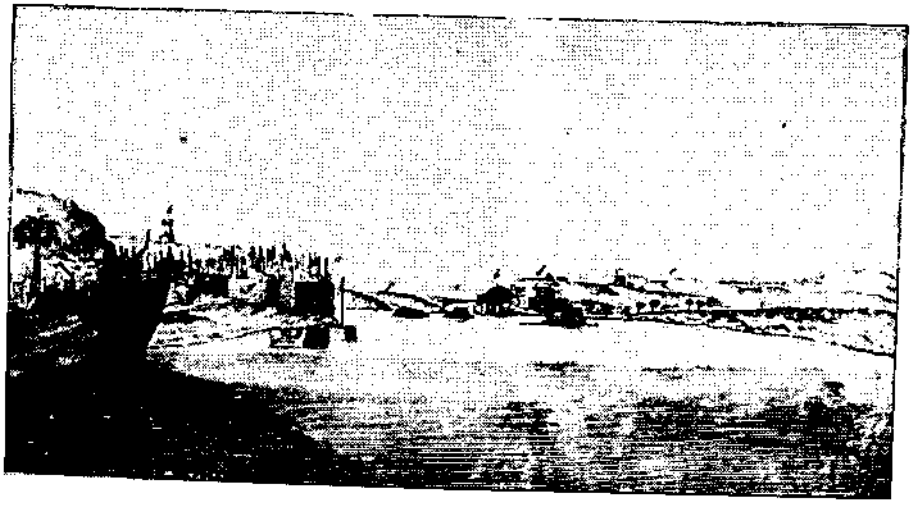

(شكل ٣)

عن : Norden (F.L.) Voyage, Paris 1798

يلاحظ ما يلى :

(a) آثار مدينة أسوان الحديثة .
(b) حائط قديم فى جزيرة الفنتين .
(i.e.d.c) آثار مدينة فى جزيرة الفنتين .
(f) طريق مائى للذهاب الى الجنادل .
(g) حوائط قلعة قديمة مطلة على الشاطىء من أسوان .
(h) آثار مسجد .

ميناء اسوان القديم

(كما وصفه علماء الحملة الفرنسية)

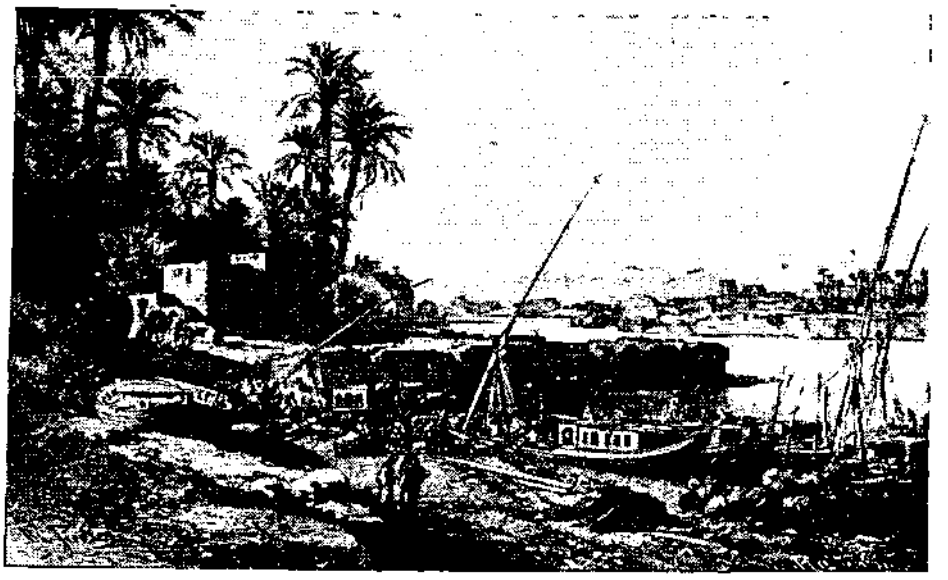

(شكل ٤)

عن : Ebers, Egypt, Vol. II, London 1898

أما على باشا مبارك [١] فقد وصفها فى ذلك العهد « حاراتها ضيقة وأبنيتها من الطوب المضروب ما بين لبن ومحرق ، وبها مساجد كبيرة . أما منطقة الميناء فقد أصبحت مملوءة بالخيرات التى كانت ترد من البلاد السودانية ، كما بنيت بها متاجر عظيمة سودانية ومصرية » . كذلك وصفها الرحالة [٢] Ebers : « بأنها تحيط بها غابات النخيل التى تخفى الجزء المنخفض من المدينة ولكنها لا تخفى المنازل الرمادية اللون فى الجزء المرتفع منها وعند الشاطىء الغربى للنيل نجد حافة الهضبة الليبية وتقع عليها قلعة عربية قديمة » .

وفى العصر الحديث أخذت أسوان تكبر ، وبنى بها محمد على ديوان المحافظة على شاطىء البحر وصار بها قاضى ولاية ، وفى شمال المدينة بنى قصر وبستان فى ذلك العهد أيضا وبجوارهما قشلاق كبير لاقامة الضباط ومدرسة .

وظائف مدينة أسوان :

تظهر هذه الوظائف وتتبلور عند دراسة العلاقة بين أسوان وبيئتها . وهذه العلاقة متشعبة النواحى بعضها يتصل بفواصل اجتماعية تربط بين سكان المدينة وسكان بيئتها وبعضها عوامل اقتصادية تشـــمل الزراعة والتعدين والصناعة والتجارة . وهنا تظهر أهمية الموقع الجغرافى لمدينة أسوان . فكل هذه العوامل التى تحدد صلة أسوان ببيئتها أو بمعنى آخر الظروف الجغرافية للبيئة التى نشأت فيها أسوان وتطورت هى التى خلقت وظائف مدينة أسوان على مر العصور وحددت صلاتها بجيرانها على مر الزمان .

١ ــ الصلات الاجتماعية :

لم تكن صلة مدينة أسوان ببيئتها صلة حديثة بل نشأت مع نشأة المدينة منذ عهد قديم ، ولقد كان وقوع أسوان فى جنوب مصر على الحدود فى معظم عصور التاريخ سببا فى جعلها منطقـــة تعتبر نائية بالنسبة لبقية أقاليم مصر حتى أن

(١) على باشا مبارك ــ الخطط جـ ٨ ص ٦٦

(٢) Ebers (g.) Egypt ... Vol. II London 1879. P. 346.

ارتباطها بالمنطقة التى تقع جنوبها والتى تسمى بلاد النوبة [١] كان ارتباطا وثيقا ظهر خلال فترات طويلة من التاريخ لدرجة أن بعض الكتاب الذين كتبوا عن أسوان أخبرونا بأنها تتعلق ببلاد النوبة فقد وجدنا مثلا كترمير [٢] يقول : « ان أسوان تقع على حدود النوبة » . ولعله اختار ذلك التعبير لما رآه من شدة تعلق تاريخ أسوان مباشرة بتاريخ تلك البلاد بل بحياتها .

وفى التاريخ المصرى القديم كانت تلك الصلات موجودة فعلا فقد عثر فى كرما جنوب الشلال الثالث فى أقصى شمال دنقلة على قطع من الأوانى والأحجار عليها أسماء بعض ملوك الأسرة السادسة ، ومن الشواهد على تلك الصلات أيضا أنه منذ عهد الفراعنة كان المصريون القدماء يذهبون لاستغلال مناجم الذهب بالنوبة السفلى . وقد بلغت هذه الصلات درجة كبيرة فيما بعد حتى أن بلاد النوبة اصطبغت بالصبغة المصرية وصار اللسان المصرى هو اللغة الرسمية فى النوبة فى عهد رمسيس الثانى كما ازدادت هجرة المصريين الى النوبة [٣] .

كذلك لا تنسى ما قام به رمسيس الثانى فى السودان فقد أدخل الحضارة المصرية وأقام بين أسوان والشلال الثانى خمسة معابد محفورة فى الصخر منها معبد أبو سنبل [٤] كذلك فقد سبقه تحتمس الأول الى تلك الأقاليم لتثبيت حدود مصر عند الجندل الثالث [٥] .

ولذلك يرجح أن اقليم الشلال استمر تحت النفوذ المصرى الفرعونى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين [٦] .

---

(١) تبدأ بلاد النوبة عند بلدة القصر الواقعة جنوب اسوان وآخرها عند بلدة بيلاق Bilak وهى العاصمة والنيل فى هذه المنطقة مملوء بالجنادل وتسير فيه السفن بمنتهى الحذر وتاخذ معها مرشدين من الصيادين ليرشدوها الى الطرق بين الصخور . ويبلغ طول هذه الشقة للمسافر بالنيل قديما نحو عشرة أيام .

(٢) Quartemére (Et.) Memoires Vol. II, P. 3.

(٣) نجيب ميخائيل ابراهيم ـ مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٢ طبعة ٣ اسكندرية ١٩٦٢ ص ٢٤١

(٤) نفس المرجع ص ٢٩٥

(٥) نفس المرجع ص ٩٦

(٦) نفس المرجع ص ٢٤٢

ولقد نشأت فى النوبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد مملكة عاصمتها نبتة ، كانت تعتبر محطة تجارية عظيمة على الطريق بين مصر والسودان ، ويذكر الأستاذ الدكتور نجيب أنها كانت أبعد المراكز فى المملكة المصرية .

ومع ذلك فلم تكن الصلات بين مصر والنوبة صلات سلم على طول الأيام ولكن كانت هناك حملات وغزوات من الجانبين سيأتى ذكرها فيما بعد .

ومن الشواهد على تلك الصلات أيضا أن سكان أسوان كانوا يمتلكون بعض الأراضى فى عصور لاحقة اشتروها من جيرانهم النوبيين . ويقول كترمير أنه حتى أوائل القرن التاسع عشر كان أحفاد هؤلاء الأسوانيين لا زالوا يملكون الأراضى فى النوبة [١] وقد بدأ تملك أهـــل أسوان للأراضى فى النوبة فى بدء الاسلام زمن الأمويين والعباسيين وكانوا يدفعون خراجها الى ملك النوبة [٢] .

ويذكر المقريزى أن هذه الضياع كانت فى بلاد مريس . وهى أول بلاد النوبة من الشمال وتجاور مدينة أسوان [٣] .

كذلك كان أهل النوبة يأتون الى أسوان فيشترون الأراضى الزراعية . وفى عهد أحمد بن طولون كثر النوبيون فى مصر فأقطعهم هـــذا السلطان منطقة Al-Katay وسميت المنطقة باسمهم [٤] ، كذلك كانت تعيش حول أسوان قبيلة عربية تنتشر بطونها فى أرض النوبة .

وتمتاز أسوان على سائر المدن المصرية بتعدد عناصر السكان فيها وتعدد لهجاتهم وتظهر فيها ثلاث لهجات [٥] هامة هى : لهجة الكنوز (بنى كنز) Kenees والمحس Mahâs والدناقلة Dongolauee ، فأهل أســـوان أخلاط من البدو

---

(١) Quartemée, Vol. II, P. 58.

(٢) على باشا مبارك ــ الخطط جـ ٨ ص ٦٧ والمقريزى ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣١٩

(٣) ويقال ان الرياح الباردة التى تهب من الجنوب على مصر ويسميها سكان المنطقة (Marisy) راجعة الى هذا الاسم . وعن المقريزى ان الحمير البيضاء كانت تاتى الى الصعيد من هذا الاقليم .

(٤) Quatremére (Et.) Memoires P. 78.

(٥) Ebers (g.) Vol. II, P. 349.

والعرب والأتراك والنوبيين ومن بربر وسنار . ولذا نرى فيها جميع الألوان والملابس وتسمع بها كثيرا من اللهجات[١] .

وقد ذكر المسعودى أن سكان هذه المدينة العرب هم من بنى قحطان ونزار وربيعة ومضر وقريش وأغلبهم أتى اليها من الحجاز [٢] .

٢ ـ الصلات الاقتصادية :

أهم هذه الصلات هى التجاره ولكن قبل أن نتكلم عن مواد التجارة الداخلة والخارجة من أسوان يحسن بنا أن نتكلم عن انتهاجها نفسه منذ القدم . فقد اعتبرت أسوان قديما منطقة زراعة النخيل والقمح ، وذكر الكتاب أن أرضها من أخصب وأطيب الأراضى . وكانت أغلب مزارعها ممتدة على شاطىء النيل والبعض الآخر بجزيرة الفنتين . وكانت مساحة تلك الأراضى الزراعية بالجزيرة تبلغ حينئذ نحو تسعمائة فدان تزرع قمحا وشعيرا وحشائش لأكل المواشى . ولذلك نجد أن معظم سكان أسوان كانوا فقراء ويشتغلون فى التجارة أو الملاحة على السفن الصادرة والواردة أو فى التعدين أو فى المحاجر . وقد ذكر المقريزى فى كتابه « جنى الأزهار من الروض المعطار » : أن معظم معيشة أهل أسوان من تعدين الذهب والفضة كما ذكر بروس أن صيد السمك من الأعمال المهمة فى أسوان [٣] ولكن أهمية أسوان الأولى كانت فى انتاج التمر .

التمر فى اسوان :

ذكر تمر أسوان كثيرا فى الكتب لدرجة أن أحدهم ذكر أنه فى أسوان تزرع النواة فتصير نخلة ويؤكل ثمرها بعد سنتين . ولا يحدث هذا أبدا الا فى أسوان [٤] لخصب تربتها وملاءمة مناخها بخلاف البصرة والكوفة ، فلا يثمر فيها النخل اذ غرس من النوى [٥] ويذكر الكمال جعفر الأدفوى أن أسوان أنتجت

(١) على باشا مبارك ـ الخطط جـ ٨ ص ٦٦
(٢) المقريزى ـ المواعظ جـ ١ ص ٣١٩
(٣) Bruce, T. I, P. 173.
(٤) المسعودى : ابو الحسن على بن الحسين « التنبيه والاشراف » ـ نشرة دى جوية ـ ليدن ١٨٩٤
(٥) على باشا مبارك ـ الخطط جـ ٨ ص ٦٥

فى سنة واحدة من التمر ثلاثون ألف أردب [١] ويظهر أن أسوان اشتهرت فى القرن الخامس عشر بالتمر وبلغت فى الأهمية شأوا أبعد من العراق لدرجة أن كثيرا من الكتاب ذكروا أن فى أسوان من التمر ما هو موجود فى العراق ولكن فى أسوان تمر ليس موجودا بالعراق [٢].

ولقد تعددت أنواع التمر فى أسوان حتى قيل انه لا يعرف فى الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا الا بأسوان ، وكان بأسوان نوع من الرطب أخضر ، وقيل انه كان منه فى أسوان سبع نخلات يحمل رطبها الى أمير المؤمنين العزيز بالله . قال على مبارك : يسير الراكب فى نخيل أسوان مسيرة يومين وهذا دليل على اتساع مناطق زراعة النخيل [٣] ولقد حدد علماء الحملة [٤] مكان زراعة النخيل فى شمال شرق أسوان .

وتعددت أنواع التمور فى أسوان فازدادت شـــهرتها فمنها ما يبس ومنها ما يؤكل أخضر ، ومن التمر نوع يسمى السكونى وهو صغير الحجم ونوع يسمى جنديلة ونوع يسمى أصابع الست وهو أحمر طويل والأنواع الجيدة تباع بأسعار عالية وكانت تعتبر هدايا لأكابر القوم .

وقد بلغ من شدة شهرة أسوان بالتمر أن صارت تتخصص فى أنواع معينة منه وأصبحت هى وحدها التى تنتجها دون سائر أجزاء الدولة الاسلامية وكان فى ذلك منافسة كبيرة بين تمر أسوان وتمر العراق . قال ياقوت : لا يعرف فى الدنيا بسر يصير تمرا ولا يرطب الا بأسوان ولا يتمر من بلح قبل أن يصير بسرا الا بأسوان . وقد سئل بعض أهل أسوان عن ذلك فقال : « كل ما تراه من تمر أسوان لينا فهو مما يتمر بعد أن يصير رطبا وما رأيته أحمر مغير اللون فهو مما يتمر بعد أن صار بسرا وما وجدته أبيض فهو مما يتمر بعد أن صار بلحا [٥]

---

(١) المقريزى ـ المواعظ جـ ١ ص ٣١٩

(٢) حكى ان هارون الرشيد امر ان يجمع له من الوان تمر اسوان ـ من كل صنف ثمرة واحدة فجمعت له ويبة (ياقوت ـ معجم البلدان ـ طبعة اولى ـ مجلد أول ص ٢٤٩) .

(٣) على مبارك الخطط جـ ٨ ص ٦٦

(٤) Jomard (Descrip.) T. I Anti. P. 131.

(٥) ياقوت معجم البلدان ـ جـ ١ ص ٢٤٩

التعـــدين :

اشتهرت أسوان منذ عهد الفراعنة بقطع الأحجار لعمل الأعمدة ، وقد ذكرت ذلك كل الكتب التى كتبت عن أسوان فمنذ تلك العهود الغابرة كانت لمحاجر أسوان أهمية كبرى فى جلب الجرانيت لصنع أعمدة المعابد . فلقد أرسل الملك مرن رع ــ خليفة سيتى الأول ــ وزير الجنوب أونى لجلب الأحجار الوردية من أجل عمل الأعمدة [١] .

ولقد كانت أسوان الفرعونية مركزا لاستيراد أعمدة الجرانيت فلقد كتب أحد حكام الجنوب المسمى « ونى » فى عهد الأسرة السادسة المصرية (٢٤٢٣ ــ ٢٢٨٠ ق.م) تقريبا على مقبرته « أرسلنى جلالته الى « أبو » لاحضار الباب الوهمى من الجرانيت مع مائدة القرابين وعضادتى الباب من الجرانيت ولاحضار ألواح وموائد قرابين من الجرانيت للغرفة العلوية للهرم المسمى « مران رع يضىء وجميل »[٢] كذلك استخرج الجرانيت بالقرب من سيين ليستخدم فى بناء الهرم الثالث[٣] .

وقد ذكر السيوطى أن القدماء كانوا يصنعون العمد من هذا الجرانيت وليس لها مثيل فى سائر الدنيا [٤] .

ولقد كان المصريون يستخدمون هذا الحجر ليس فى اقامة الأعمدة فحسب ولكن فى عمل « حجر الرحى » [٥] . كذلك وصف أبو بكر الهروى [٦] منطقة الجنادل ومنطقة محاجر أسوان فى القرن الثالث عشر وأخبرنا عن وجود عمود عظيم الحجم لم يتم قطعه بعد فى أسوان ، كذلك ذكر على باشا مبارك أن هذه الحاجر قد بلغ طولها ستة آلاف متر تقريبا [٧] .

ولم تكن أهمية أسوان قاصرة منذ القدم على قطع الجرانيت وارساله الى كل جهات القطر فحسب وانما كانت مهمة أيضا فى صناعة الفخار . فان ساحل

---

(١) Lupiérre (P.B.) Precis de l'Histoire d'Egypte pier Partie le Caire 1932, P. 87.

(٢) نجيب ميخائيل ابراهيم ــ مصر ــ جـ ١ طبعة ١٩٦٣/٤ ص ٢١٠

(٣) Charlesworth, Trade Routes and commérce of the Roman Empire, cambridge 1926, P. 24.

(٤) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر) ، ١٦٠٥ م) حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ــ القاهرة ١٣٢٧ هـ جـ ٢ ص ١٧٣

(٥) Quatremére (Et.) Memeires ... T. II, P. 5.

(٦) ياقوت ، المعجم ، المجلد الأول ص ٢٤٨

(٧) على مبارك ــ الخطط ــ جـ ٨ ص ٦٦

أسوان يشتهر بنوع ناعم من الطين يستخدم فى تلك الصناعة ، واستمرت صناعة الفخار قائمة حتى الوقت الحاضر . وان كانت تشكلت قليلا . فبعد أن كانت أسوان تصنع قوارير حفظ الخمور فى العهد الرومانى صارت تعمل أوانى منزلية كالحلل والطناجر والأطباق وحجارة الدخان والقلل وغير ذلك . وكان هذا الطين يجلب من منطقة تقع فى شمال غرب أسوان تسمى الشيمنيه . أما سكان المدينة العرب فقد كانوا يصنعون من الطين الأسوانى نوعا من الآنية يسمى « البرام » وكانوا يسمون هذا الطين باسم « حجر الهمر » وكان القدماء يفضلون طهى الطعام فيه .

وكانت نساء أسوان يشتركن فى هذه الصناعة الهامة فى المدينة : فقد كان هذا الحجر يصحن ويخلط بمثله من الطين ثم تعمل النساء من هذا الخليط الأوعية المختلفة ويجففنه فى الشمس والهواء مدة ثمان وأربعين ساعة ثم يضعنه على نار خفيفة فى حفرة تعمل لذلك ويوضع فيها نحو عشرة آنية دفعة واحدة .

كذلك ذكر الأدريسى أن سكان مدينة أسوان يعملون فى تعدين الفضة والذهب فى الغالب «وأكثر معيشتهم منه» . وكانت هذه المحاجر فى الغالب توجد فى الجانب الشرقى للنيل بالقرب من مدينة أسوان ، وذكر معظم الكتاب أنها تبعد عن أسوان مقدار ١٥ يوما .

أما مناطق التعدين فهى : مناجم الذهب فى وادى العلاقى جنوب شرق أسوان فى أرض البشارية . وقد استغلها المصريون القدماء فى الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وقد وصل عمال التعدين حتى مناطق الجبال الشرقية . وقد طمست معالم كثير من مداخل هذه المناجم بالرمال .

التجـــارة :

لعل أهم وظيفة لأسوان منذ القدم هى التجارة فلقد ظهرت هنا صلة أسوان ببيئتها قوية ولا غرو أن الاسم الأول لأسوان كان يعنى « السوق » بمعنى أنها مدينة للتجارة ولا شك أن موقع أسوان فى وادى النيل بين حوضه الأدنى والأعلى قد أكسبها هذه الأهمية التجارية منذ أقدم العصور . وأن أقامة سوق الخميس كل أسبوع فى الوقت الحاضر لهو دليل على الأهمية التجارية الأولى لتلك المدينة بين مصر والسودان وبخاصة تجارة المرور .

وتذكر لنا الآثار المصرية كثير من الوقائع التى جلبت فيها بضائع من النوبة الى مصر عن طريق أسوان . فلقد ذكر حرخوف على مقبرته التى لا زالت آثارها موجودة حتى الوقت الحاضر على شاطىء النيل غربى جزيرة الفنتين وكان أحد حكام مدينة أسوان فى عهد مرن رع . ذكر أنه ذهب مع أبيه لتأديب قبائل النوبة والسودان ثلاث مرات ثم عاد ومعه قافلة من ٣٠٠ حمار محملة بمنتجات تلك البلاد . فأعجب بها الملك وأصاب مصر منها ثروة كبيرة . فقد حمل معه الذهب والفضة وبعض المعادن والأحجار الكريمة والعاج والأبنوس والصمغ وريش النعام وجلد النمر وبعض الأسلحة مثل البمرانج وبعض أنواع الخشب [١] .

وكتب سنوسرت أو سيزوستريس الثالث على مسلته التى أقامها كحد فى الجنوب قرب الجندل الثانى أمام مدينة وادى حلفا : « هنا حدود مصر الجنوبية التى نظمت فى العام الثامن تحت سلطة جلالة Khâ Kaourâ الذى يعطى الحياة دائما وأبدا حتى لا تتخطاها الشعوب النوبية فى الصعود الى النيل اذا لم يكن من أجل نقل الحيوانات والثيران والماعز والكباش التى يمتلكونها » [٢] .

وفى العهد الرومانى ازداد نشاط التجارة بين مصر والشرق الأقصى وبنيت فى وادى النيل مبان عظيمة تدل على ذلك الثراء الذى أصاب تجـارة مصر وأزاد مواردها فى دندرة وفى الفيوم وفى فيلة وفى دبود Debod وغيرها .

وفى القرون الأولى للاسلام كانت أسوان تكون مركزا للتجارة وللحج فكانت تخرج منها قوافل الحج التى تسير نحو البلاد المقدسة فى صحراء عيذاب ومن هناك يركبون البحر حتى جدة وبخاصة وقت الحروب الصليبية حينما تهدد الطريق الشمالى وقد استمر ذلك العهد حتى القرن السادس عشر الميلادى . ولكن بعد رجوع هذا الطريق الى طريق قوص ــ عيذاب فقدت أسوان هذه الأهمية .

وبذلك فان أسوان فى بيئتها كانت تنافسها بعض المدن التى اكتسبت نفس الأهمية وكانت هذه الأهمية تنتقل من مدينة الى أخرى على اختلاف العصور فى نفس المنطقة.

(١) Lapiérre (P.B.), Precis, Ire Partie, P. 88.

(٢) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, T. I, Paris, 1931-1936, P. 131.

فكانت قوص التى تقع الى شمالها تتنازعها الأهمية فمثلا فى عهد الدولة الفاطمية كانت قوص أهم من أسوان بل هى عاصمة للمقاطعة الجنوبية وفى عهد المماليك ازدادت أهمية قوص وأخذت تلك الأهمية من مدينة أسوان .

ولكن وقوع أسوان على باب مصر الجنوبى عند نقطة انتهاء كثير من طرق القوافل جعلها دائما ميناء دخول لتجارة مصر مع البلاد الجنوبية وأفريقية الوسطى.

ولم تقتصر تجارة أسوان على هذه النواحى وانما كان العبيد أيضا يكونون مادة هامة للتجارة . ولقد كان العبيد يكونون مادة للمبادلة يدفع بها أهل النوبة نظير شراء ما يحتاجون اليه فلم يكونوا يعرفون البيع والشراء وانما المبادلة وكانوا يدفعون ثمن ما يشترونه عبيدا أو غنما أو جمالا أو حديدا أو قمحا (١) .

وكانت حركة التجارة فى العبيد نشيطة فى مدينة أسوان فهى أول مدينة بين مصر والنوبة .

وفى القرن السابع الميلادى (عام ٦٥٢ م — ٣١ هـ) عملت معاهدة بين عبد الله بن سعد الذى غزا النوبة ووصل حتى دنقلة وبين حاكم النوبة ومنها نستنتج أهمية العبيد فى ذلك الحين ولقد استمرت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى عهد المماليك أى ما يقرب من ستة قرون . وكان أهم بنود هذه المعاهدة « حينما تدخلون بلادنا ستكونون زوارا وليس مقيمين وحينما ندخل بلادكم سنكون زوارا وليس مقيمين وكل سنة تقدمون ٣٦٠ رأسا من العبيد لرئيس المسلمين (الخليفة) كلهم من الشباب رجالا ونساءا وليسوا من كبار السن الرجال أو النساء أو الأطفال وستقدمونهم الى حاكم أسوان (٢) .

وفى تلك الأثناء كانت أسوان تكون الحدود المصرية وكان عدد العبيد يزداد أربعون عبدا من أجل المبادلة من أجل بعض القمح والشعير والعدس والأقمشة

(١) Quetremire, Memoires, T. II, P. 10.

ويذكر كترمير انه فى احدى حملات العرب على اقليم دنقلة اسروا كثيرا من النوبيين لدرجة أن الانسان كان يدفع ثمن حلاقة ذقنه عبدا من هؤلاء الأسرى (ص ٦٤) وفى احيان اخرى بيعت المرأة بدينار وكان ثمن الحصان نصف دينار (عن Lane poole a History of Egypt London 1901, P. 23.

(٢) Lane Poole, (s.) A History of Egypt, London, 1901. P. 22.

والخيول التى ترسل الى النوبة . ولقد بلغت قيمة واردات أسوان فى سنة ٥٨٥ هـ (القرن الثانى عشر الميلادى ــ الدولة الأيوبية فى مصر) نحو ٢٥ ألف دينار [١] .

وكانت دائما أهم واردات أسوان : ريش النعام والعاج والصمغ والسنامكى والشمع والتمر هندى والجلود وقرون الحيوانات وأهم صادراتها التمر والقمح والشعير والأقمشة .

ولقد أزدهرت أسوان بسبب هــذه التجارة وقد خصص فى مينائها مكان للبضائع الواردة من الســودان وأصبحت المدينة تشــتمل على خانات ووكائل امتلأت بالمتاجر السودانية والمصرية . يذكر على مبارك أنه تجمعت على أرصفة أسوان المحصولات من شتى البقاع . ومن بضائعها النشاب والحراب والمزاريق والدرقات وآلات الموسيقى والصمغ والجلود وسن الفيل والسنامكى والحبش ومن بلاد النوبة الحبال الليفية ومن صحراء العرب فحم الخشب [٢] .

وكان يرد الى القاهرة من أسوان فى كل عام نحو ٦٠ر٠٠٠ قنطار من الصمغ ٣٠٠ قنطار من الشمع الحسينى ، ٢٥ قنطارا من ريش النعام ، ١٠ر٠٠٠ قنطار من سن الفيل ، ٣٠٠ قنطار من البن .

وكانت البضائع تأتى من الجنوب حتى منطقة الشلالات ثم تنقل منها الى المدينة على الحيوانات ثم تسير الى الشمال فى السفن .

وقد ظهرت أيضا علاقة أسوان بالبيئة المحيطة بهــا فى الطرق المختلفة التى كانت تتفرع منها نحو الشرق أو الجنوب الشرقى أو الجنوب أو الغرب . ففى شرقها وجنوبها كانت تقع المحاجر ومناطق التعدين والى جنوبها كانت بلاد النوبة . أما الطريق الى الغرب فهو معروف بين أسوان وجزيرة الفنتين التى سميت فى العهد الحديث باسم جزيرة أسوان .

وكان أهم هذهالطرق جميعا هو الطريق الذى يصلها بالنوبة ثم الطريق الذى يصلها بالبحر الأحمر عند مدينة عيذاب الشهيرة . وقد كان الطريق الأخير هو الصلة بين النيل والبحر الأحمر فى ذلك الجزء من مصر وان كان يتوقف استعماله

(١) المقريزى ــ الخطط جـ ١ ص ٣١٩
(٢) على باشا مبارك ــ الخطط جـ ٨ ص ٦٧

فى بعض العصور دون البعض الآخر الا أنه بقى دائما أهم الطرق التى تصل أسوان ببيئتها لأنه كان على طريق عالمى للتجارة بين الشرق والغرب وكثيرا ما وصلت الى أسوان منه بضائع الهند[١] وكذلك كثيرا ما استخدم هـذا الطريق فى وقت الحرب للدفاع عن أرض أسوان[٢] بل منطقتها كلها . فكانت المؤن تصل وقت الحرب بالسفن فى البحر الأحمر حتى ميناء عيذاب ثم تنقل الى أسوان بالجمال ويحتمل أن يكون البطالمة أول من عمم استخدام الجمل فى النقل فى مصر وبخاصة فى نقل البضائع من البحر الأحمر الى النيل[٣] .

ولقد ذكر على مبارك[٤] أن أول من حول طريق التجارة اليها هو بطليموس فيلادلف عام ٣٥٠ ق.م فكان هذا الطريق فى زمنه وزمن من أعقبه من البطالسة هو الطريق المطروق لتجارة الهند الى مصر وأوروبا . ولم يتغير هذا الطريق أثناء عهد الرومان الا أن أهمية التجارة كانت تزيد وتنقص حسب الأحوال السياسية . وقد أمن بطليموس تلك الطرق وحفر الآبار وبنى مخازن البضاعة ورتب خفراء لحراسة المسافرين وبنى على البحر الأحمر مدينة بيرنيس .

وبواسطة هذا الطريق كان يذهب الحجاج الى بيت الله الحرام . وذكر المقريزى فى الخطط أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة عن مائتى سنة لا يتوجهون الى مكة المشرفة الا من صحراء عيذاب (حوالى القرن التاسع والعاشر الميلادى) . وكان الحجاج يسيرون شرقا من أسوان الى حيث يلتقى هذا الطريق مع طريق قوص — عيذاب . وكان هذا الطريق مفضلا أكثرا من طريق قوص لخلوه من الجبال والوهاد التى يشتهر بها طريق قوص ولذلك سمى طريق أسوان — عيذاب بالوضح[٥] . وبذلك استطاعت أسوان أن تتصل بالبحر الأحمر وبالتالى ببلاد الحجاز واليمن والسند .

---

(١) Quatremére (Et.) Memeires, Paris 1811, T. II, P. 5.

(٢) ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة الطبعة الأولى القاهرة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م جـ ٢ ص ٢٩٧

(٣) محمـد عواد حسين — عبد اللطيف احمـد على — مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ترجمة — القاهرة ١٩٥٤ ص ٩٨

(٤) على باشا مبارك — الخطط — جـ ١٣ ص ١٩ (طبعـة أولى بولاق — ١٣٠٥ هـ) .

(٥) على باشا مبارك — الخطط — جـ ٨ ص ٦٥

وذكر المقريزى أن هذا الطريق ما زال عامرا بقوافل الحج والتجارة الذاهبة والغادية حتى خلافة المستنصر (القرن الحادى عشر الميلادى) حينما أنقطع الحج حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (القرن ١٣ م) حينما خرجت قافلة الحجاج ثم التجارة ثانية بين قوص وعيذاب وأخيرا بطل استخدام ذلك الطريق فى القرن الرابع عشر الميلادى وتدهورت أهمية قوص فى هذه الناحية منذ ذلك الحين . وانفصلت قوص عن أسوان وأصبحت أسوان مدينة مستقلة بذاتها كما تقدم ذكرنا .

ولم تقتصر أهمية أسوان على ذلك بل كانت تتصل بالشمال بطريق البريد . فكان يصلها بالقاهرة طريق هام يصل بينها وبين معظم المدن الهامة فى الوادى وكان هذا الطريق [١] يسير من القاهرة جنوبا حتى يصل الى مدينة قوص . ومن قوص يتشعب الطريق الى أسوان ومنها الى النوبة ثم الى عيذاب وسواكن . فمن أراد المسير الى جهة أسوان ركب الجمال من قوص اليها ثم منها الى النوبة . ومن أراد المسير الى عيذاب سار من قوص الى كيمان فقط بالقرب من قوص . وقد ذكر القلقشندى أنه فى هذه المنطقة يسير الأنسان فى قفار وجبال من كيمان فقط الى ماء يسمى ليطة بين عين تنبع وليست جارية ثم منها الى ماء يسمى الدريج وهى قريبة من مناطق تعدين الزمرد وبه عين صغيرة ومنها الى قرية حميثرة وبها عين ماء ثم منها الى عيذاب وهى قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم وبالقرب منها عين . وتقدر المسافة كلها بين الكيمان حتى عيذاب بنحو عشرة أيام بسير الأثقال . وقد أخترق صحراء عيذاب كل من ابن بطوطة [٢] وابن جبير [٣] فى رحلتهما .

أما الطريق من أسوان الى ميناء السودان سواكن فقد ذكر فى كتاب « مسالك الأبصار » أن هناك شعبة من طريق عيذاب أسوان هذا يتفرع بالقرب من أسوان ثم يسير منها فى أرض قبيلة بنى عامر الى سواكن وهى قرية على شاطىء البحر ووراليها من العرب .

---

(١) القلقشندى ـ ابو العباس احمد ـ صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ـ القاهرة ١٩١٨ جـ ١٤ ص ٣٧٤

(٢) ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله) تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ـ القاهرة ١٩٥٨ م جـ ١ ص ٣٠

(٣) ابن جبير ـ رحلة جبير ـ تحقيق د. حسين نصار ـ القاهرة ١٩٥٥ م ص ٣٧ ـ ٤٢

ولقد كانت هذه الطرق آمنة وبخاصة فى عهد استتباب الأمن فى القاهرة . ففى عهد المماليك مثلا كان الأمن منتشرا على كل الطرق فى مصر وبخاصة فى عهد المماليك البحرية (القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادى) . وكانت هذه الطرق تستخدم من أجل البريد أو الصلات السياسية وفى الغالب للتجارة .

وقد أهتم المماليك بصيانة تلك الطرق وحراستها لدرجة أن « المرأة كانت تستطيع أن تسافر بمفردها على راحلتها أو حتى على أقدامهـا من القاهرة حتى دمشق دون أن تحتاج الى ماء أو غذاء »[١] . ويقول مونييه أن هذه الطرق كانت تتفرع من القلعة بالقاهرة وكان أحدها يسير جنوبا حتى قوص حيث يتفرع منه طريقان أحدهما يؤدى الى أسوان والنوبة والآخر الى عيذاب .

ولقد ذكر ابن بطوطة أنه يوجد فى كل محطة فندق أو خان حيث يستريح المسافرون ودوابهم وبجوار الفندق دائما يوجد خزان للماء يستقى منه المسافرون مجانا وكذلك متجر يشترون منه ما يحتاجون اليه هم ودوابهم .

اهمية الوقع الجغرافى فى وظيفة المدينة

تقع أسوان عند نهاية جنادل نهر النيل وبدء النيل الأدنى الصالح للملاحة فأصبحت بذلك بوابة أو مدخلا لمصر من الجنوب ولذلك أهتم جميع حكام مصر بهذا المدخل وأصبحت أسوان مركزا استراتيجيا هاما . ذلك أن الصحراء تحف بها من الشرق ومن الغرب ؛ واختراقها صعبا فى الدخول الى مصر ولذلك فأسهل منطقة للدخول هى وادى النيل نفسه ونهر النيل بوجه خاص (شكل ٥) .

وبذلك فأن مدينة أسوان كانت تعتبر حارسة للأراضى المصرية من الجنوب وقد شاهد ذلك الموضع كثيرا من التطورات عبر التاريخ . واعتبرت أسـوان الباب الجنوبى La Porte du Sud لكل مصر مدة طويلة [٢] ولذلك أهتم المصريون القدماء من ناحية النوبة الى الغزو والفتح ووصلت حدود مصر الى الجندل الثانى . ويتضح من الكشوف الحديثـة [٣] أنه فى مرحلة ما بين الدولة

(١) Munier, Précis, T. II, P. 258.

(٢) Lapiérre (B.) Précis 1ere Partie Le Caire, 1932, P. 93.

(٣) نجيب ميخائيل ابراهيم ـ مصر والشرق القديم جـ ١ ص ٣٦٣

القديمة والوسطى بدأت بعض القبائل تتحرك نحو الشمال على ضفة النيل شمال الجندل الثانى وأخذت هذه القبائل تتغلب على السكان الأصليين فى النوبة السفلى وتخطت موجاتهم حدود مصر الجنوبية غير الجندل الأول حتى شمال الكاب حيث عثر لهم على آثار عديدة . ويقول الأستاذ الدكتور نجيب أن هذه الأقوام لم يكن لها خطر على مصر حينئذ . ولكن قامت الى جنوب منطقتها فى دنقلة دولة كانت عاصمتها تقع جنوب الجندل الثالث قرب « كرما » وسميت هذه الدولة باسم كوش وظهرت فى التاريخ لأول مرة فى عهد الأسرة الثانية عشرة ولذلك أخطر ملوك الدولة الوسطى أن يتخذوا الاحتياطات ويقوموا بالحملات للقضاء على خطر هذه الدولة . وقد مد ملوك الأسرة الثانية عشرة حدود مصر حتى كورسكو على الأقل فى عهد الملك أمنمحعت الأول ثم سنوسرت الأول حتى الجندل الثانى على حدود كوش . أما فى عهد سنوسرت الثالث فقد قام المصريون بحملات حربية وأنشأوا الحصون عند الجندل الثانى . وأقام سنوسرت الثالث بالقرب من سمنة عند الحدود الجنوبية تمثالا له . وبذلك كانت حدود مصر الجنوبية فى عهد الدولة الوسطى تمتد حتى الجندل الثانى أو « كرما » أحيانا .

وقد ذكر أحد قواد تحتمس الأول أنه « هزم ... رئيس النوبيين وغدا الزنجى فى قبضته واستطاع جلالته أن يربط الحدود بين الضفتين حتى لم يعد رجل صوفى الشعر يجرؤ على مهاجمته ... »[1] .

ومن الأمثلة أيضا على أهمية أسوان أن جزءا من الجيش الرومانى فى عهد الأمبراطور أغسطس كان يوجد فى أسوان وكان الرومان يضعون نقطا للحراسة متناثرة على الطرق الذاهبة الى البحر الأحمر وفى الموانى ؛ وان كان الجزء الأكبر من الجيش فى بابيلون على رأس الدلتا وفى معسكر نيكوبوليس Nicopolis فى شرق الاسكندرية . فلما ذهبت دولة الرومان قوى الأثيوبيون Ethiopiens وبدءوا فى الثورة وخرج جيش مكون من ٣٠ ألف مقاتل من البرابرة المسلحين اضرب سيين واستولوا على المدينة وعلى جزر الفنتين وفيلة ولذلك جاء حاكم مصر حينئذ C. Petronius ودخل الى النوبة برجال عددهم ١٠٫٠٠٠ مقاتل ، ٨٠٠ حصان وانتصر عليهم واسترد البلاد ورجع الى مصر .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٥

وفى أوائل العصر الأسلامى اشترى أهل أسوان أراض فى بلاد النوبة اشتروها من النوبيين زمن الأمويين والعباسيين وكانوا يدفعون خراجها لملك النوبة وفى بعض الأحيان كانوا لا يدفعون مما أوجد بعض الحزازات فى نفس ملك النوبة وكثيرا ما كان يشتكى سكان أسوان عند حاكم مصر مما أدى الى نشوب كثير من الحروب بين أسوان والنوبة منذ القرن الرابع حتى القرن العاشر الميلادى وكان هذا مما يضطر حكام مصر الى الدفاع عن الأراضى المصرية الجنوبية .

ففى عام ٣٤٤ هـ هجم ملك النوبة على أرض أسوان ونهب المدينة وكان ذلك فى زمن الدولة الأخشيدية حوالى أوائل القرن العاشر الميلادى . وانتصر حاكم أسوان فى النهاية واستولى على بلدة ابريم .

وبعد ذلك ببضع سنوات هجم نائب الملك ثانيا على أرض أسوان فخربها وسبى أهلها ووصل فى وادى النيل حتى أخميم وكان ذلك فى عهد جوهر القائد .

واستمرت الأحوال غامضة فى تلك المناطق حتى ولاية المستنصر بالله (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) فقام فى أسوان أمير يسمى كنز الدولة قتل أهلها وأراد الاستقلال بها فحاربه بدر الجمالى رئيس الوزراء فى مصر حينئذ ففر الكنز الى ملك النوبة ولكنه سلمه الى الوزير المصرى وانتهت تلك الأزمة .

وكانت أسوان فى عهود حياتها العربية مركزا للجند المسلحين ليدافعوا عن ذلك المدخل الجنوبى ولكن بعد انقضاء عهد الفاطميين أهملت هذه المسألة فانتهز ملك النوبة الفرصة وصار يناوش سكان أسوان حتى أوائل القرن الثانى عشر حينما هجم على أسوان بجيش جرار وكان صلاح الدين الأيوبى حاكما على مصر فى تلك الأثناء فأرسل فرقة من الجند بقيادة أخيه شمس الدولة ووصل وراء ملك النوبة حتى مدينة ابريم ونهبها وأسر أهلها واستولى عليها ولكن أحد أفراد أسرة الكنوز الذى كان يحكم أسوان استبد بالحكم وعصى السلطان ووصل فى تهديده حتى مدينة قوص فأرسل اليه صلاح الدين أخوه الملك العادل وقتله فى تلك الحرب [1] .

(١) المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك — نشرة محمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٣٩ الجزء الأول قسم أول ص ٥٧

كذلك اعتدى ملك النوبة فى نفس العهد على عيذاب وأرض أسوان مرة أخرى وهدد الطريق التجارى بينهما ولذلك أخذ سلاطين مصر يوطدون العزم على الاستيلاء على أرض النوبة جنوب أسوان وادخالها ضمن الأراضى المصرية حتى لا يكثر تهديد مصر من تلك الناحية .

وقد استمر تهديد الكنوز واتحادهم مع عربان الصحراء أو مع ملك النوبة للطريق التجارى ولمدينة أسوان عهدا طويلا شغل كثيرا من وقت وجهد حكام مصر لدرجة أن أسوان فى عهد من العهود كانت بدون حكام أو محافظين حوالى (١٤٠٣ م) حتى استولى السلطان سليم على الديار المصرية فكثرت بها الأحزاب والفتن وأصبحت أسوان ملجأ للعصاه يحاربون منها الحكومة واستمر حال أسوان هكذا حتى استولى محمد على على مصر فأدخل تلك المناطق فى حوزة الأراضى المصرية وحقق حلم سلاطين الأيوبيين وانقطعت الفتن واستتب الأمن فى تلك المناطق .

وأخذت المدينة تنمو واستردت مركزها الطبيعى وأهميتها التجارية اذ أصبحت مركز الصلات بين الصحراء وبلاد النوبة والسودان .

ولم تقتصر أهمية موقع أسوان على حراسة المدخل الجنوبى لمصر وانما كانت فى عهد محمد على مركزا لتدريب فرق المماليك [١] على استعمال السلاح وعلى النظم العسكرية الحديثة . وحذا عظماء مصر حذوه وأرسلوا مماليكم الى أسوان للتدريب .

ولذلك شيدت فى أسوان أربع ثكنات كبيرة ومدرسة ولما فكر محمد على فى عمل جيشه من المصريين جعل هؤلاء الجنود الذين دربوا فى أسوان ضباطا لفرق الجيش المصرى .

وهكذا بقيت أسوان مدينة بعيدة عن أرض الوادى حارسه لمدخله الجنوبى حتى انتفضت انتفاضتها الكبرى ببناء سدها العالى فاكسبها وظيفة جديدة ودخلت التاريخ المصرى الحديث بجدارة وعزم أكيد فازدادت أهميتها الجغرافية هذه المرة زيادة كبرى وصارت مبعث ضوء يفيض على الوادى كله بنوره العظيم .

---

(١) الأمير عمر طوسون ــ صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ــ القاهرة ١٣٥٩ هـ/١٩٤٠ م ص ٤

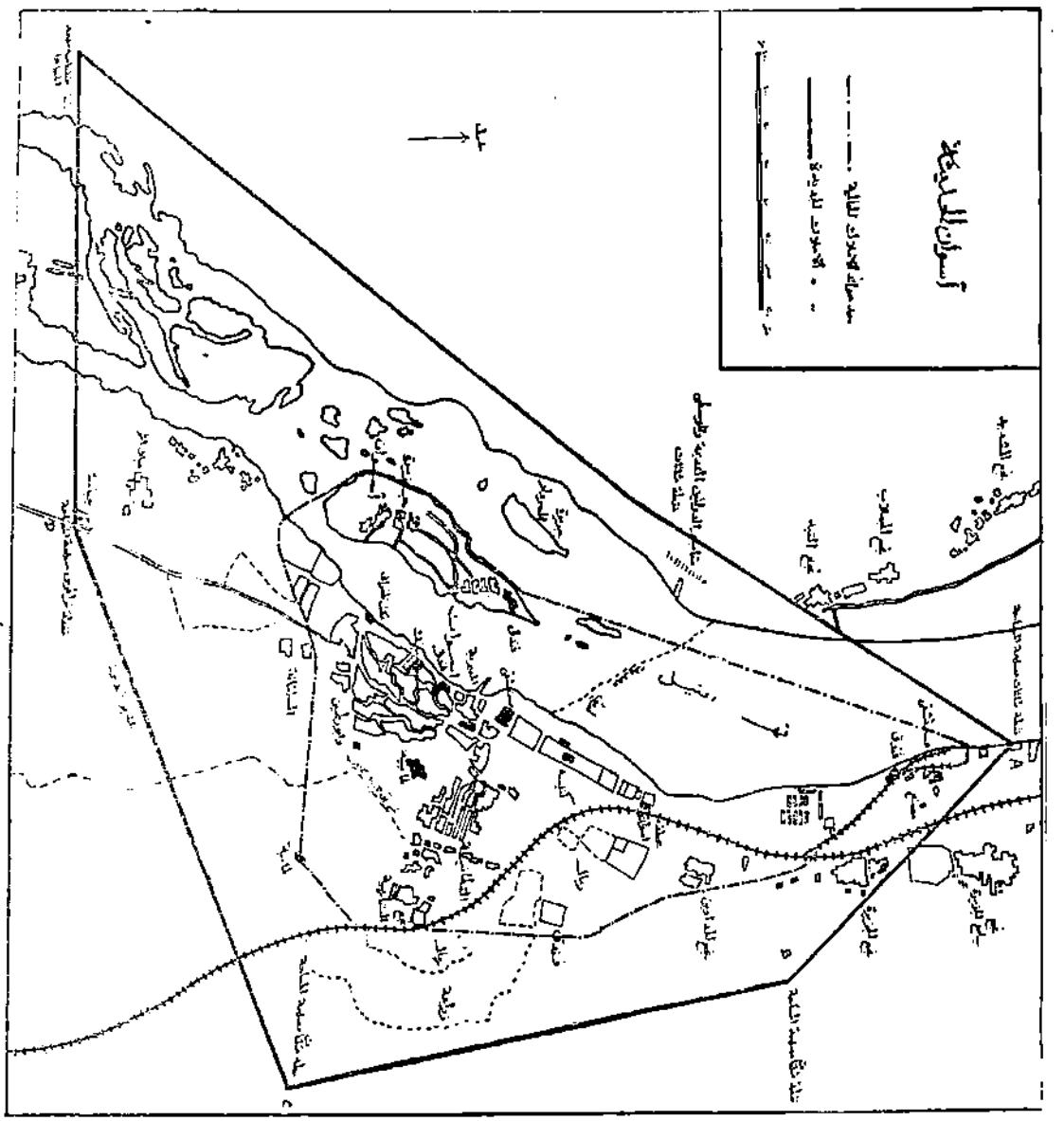
أسوان الحديثة
حدود الأحياء
الطرق الرئيسية
شمال

المراجـــع

المراجع العربية :

١ ـ ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ ـ ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله
« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . القاهرة ١٩٥٨ ـ الجزء الأول .

٢ ـ ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » . الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م .

٣ ـ ابن جبير : (٦١٤ هـ ـ ١٢٨٧ م)
« رحلة ابن جبير » تحقيق د. حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ م .

٤ ـ ابن خلدون : (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد
« مقدمة ابن خلدون » بيروت ١٩٠٠ م

٥ ـ ابن منظور الأفريقى المصرى : (١٣١١ م) جمال الدين أبو الفضائل محمد ابن مكرم بن على
« لسان العرب » طبعة بيروت ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م

٦ ـ ابو محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى :
(سيرة أحمد بن طولون) تحقيق محمد كرد على ـ مطبعة الترقى دمشق سنة ١٣٥٨ هـ .

٧ ـ احمد كمال :
« الحضارة القديمة » محاضرات نشرت فى مجلة الجامعة المصرية بالقـــاهرة (بدون تاريخ) .

٨ ـ بتلر : « فتح العرب لمصر » .
ترجمة محمد فريد أبو حديد ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م

٩ ـ جمال الدين الشيال (دكتور)
« الاسكندرية » طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ـ القاهرة طبع دار المعارف (بدون تاريخ) ص ٢٠٩

١٠ ـ الزبيدى :
« الامام محب الدين ابى الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى الحنفى » .
« قاموس تاج العروس » القاهرة ١٣٠٦ هـ

١١ ـ السيوطى :
« جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر » (١٦٠٥ م)
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » القاهرة ١٣٢٧ هـ

١٢ ــ الظاهرى :
غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى
« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » . طبعة باريس ١٨٩٤ م

١٣ ــ على ابراهيم حسن (دكتور) :
« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » القاهرة ١٩٤٧ م

١٤ ــ على باشا مبارك :
« الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٥ هـ

١٥ ــ عمر طوسون (الأمير) :
« صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على » القاهرة ١٣٥٩ هـ ــ ١٩٤٠م

١٦ ــ القلقشندى : (٨٢١ هـ ــ ١٤١٨ م أبو العباس أحمد)
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » القاهرة ١٣٣١ هـ ــ ١٩١٣ م

١٧ ــ محمد عواد حسين (الدكتور) : عبد اللطيف أحمد على (الدكتور) :
« مصر من الاسكندرية حتى الفتح العربى » القاهرة ١٩٥٤ م

١٨ ــ المسعودى : ابوالحسن على بن الحسين (١٩٥٦ م)
« التنبيه والأشراف » نشرة دى جوية ليدن ١٨٩٤

١٩ ــ المقدسى : أبو عبد الله محمد بن أحمد (الف ٩٨٥ م)
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » نشرة دى جوية ــ ليدن ١٩٠٦

٢٠ ــ المقريزى : (٨٤٥ هـ ــ ١٤٤١ م) تقى الدين احمد بن على
« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ

٢١ ــ المقريزى :
« السلوك لمعرفة دول الملوك » نشرة محمد مصطفى زيادة ــ القاهرة ١٩٣٩

٢٢ ــ نجيب ميخائيل ابراهيم (دكتور) :
« مصر والشرق الادنى القديم » الجزء الأول ــ اسكندرية ١٩٦٢

٢٣ ــ نجيب ميخائيل ابراهيم (دكتور) :
« مصر والشرق الأدنى القديم » الجزء الثانى طبعة ٣ اسكندرية ١٩٦٢

٢٤ ــ ياقوت (٢٢٦ هـ ــ ١٢٢٩ م) :
الامام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى البغدادى .
« معجم البلدان » طبعة اولى القاهرة ١٣٢٣ هـ ــ ١٩٠٦ م

المراجع الأجنبية :

25 — Bruce : (T)
Voyage aux sourcesdu Nil, en Nubie et en Abyssinie
Paris 1790. (Traduit de l'anglais par J. H. Castera).

26 — Budge (E.A.W.) :
The Nile. Caire 1901.

27 – Charlesworth :

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, cambridge 1926.

28 — Ebers (G) :

Egypt, Deseriptive, Historical and Pictureseque. translated from the original german by clara bell, London, Paris, New York, 1879.

29 — Gautier (M.H.) :

Précis de l'Histoire d'Egypte, le Caire 1932.

30 — Hanotaux (g) :

Histoire de la nation Egyptienne, Pairs 1931 - 1936.

31 — Jamard (E.) :

Description de syéne et de cataractes, Description de l'Egypte, Paris 1821.

32 – Lane Poole :

A History of Egypt, London 1901.

33 -- Lapiérre (B.) :

Precis de l'Histoire d'Egypte,
Premiére partie, l'Egypte préhistorique, le Caire 1932.

34 — Louis (A. Christophe) :

La Nubie et le tropique de cancer hulletin de la société de geographie T. XXXIV le Caire 1961.

35 — Mazuel (Jean) :

L'Ocuvre de linant de bellefonds, le Caire 1937.

36 — Munier (H), et Wiet (g) :

L'Egypte Byzantine et Musulmane, Precis. de l'Histoire d'Egypte par divers Historiens et Archéologues, le Caire 1932.

37 - Norden (F.L.) :

Voyage d'Egypte et de Nubie, Paris 1798.

38 — Pliny :

The Natural History of pliny. (Translated by : Bostock (J.) and Riley (H.T.) London 1855, Vol. I.

39 — Porter (B) and Moss (R.) :

Topographical hibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, Oxford 1937.

40 — Quatremére (ET) :

Memoires geographiques et Historiques sur l'Egypte et sur Quelques Contrées Voisines, Paris 1811.

41 — Strabo :

The geography of strabo, translated by : (H. C. Hamilton) and (W. Falconer) London 1889. V. III.

42 — Wiet (g.) :

Un Resumé d'idrisi, Bulletin de la société Royale d'Egypte, Juin 1939.

43 — Yossouf Kamal :

Monumenta Cartographica Africae et (Aegypti) T. I. et III.

التوافق النفسى للطالبة الجامعية

وعلاقته بمجموعة من المتغيرات

للدكتورة منيرة حلمى

مقـــدمة

يهدف هذا البحث الى دراسة شخصية الطالبة الجامعية فى كلية البنات ، من حيث توافق هذه الشخصية ونوع المشكلات التى تعوق هذا التوافق فى النواحى التالية من حياتها :

أولا : فى حياتها المنزلية ، وما تتسم به علاقاتها بأبويها وبأخواتها فى الأسرة ، ثم ما تتسم به استجاباتها لظروف الأسرة الاجتماعية والاقتصادية وموقفها من علاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض .

ثانيا : فى حالتها الصحية ، وما يعوق توافقها من نقص جسمى أو أمراض ، أو ظواهر صحية تحول بينها وبين أداء عملها الدراسى ونشاطها الاجتماعى .

ثالثا : فى حياتها الاجتماعية ، وما يعوق توافقها من أسباب تتصل بعلاقتها بالجماعة التى تعيش فيها أو الجماعة التى تستجد عليها ، ثم ما يعوق هذا التوافق فى طرق استجابتها للمواقف الاجتماعية المختلفة .

رابعا : فى حياتها الانفعاليـــة ، وما يعوق توافقها من مواقف تثير غضبها أو أوهام تثيرقلقها وما تتبعه من طرق فى استجاباتها للمواقف الانفعالية المختلفة .

كذلك يهدف هذا البحث الى دراسة بعض العوامل التى تؤثر أو تتأثر بتوافق الطالبة . من هذه العوامل ما هو خاص بالنظام الدراسى مثل المستويات الدراسية الأولى والثانية والثالثة ، ومثل الأقسام الأدبية والأقسام العلمية . وهدفنا من دراسة تأثير هذه العوامل هو تحديد حاجة الطالبة فى كل مستوى دراسى ، وفى كل قسم أدبى أو علمى ، الى الارشاد فى نواحى حياتها المختلفة ، وتوضيح

مشكلات التوافق التى تعانيها أمام المشرفين على الدراسة أو القائمين بالرياسة الطلابية فى كل مستوى دراسى وفى كل قسم من أقسام الكلية .

ومن هذه العوامل التى تؤثر أو تتأثر بتوافق الطالبة ، ما هو خاص بحياة الطالبة عموما ، فى أسرتها ، وفى ظروفها المعيشية ، وما هو خاص بتكوينها الشخصى وقدراتها العقلية مثل الذكاء والتحصيل .

لذلك رأينا أن يتضمن هذا البحث تحديد العلاقة بين توافق الطالبة وبين مجموعة من المتغيرات افترضنا وجود علاقة بينها وبين توافق الطالبة فى نواحى حياتها التى ذكرناها . هذه التغيرات هى :

أولا ـ المستوى الدراسى للطالبة :

١ ـ التوافق عند طالبات السنة الأولى .
هل يتأثر بكونهن مستجدات فى الجامعة ؟
٢ ـ هل التوافق عند طالبات السنة الثانية .
هل يختلف عن توافق طالبات السنة الأولى ؟
٣ ـ التوافق عند طالبات السنة الثالثة .
هل يختلف عن توافق طالبات السنة الثانية ؟

ثانيا ـ نوع الدراسة التى تتخصص فيها الطالبة :

١ ـ الدرسات الأدبية والانسانية .
٢ ـ الدراسات العلمية .

ثالثا ـ التحصيل الدراسى للطالبة :

كما تمثله درجتها فى امتحان الشهادة الثانوية العامة .

رابعا ـ ذكاء الطالبة :

كما يقيسه اختبار الذكاء الثانوى للقبانى .

خامسا ـ ظروف أسرة الطالبة من حيث :

١ ـ عدد الأبناء .
٢ ـ ترتيب الطالبة بين أخواتها فى الأسرة .

سادسا ـ ظروف الطالبة المعيشية من حيث :

١ ـ الاقامة فى القاهرة .

٢ ـ الاقامة فى الأقاليم مع التحاق الطالبة بالمدينة الجامعية ؟

ولا يفوتنى وأنا أعرض أهداف هذا البحث ، أن أذكر هدفا قصدت اليه حين اخترت اختبار التوافق لطلاب وطالبات المدارس الثانوية والجامعات ليكون وسيلة هذا البحث . فقد كنت فى اختبارى هذا أهدف الى التحقق من صلاحية هذا الاختبار للاستعمال فى مجتمعنا العربى ، بعد أن عربه وأعده لذلك الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى ، وقد قمت بدراسات لتحقيق هذا الهدف ، عرضتها فى الفصل الثانى من هذا البحث .

فاذا انتقلنا الى الهدف العملى لهذا البحث ، وجدت أنه بتحديده لمشكلات التوافق عند طالبات الكلية فى كل المستويات الدراسية وفى الأقسام المختلفة ، عند طالبات الكلية المقيمات فى القاهرة وعند طالبات الكلية المقيمات بالمدينة الجامعية ، وجدت أن هذا البحث بتحديده لهذه المشكلات يمهد الطريق لرسم خطة برنامج ارشادى لطالبات الكلية يتفق وحاجاتهن المعيشية والشخصية والاجتماعية ، ويساعد رواد الطلاب من الأساتذة ، والقائمين برعاية الشباب على تفهم مشكلات الطالبات وحاجاتهن النفسية .

اننى اذ أقدم هذا البحث الى الكلية التى عملت بها منذ تخرجى ، انما أرد اليها جزءا من علم ساعدتنى على تعلمه ، وجانبا من رعاية احاطتنى بها .

الفصل الأول

فكرة التوافق

أخذت فكرة التوافق فى الأصل من علم الحياة . ويعبر عنها هذا العلم بلفظ التكيف أو التأقلم . فالكائنات التى تستطيع أن تتأقلم للظروف الطبيعية هى التى تستطيع أن تعيش وتبقى . والانسان ، شأنه شأن سائر الكائنات الحية ، يتأقلم هو الآخر لظروف الطبيعة . يساير هذه الظروف فى ملبسه ومسكنه ، ويستغلها لخدمته . لكن الانسان يتأقلم فوق ذلك للظروف الاجتماعية ، فيكيف نفسه للمطالب التى تنشأ فى حياته بسبب تداخل هذه الحياة مع حياة الآخرين . فهو فى طفولته يطالبه الآباء بأن يسلك سلوكا معينا ، وفى شبابه يطالبه أساتذته وأصدقاؤه بمطالب معينة ، وهو بعد ذلك تواجهه مطالب رؤسائه فى العمل ، وزوجته فى البيت وهكذا لا تنتهى المطالب الاجتماعية التى يطالب بها الفرد ، وكلها تمثل ضغوطا شديدة فى حياته ، أين هى من ضغوط البيئة الطبيعية التى يعرف حدودها ، والتى يستطيع ، فى معظم الأحيان ، أن يتنبأ بثباتها أو بتغيرها ؟

ولما استمد علماء النفس فكرة التأقلم هذه من علم الحياة ، أطلقوا عليها لفظ « التوافق » . وواضح أن ما يهم عالم النفس فى دراسته للتوافق ، هو البقاء النفسى أو التكامل النفسى . وكما هو الحال فى عملية التأقلم الحيوى لظروف البيئة الطبيعية من حيث تواصل هذه العملية واستمرارها يكون توافق النفس مع مطلب البيئة الاجتماعية . فنجد أن سلوك الانسان عملية متواصلة من التوافق مع مطالب الحياة ، تلك المطالب التى تكون فى أساسها مطالب اجتماعية تؤثر على التكوين النفسى للفرد وعلى فاعليته تأثيرا كبيرا ، بحيث تصبح ــ هذه المطالب ــ مطالب نفسية شخصية فى الوقت ذاته .

هذه المطالب النفسية ، أو الحاجات النفسية ، التى تواجه كل فرد منا يمكن أن تصنف الى مطالب أو حاجات خارجية ، ومطالب أو حاجات داخلية .

أما المطالب الخارجية فهى مطالب المجتمع من حولنا ، ابتداء من مجتمع الأسرة ونحن أطفال . وتسمى استجابة الفرد منا لهذه المطالب ، وتوفيقه بينها وبين مطالبه الشخصية الخاصة ، عملية تحول الى الصورة الاجتماعية ؟

وأما المطالب أو الحاجات الداخلية فمعظمها جسمى حيوى ، لكن المجتمع يطالبنا بأن نستجيب لها بطرق معينة . ومع النمو والتقدم فى العمر يشعر الفرد بحاجات داخلية أخرى لكنها تكون اجتماعية أكثر منها جسمية . يحتاج لصحبة الغير مثلا ، يحتاج للحب للاستحسان ، وهذه الحاجات ، شأنها شأن الحاجات الجسمية تدفع الشخص لسلوك معين ، كما أن احباطها يؤدى الى الشعور بالضيق وفقدان الراحة النفسية .

ويسير الشخص فى حياته عادة بحيث يمكنه أن يشبع أكبر قدر ممكن من حاجاته الداخلية ، وخاصة القوى الملح منها . وهو كذلك يستجيب للضغوط الخارجية بالقضاء عليها أو بتعديلها ، أو بالتكيف لها بطريقة من الطرق . ولذلك يتضمن جانب هام من جوانب التكوين البشرى تعلم طرق التحكم فى هذه الحاجات وتنظيم اشباعها اشباعا مرضيا ، سواء كانت هذه الحاجات داخلية أو خارجية .

صراع الحاجات ومشكلات التوافق :

ولا يتكفل الشخص بتنظيم اشباع حاجاته فحسب ، بل هو قد يتعرض لصراع بين هذه الحاجات . وفى هذه الحالة تنشأ مشكلات التوافق لديه ويصبح عليه أن يحل هذا الصراع ، وأن يتعلم كيف يواجه المواقف التى تتصارع فيها حاجاته كلما تعرض لمثل هذه المواقف .

وصراع الحاجات النفسية ينشأ اذا تعارض اشباع حاجة مع اشباع حاجة أخرى ، بحيث يؤدى اشباع الحاجة الأولى الى احباط الحاجة الثانية . هذه الحاجة الأولى قد تكون حاجة داخلية تتصارع مع حاجة داخلية كذلك . فمثلا قد يحتاج الشخص لبلوغ مكانة اجتماعية مرموقة ، لكنه فى الوقت نفسه يحتاج للحب والاستحسان . ولا يمكن اشباع الحاجة للمكانة الاجتماعية بغير تنافس مع الغير ، والتنافس مع الغير يبطل حبهم له ، فهو اذا حقق المكانة قد يخسر الحب .

وقد يكون الصراع بين حاجة خارجية ، وحاجة أخرى خارجية مثلها . وأقرب الأمثلة الى ذلك مثل الحمار ، اذا ركب حماره وترك زوجه وولده يقطعان الطريق على الأقدام ، انتقده الناس لاهماله زوجه وولده . واذا سار هو على قدميه وركبت الزوج وولدها ، انتقده الناس ، لأنه لا يتصرف كسيد للأسرة . فاذا ركبوا جميعا رماه الناس بالقسوة على الحمار .

ونوع ثالث من المواقف يكون الصراع فيه بين حاجات داخلية وبين حاجات خارجية . مثل هذا الموقف يتكرر كثيرا فى حياة الطفل والمراهق . ويصاحب النمو الاجتماعى لكل منهما . فكثير من حاجات الطفل الداخلية لا يستطيع اشباعها لأنها لا تلقى الاستحسان من المجتمع حوله . كما أن كثيرا من حاجات المراهق الداخلية تلقى احباطا لأنها تصطدم بالتقاليد والنظم السائدة فى المجتمع ، وهو يحتاج لمسايرة هذه التقاليد ولاتباع تلك النظم ، لأنه يحتاج لتقبل المجتمع له ولرضاه عنه .

***

يدرس التوافق النفسى من ناحيتين :

أولا : من حيث هو عملية سلوكية تؤدى الى التكيف . فالشخص وهو يسير نحو تحقيق التوافق يسلك سلوكا معينا ، يواجه به حاجاته الداخلية وحاجاته الخارجية ، ويقضى به على تصارع هذه الحاجات ، اذا نشأ هذا التصارع . والعملية السلوكية التى يقوم بها الشخص فى مواجهة هذه الحاجات ، وفى مواجهة تصارعها ، هى العملية التى تحقق له التوافق النفسى فى النهاية .

ودراسة التوافق من حيث هو عملية سلوكية تقتضى أن ندرس الطرق المختلفة التى يسلكها الشخص لمواجهة المطالب المتنوعة التى تلح عليه ، والصعاب المختلفة التى تعترض حياته . كما تقتضى أن ندرس المهارات التى يساعد توفرها عند الشخص فى تيسير عملية توافقه الشخصى .

ثانيا : من حيث هو تحصيل أو انجاز ، أى أن الشخص يتعلمه ، بمعنى أنه يتعلم منذ طفولته طرقا معينة للاستجابة فى مواقف معينة . ويكون توافقه هو

حصيلة هذا التعلم ، يتعلم طرقا سليمة فيكون حسن التوافق ، ويتعلم طرقا غير سليمة فيكون سيىء التوافق .

ودراسة التوافق من هذه الناحية توجب على الدارسين أن يضعوا المعايير المناسبة لتقييم توافق الشخص كلما احتاج الأمر لتقييمه ، اذا كان سيعهد اليه بعمل هام مثلا ، أو اذا أردنا أن نتنبأ بنجاحه فى موقف معين ، فى دراسة أو فى مهمة أو غير ذلك .

ونتناول فما يلى التوافق من حيث هو عملية سلوكية تؤدى الى التكيف ، فنجد أن الشخص حينما يتعرض لصراع بين حاجات نفسية داخلية وبين مطالب خارجية ، يتكيف للموقف بطريقة من طريقتين ، أولاهما : أن يعدل الحاجة الداخلية أو يكبتها . وثانيتهما : أن يحاول تغيير مطالب البيئة الخارجية . وتكون النتيجة فى كلتا الحالتين هى حل الصراع الذى نشأ عنده بين حاجاته النفسية الداخلية ، وبين مطالب البيئة الخارجية .

هاتان الطريقتان فى مواجهة الصراع وفى التكيف للموقف قد تبينهما كثير من علماء النفس ، وخاصة أولئك الذين اهتموا بدراسة السلوك التكيفى — فنجد بياجية مثلا يستعمل لفظ « تعديل النفس أو التأقلم accommodation » ليدل على تغيير الشخص لنفسه ، كما يستعمل لفظ « تشرب الخارج أو تمثيل الخارج assimilation » ليدل على تغيير الشخص لبيئته[1] .

وكلتا الطريقتين ، طريقة تعديل النفس وطريقة تشرب الخارج — تؤديان فى النهاية الى حل الصراع . لكن الذين اهتموا بدراسة السلوك التكيفى من علماء النفس يقررون أنه كلما ارتقى النوع لجأ الكائن الحى الى تعديل الخارج بدلا من تعديل النفس ، وأن تعديل النفس أكثر بدائية . فالحيوانات الدنيا تعدل نفسها أكثر مما تغير البيئة . أما الانسان فأقدر على تغيير البيئة . كما أنه فى مقدوره أن يلجأ للطريقتين لكى يتم له التوافق الناجح . لأن الالتجاء الى طريقة واحدة فى التكيف ، والاعتماد عليها اعتمادا تاما دون الأخرى قد يؤدى الى سوء التوافق،

(١) Piaget, J. The Origins of Lutelligence in children. New York : Interuational Universities Press, 1952.

سواء كان الاعتماد على طريقة تغيير البيئة الخارجية أو كان هذا الاعتماد على تغيير الذات .

لقد تحول اتجاه الباحثين فى عملية التوافق فى السنوات الأخيرة من الاهتمام بالتأقلم وتغيير النفس ، الى الاهتمام بأقلمة البيئة للجو النفسى أى تغيير العالم الخارجى المحيط بالشخص . وكان الاهتمام بأقلمة النفس وتعديلها قد ساد قبل ذلك لفترة طويلة ، وظل المثل الأعلى لحسن التوافق هو تقبل العالم الاجتماعى الذى يحيط بالشخص والرضى عنه ومحاولة تغيير النفس والتكيف لهذا العالم الاجتماعى . ولقد حدث هذا التغيير فى وجهة النظر نحو عملية التوافق ، والانتقال من وجهة النظر التى ترى أن هذه العملية عملية تأقلم الى وجهة النظر الأخرى الآخذة بأن عملية التوافق عملية أقلمة للبيئة الخارجية ، حدث هذا التغيير فى الوقت الذىاتجه فيه رأى المعالجين النفسيين الى القول بأن الصحه النفسية سعى ايجابى ، ووضعت معايير كثيرة للصحة النفسية بهذا المعنى ، مثل تقبل الذات ، وتحقيق الذات ، والسيطرة على الظروف البيئية وغير ذلك من المعايير .

عملية التوافق اذا عملية أقلمة للبيئة الخارجية ، وتأثير فى المحيط الاجتماعى ، وتغيير فى العالم الخارجى . فما هى المهارات التى اذا توفرت للشخص سهل عليه آداء عملية التوافق بهذا المعنى أداء ناجحا ؟

لقد أبرز كثير من الكتاب فى هذا الصدد فكرة الكفاية الاجتماعية أو المهارة فى تكوين العلاقات الشخصية . وهم لا يعنون بذلك أن هناك صفات معينة ، أو طرق استجابة معينة تميز بين الشخص الأكثر كفاية وبين الشخص الأقل كفاية فى توافقه . وانما هم يعنون أن هناك سمات معينة تظهر وتعمل فى ظروف كثيرة وأن هذه السمات هى التى تميز شخصا ما وتجعله فعالا مجيدا للسيطرة على نمط العلاقات الشخصية . مثل هذا الشخص يكون أكثر مقدرة على تحقيق أهدافه وعلى تحقيق ذاته ، وعلى اشباع حاجاته فى مختلف الظروف .

وقد اقترح فوت Foote وكترل Cottrell[1] اصطلاح المهارة فى العلاقات الشخصية interpersonal competence ليدل على تلك المهـــارات الاجتماعية

---

(١) Foote, N. N. & L. Cottrell. Identity and Interpersonal Competeuce Chicago : University of Chicago Press, 1955.

العسيرة الفهم التى تكفل للفرد السيطرة على شئون علاقاته بالأشخاص الآخرين، والتى تزيد من فرص النمو الشخصى الناجح فى اتجاهات يختارها الشخص لنفسه .

وقد أشار الباحثان السابقا الذكر الى أن الأشخاص يختلفون اختلافا كبيرا فيما بينهم من حيث قدرتهم على التعامل مع الآخرين . ورأيا أن هذه المهارة فى العلاقات الشخصية تعتمد على العمليات المميزة للجنس البشرى وحده ، وهى عمليات تتعلق بالجوانب المرجأة من فعل وذاكرة وأحلام وبصيرة وفكر فطرى وخيال ، وكلها وسائل يصطنعها الانسان منذ مولده وعلى طول حياته لتعينه على الفكاك من قيود البيئة المحيطة المباشرة ، ليتسنى له بذلك أن يأخذ بعدئذ فى فرض سيطرته على تلك البيئة نفسها . ان التحرر من الدوافع الملحة والمنبهات الخارجية التى تستجيب لها الحيوانات الدنيا ، يمكن الانسان من تشكيل محيطه بما يخططه له وما يبدعه فيه ، وأن يكون له ماضى وله مستقبل . هذا الانتزاع للنفس من الموقف الحاضر يمكن الانسان من أن يحقق هويته كشخص بالغ ناضج . والشخص ذو المهارة فى العلاقات الشخصية يكون أكثر قدرة على تحقيق هذا الانتزاع لنفسه من الموقف الحاضر ، وأكثر قدرة على أن يكون لنفسه قيما خاصة به .

ان الصعوبة فى الأخذ بأفكار مثل الكفاية الاجتماعية أو المهارة فى العلاقات الشخصية ، ترجع الى أن مثل هذه الأفكار تبدو غامضة غير محددة بالنسبة العمليات المعينة التى تكون هذه المهارة أو تلك الكفاية . فما هى العمليات أو الصفات التى يمكن قياسها والتى تتضمنها هذه المهارة أو تلك ؟ من الواضح أن مثل هذه المهارة لا يمكن أن تتعلم ، لأنهـــا لا تتضمن سلوكا معينا محددا ، وانما هى تتضمن مجموعة متنوعة من الأفعال التى قد تتغير من ظرف لآخر .

ومع ذلك فقد بذلت محاولات كثيرة لجعل فكرة المهارة فى العلاقات الشخصية أو الكفاية الاجتماعية ذات معنى وذات فائدة عملية . وقد تم ذلك بتعيين العمليات التى تميز الشخص صاحب المهارة من الشخص عديم المهارة ، بصرف النظر عن الثقافة المعينة أو الظروف الخاصة التى يعيش فيها الشخص .

وقد اقترح كل من فوت وكترل ست مكونات للمهارة فى العلاقات الشخصية هى : الصحة ، الذكاء ، التوحد الوجدانى ، التسيير الذاتى ، القدرة على الحكم ، والخلق أو الابداع .

وعلى الرغم من أن هذا التحليل للمهارة فى العلاقات الشخصية يبدو مقنعا ، الا أننا مازلنا لم نصل بعد الى توضيح العمليات المرتبطة بفكرة المهارة فى العلاقات الشخصية فنحن ما زلنا فى حاجة للكثير من التفكير والبحث لتقييم هذه الفكرة ، ولتوضيح الصفات النوعية للمهارة فى العلاقات الشخصية ولتحديد هذه الصفات حتى نستطيع أن نسهم اسهاما بناء فى توجيه المجتمع نحو الصحة النفسية . وكم نحن فى حاجة الى مثل هذا التوجيه فى مجتمعنا المتطور النامى .

وفى هذا البحث محاولة لدراسة التوافق الصحى والتوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى عند الطالبة الجامعية فى كلية البنات ، وكلها تتضمن الكثير من مكونات المهارة فى العلاقات الشخصية ، تلك المكونات التى ذكرها « فوت » و « كترل » لكننا ندرس التوافق فى هذا البحث بقياسه على مقياس وضع ليقيس التوافق النفسى بعد أن حدد معايير معينة لهذا التوافق ومع ذلك فلم يفتنا أن ندرس بعض العوامل التى قد تؤثر فى هذا التوافق ، فقد درسنا مثلا العلاقة بين توافق الطالبة وبين ذكائها . والذكاء كما بينا عامل من العوامل المكونة للمهارة فى العلاقات الشخصية كما يرى « فوت » و « كترل » كذلك درسنا العلاقة بين التوافق الكلى للطالبة وبين توافقها الصحى ، وغير ذلك من العوامل التى يعدها الباحثون من مكونات المهارة التى تساعد الشخص على تحصيل التوافق الجيد ، لعلنا بذلك نستطيع أن نلقى بعض الضوء على عملية التوافق ، وان كانت هذه العملية فى حد ذاتها ليست الغرض الأساسى للبحث ، وانما غرض البحث كما بيننا من قبل هو دراسة التوافق النفسى عند الطالبة الجامعية فى كلية البنات ، وعلاقة هذا التوافق بمجموعة من المتغيرات التى قد تكون ذات تأثير عليه .

بحثنا ، اذا ، يتناول التوافق من حيث هو تحصيل أو حصيلة تعلم وان كان قد يساعد فى فهم عملية التوافق . وهذا يسوقنا الى الانتقال لتناول فكرة التوافق من حيث هو تحصيل .

التوافق من حيث هو تحصيل :

قلنا ان التوافق يتضمن استجابة الشخص لحاجات نفسية تلح عليه أو لمطالب يطالب بها سواء كانت هذه الحاجات أو المطالب داخلية أو خارجية . فالتوافق من حيث هو استجابة لموقف معين يمكن أن ننظر اليه على أنه تحصيل أو تعلم يكتسب فيه الشخص طرقا معينة للاستجابة فى مختلف المواقف . وقد يكون تعلم

الشخص فى هذه الحالة تعلما لطرق سليمة فى الاستجابة ، وقد يكون تعلمه تعلما لطرق غير سليمة ، ونحن لذلك يجب أن نقوم بتقييم توافق الشخص لنحكم على طرق التوافق التى تعلمها . هذا التقييم يتهيأ لنا بمقارنة السلوك التوافقى للشخص فى المواقف المختلفة بسلوك اتفق على أنه سلوك توافقى سليم فى مثل هذه المواقف . ومن هنا كانت حاجتنا الى وضع معايير تقيس كفاية التوافق .

معايير كفاية التوافق :

فكر كثير من المهتمين بدراسة الشخصية وتوافقها فى وضع معايير يقيسون بها كفاية التوافق . وكانوا جميعا يتفقون فى النهاية من حيث مضمون هذه المعايير وان اختلفوا من حيث التعبير عنها أو من حيث صياغتها صياغة اجرائية توضح طريقة تطبيقها . ونذكر فيما يلى نموذجين من محاولات عملت لتحديد معايير كفاية التوافق .

فى محاولة حاولها لازاروس Lazarus[1] لوضع معايير لتقييم كفاية التوافق ، نجده يذكر أربعة أنواع رئيسية من المعايير هى :

أولا : الراحة النفسية : فهو يرى أن احدى العلامات الدالة على سوء التوافق هى أن يكون الشخص غير مرتاح النفس . ويذكر من أمثلة عدم الارتياح حالات الاكتئاب أو الانقباض والقلق المزمن أو الحاد ، والشعور القاهر بالذنب ، والخوف من المرض أو الموت . فهذه الحالات اذا عاناها الشخص فى معظم أوقاته واذا كانت من الشدة بحيث تجعله منقبضا يائسا ، كان ذلك دليلا على عدم كفاية التوافق عنده .

ثانيا : الكفاية فى العمل : فمن العلامات الدالة على وجود صعوبات تحول بين الشخص وبين التوافق السوى ، هى عجز الشخص عن استغلال استعداداته أومهاراته المهنية والاجتماعية استغلالا تاما . وقد يكون الشخص فاشلا فى دراسته أو ضعيف الانتاج فى عمله بسبب سوء توافقه . فمستواه الدراسى ، أو انتاجه يكون أقل مما تتنبأ به قدراته . وهو فى معظم الأحيان يكون غير متبين لأنه يعمل عملا دون مستواه وقد يعانى صعوبة فى فهم أسباب فشله دراسيا أو مهنيا

---

(١) Lazarus, R. S. Adjustment and Personality. Mcgraw — Hill — New York 1961.

أو اجتماعيا ، اذا لم يتهيأ له مقابلة اخصائى نفسى يساعده على تبين سوء توافقه والعمل فى سبيل التغلب عليه .

ثالثا : الأعراض الجسمية : اذ يحدث أحيانا أن يكون الدليل الوحيد على وجود نقص فى التوافق هو اصابة عضو من أعضاء الجسم . وقد نشأ الطب النفسى الجسمى (السيكسوماتى) بعد أن اتضح للأطباء أن الاصابة الجسمية يمكن أن تحدث بسبب سوء توافق نفسى . فاضطرابات الهضم مثلا من الأعراض الشائعة التى تظهر بها صعوبات التوافق .

رابعا : التقبل الاجتماعى : فمن أدلة كفاية التوافق أن تكون الصورة التى يتخذها توافق الشخص مقبولة اجتماعيا . أى أن يكون سلوكه التوافقى سلوكا مشروعا يقره المجتمع الذى يعيش فيه . لأن الشخص الذى تؤدى عمليات توافقه الى سلوك ينبذه المجتمع الذى يعيش فيه يكون محل نقد المجتمع ونبذه ، وبالتالى لا تتوفر له كفاية التوافق الاجتماعى .

هذه هى الأنواع الرئيسية لمعايير كفاية التوافق عند لازاروس ، وهى فى مضمونها تتفق الى حد بعيد مع كثير من المعايير التى وضعها غيره من الدارسين للتوافق النفسى . الا أننا حين نحاول تطبيق هذه المعايير نصادف صعوبات كثيرة تعترض سبيل هذا التطبيق .

فمن صعوبات تطبيق هذه المعايير مثلا ، أن ما يكون مقبولا كطريقة للتوافق فى مجتمع من المجتمعات ، لا يكون مقبولا فى مجتمع آخر . كذلك قد يكون الشخص متوافقا توافقا جيدا بالنسبة لأحد هذه المعايير ، ويكون سيىء التوافق بالنسبة للمعيار الآخر . فقد يبدو الشخص فى تمام الراحة النفسية مع أنه بالنسبة للحالة الصحية سيىء التوافق لدرجة خطيرة . وأصدق مثل لذلك حالة الهستيريا التحولية التى هى سوء توافق شديد يظهر فى صورة شلل لعضو من أعضاءالجسم ومع ذلك فان صاحب هذه الحالة قد يبدو فى راحة نفسية تامة .

كذلك من الصعوبات التى تعترض تطبيق هذه المعايير عدم وجود حد واضح معين نحكم عنده بكفاية التوافق . بالنسبة للمعيار الأول مثلا ، وهو معيار الراحة النفسية ، كيف نستطيع أن نحدد كفاية التوافق أو سوء التوافق ؟ الى أى حد

يجب أن يعانى الشخص من التعب النفسى لكى أحكم عليه بأنه سيىء التوافق ؟ وكم من الوقت يجب أن يعانى هذه الحالة من التعب النفسى حتى أستطيع أن أحكم عليه هذا الحكم ؟ وكذلك الحال بالنسبة لمعيار تقبل المجتمع . فالى أى حد يكون سلوك الشخص غير مقبول اجتماعيا حتى أحكم عليه بأنه سيىء التوافق ؟ والأمر كذلك بالنسبة لمعيار الأعراض الجسمية ، فأى درجة يبلغها العرض السيكسوماتى تعدها دليلا على الاضطراب فى التوافق ؟ وهكذا الحال بالنسبة لمعيار كفاية الانتاج . فالى أى حد يجب أن يكون الانتاج كافيا لكى أحكم بأن الشخص حسن التوافق .

لا بد اذا من وجود مستويات تقارن بها حالة الشخص فى كل واحد من المعايير الأربعة ، وأن تسمح هذه المستويات بمقارنة الشخص بغيره بحيث نقول ان درجة هذا الشخص تجعله متوسطا فى التوافق أو جيد التوافق بالنسبة لمجتمعه. لكن لما كانت مثل هذه المقاييس تقتضى مراعاة الظروف التى يعيش فيها الشخص والحالة المعينة لكل شخص ، مثلها فى ذلك مثل مقاييس التحصيل الدراسى ، التى لا نستطيع على أساسها وحدها أن نقارن بين شخصين اذ قد يكون أحدهما مستمتعا بقدرة عقلية كبيرة بينما الآخر لا يملك من هذه القدرة الا القليل . لأجل ذلك ظهرت الحاجة الى مقارنة الشخص بنفسه بدلا من مقارنته بالآخرين ، أوفوق مقارنته بالآخرين . فاذا كان الشخص فى بدء حياته ، مثلا ، قد استطاع أن يتحمل مسئولية عمل ذى خطورة فوق تحمله لمسئوليات اجتماعية أخرى ، لكنه الآن لا يستطيع أن يقوم الا بعمل يتطلب أقل ما يمكن من المهارة ومن تحمل المسئولية، فاننا نقول عن هذا الشخص أن توافقه قد ضعف بالنسبة اليه ، نقول هذا مهما كانت درجة توافقه بالنسبة لجماعته ، اذ قد تكون هذه الدرجة ما زالت على قدر من الكفاية بالنسبة لجماعته بحيث تجعله فى مستوى فوق المتوسط بين أفراد هذه الجماعة .

لذلك كانت مقارنة الشخص بنفسه فى الحكم على كفاية توافقه ذات أهمية كبيرة لمعرفة مدى تقدم الشخص وفعاليته ، وكانت بالاضافة الى طريقة مقارنة الشخص بغيره مما يقوى مقدرتنا على تطبيق معايير كفاية التوافق .

من الدراسات التى حاولت التوصل الى معايير لكفاية التوافق كذلك ،

تلك الدراسة المركزة التى قام بها « رالف تندال »[1] فى جامعة أهايو بالولايات المتحدة الأمريكية . فبعد استعراض معظم ما كتبه الباحثون عن التوافق ، حاول هذا الباحث أن يستخلص سبع معايير أو مميزات للتوافق ، مما اتفق معظم الباحثين للموضوع على أهميتها وقد نبه « تندال » الى أنه لم يجد فى كتابات هؤلاء الباحثين مايدل على أن هذه المميزات السبع مستقل الواحد منها عن الآخر، أو على أنها تمنع وجود مميزات أخرى . بل الأرجح عنده أن هذه المميزات تكمل بعضها البعض فى سلوك الأفراد الذين يحكم عليهم بأنهم متوافقون .

هذه المميزات السبع هى :

١ ــ تملك شخصية متكاملة : وهذا يتضمن تآزر حاجات الشخص وسلوكه الهادف ، وتفاعلها تفاعلا سهلا ومثمرا مع البيئة .

٢ ــ التمشى مع مطالب المجتمع ، مع التأكيد على الانسجام مع مثل الجماعة المحلية دون التنازل عن الحرية الفردية .

٣ ــ التكيف للظروف الواقعية ، وهومن مميزات القدرة على تحمل صعوبات راهنة من أجل تحصيل مكاسب فى السعى نحو أهداف بعيدة .

٤ ــ الاتساق مع النفس ، وهذه صفة تجعل التنبؤ بالسلوك ممكنا ، وتبشر بامكان قياس التوافق والاعتماد على هذا القياس .

٥ ــ النضج مع تقدم العمر : أى امكان مسايرة نضج الشخص ونموه لعمليات التوافق الأكثر تعقيدا التى تصاحب تقدم العمر .

٦ ــ اتخاذ النغمة الانفعالية الصحيحة ، أى أن يكون الشخص فى المواقف المفعمة بالانفعالات ، وسطا فى استجاباته للموقف ، لا منكمشا ممتنعا عن التعبير ، ولا غارقا فى استجاباته الانفعالية .

(١) Tindall, Ralph H : Relationships among Indices of Adjustment Status. Educational and Psychological Measurement. Vol. 15. Num 2. 1955.

٧ ــ الاسهام فى خدمة المجتمع بروح متفائلة وفعالية متزايدة . هذه الميزة تؤكد أن السلوك المتوافق يتعدى دائرة الأهداف الشخصية المحدودة .

هذه المعايير وغيرها مما لم يتسع المجال لذكره ، درسها بعض المهتمين بالقياس النفسى للشخصية ، وحللوها الى مواقف من مواقف الحياة اليومية ، ثم صاغوها فى صورة مقاييس تقيس توافق الشخصية ، وقد اخترنا أحد هذه المقاييس ، واعتمدنا عليه فى اجراء البحث الذى نعرض خطته فى الفصل التالى .

الفصل الثانى

خطة البحث

اولا : وسيلة البحث

اخترنا اختبار التوافق لطلاب وطالبات المدارس الثانوية والجامعات[1] ليكون وسيلة البحث التى تقيس بها توافق الطالبات . وقد اخترنا هذا الاختبار لعدة أسباب نذكرها فيما يلى :

اسباب تتعلق بتكوين الاختبار :

١ ــ ان هذا الاختبار ينفرد بين اختبارات الشخصية التى تقيس التوافق بأنه يقيس التوافق الكلى للشخصية وبالاضافة الى ذلك يقيس توافق الشخصية فى نواحى الحياة المتعددة ، فيقيس التوافق المنزلى والتوافق الصحى والتوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى ويعطى تقديرا خاصا مستقلا لكل نوع من أنواع هذه التوافقات .

٢ ــ ان هذا الاختبار حينما يقيس هذه التوافقات لا يضع نتيجة قياسه فى صورة صفات للشخصية مثل الاستقرار ، أو التوافق الانفعالى ، وانما هو يحدد درجة التوافق تحديدا كميا فى كل مجال من مجالات توافق الشخصية ، مما يسهل علينا معرفة أى مجال من هذه المجالات هو المسئول عن سوء التوافق الكلى عند الشخص .

٣ ــ ان توافق الشخص يحسب بعدد المشكلات التى يعانيها ، كلما زادت هذه المشكلات زاد سوء توافق الشخص . وتصوير سوء التوافق فى مشكلات على هذا الوجه من شأنه أن يوحى بطريقة علاج لسوء التوافق الذى يعانيه الشخص .

---

(١) Bell, Hugh M, The Adjustment Inventory, Stanford University Press. California.

نقله الى العربية د. محمد عثمان نجاتى ــ مكتبة الانجلو المصرية .

٤ — ان هذا الاختبار وضع لقياس توافق الأسوياء ، وأن الصورة التى اخترناها كوسيلة لهذا البحث ، هى الصورة التى خصصت لطلاب المدارس الثانوية والجامعات .

أسباب تتعلق بالغرض من البحث :

١ — هذا البحث يدرس توافق الطالبة الجامعية فى كلية البنات ، وعلاقة هذا التوافق بمجموعة من المتغيرات مثل الظروف الأسرية والظروف المعيشية وغير ذلك . وتكوين هذا الاختبار الذى يعطى تقديرا لتوافق الشخصية فى نواحى متعددة يساعد على تبين علاقة توافق الطالبة فى كل مجال من مجالات حياتها المختلفة بهذه المتغيرات . فمثلا حين ندرس علاقة ظروف الأسرة من حيث عدد ابنائها بتوافق الطالبة ، يهمنا أن نعرف تأثير هذه الظروف على التوافق المنزلى للطالبة بوجه خاص ، كما يهمنا أن نعرف تأثير هذه الظروف على سائر التوافقات الأخرى مثل التوافق الصحى والتوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى .

٢ — من أغراض هذا البحث أن نعرف أكثر نواحى حياة الطالبة تعرضا لسوء التوافق وأن نعالجها بالطرق الارشادية المناسبة . وتقسيم هذا الاختبار على الوجه الذى بيناه يمكننا من تبين أكثر مجالات حياة الطالبة تعرضا لسوء التوافق ، ويساعدنا على وضع الخطة الارشادية الملائمة .

٣ — من أغراض هذا البحث أن يمكننا من وضع برامج ارشادية لمواجهة سوء التوافق عند الطالبات بالعلاج اللازم . وتعبير هذا الاختبار عن توافق الشخص بتحديد المشكلات التى يعانيها فى كل مجال من مجالات الحياة ، يمكننا من وضع البرامج الارشادية لمواجهة سوء التوافق الذى تعانيه الطالبة فى صورة مفصلة تسمح بعلاج هذه المشكلات .

أسباب تتعلق بالخبرة المستمدة من تطبيق هذا الاختبار :

كنت أقوم بتطبيق هذا الاختبار على من تسترشد بى من طالبات الكلية فى حل مشكلاتها ، كلما تهيأت الفرصة لهذا التطبيق ، وكلما وجدت تقبلا من الطالبة المسترشدة لاجراء هذا الاختبار . وقد أعانتى كثيرا على تعيين مشكلة الطالبة ، وعلى تحديد مصدر هذه المشكلة ، مما جعلنى أثق فى نجاحه العملى فى

القاء الضوء على مشكلات الطالبات وفى المساعدة على تشخيصها ، ومن ثم فى الايحاء بطرق العلاج .

اسباب تتعلق بوضع الاختبار فى ج.ع.م .

لقد قام باقتباس هذا الاختبار واعداده د . محمد عثمان نجاتى . لكنه مازال فى حاجة الى اجراء مزيد من الأبحاث عليه للتأكد من صدقه ومن ثباته على عينة محلية من طلاب الجمهورية العربية المتحدة . كما أننا فى حاجة لوضع معايير جديدة له نستمدها من العينات العربية . وقد رأيت أن يكون من أهداف هذا البحث ، بالاضافة الى دراسة توافق الطالبة الجامعية فى كلية البنات ، أن أساهم فى تزويد هذا الاختبار بالبحوث العربية التى تكمل صلاحيته للاستعمال فى البلاد العربية .

وصف الاختبار :

يتكون هذا الاختبار من ١٤٠ سؤالا تقع فى ثلاث صفحات . وعلى الطالب أن يرسم دائرة حول اجابة من اجابات ثلاث وضعت أمام كل سؤال : نعم ، لا ، وهو يقيس التوافق الكلى للشخص ، وفى نفس الوقت يقيس اربعة مجالات من مجالات توافقه هى : التوافق المنزلى ، التوافق الصحى ، التوافق الاجتماعى ، التوافق الانفعالى . ويشتمل كل مقياس يقيس كل مجال من هذه المجالات على ٤٥ سؤالا . لكن الطالب الذى يجرى الاختبار لا يشعر بهذا التقسيم . وقد وضع حرف أبجدى ليميز كل سؤال من أسئلة الاختبار من حيث هو يقيس نوعا معينا من التوافق . فمثلاوضع حرف(ا)الى جانب السؤال الذى يقيس التوافقالمنزلى، وحرف ب الى جانب السؤال الذى يقيس التوافق الصحى وهكذا . وقد أفادتنى هذه الحروف كثيرا فى استخلاص أسئلة كل مقياس ومعرفة عدد اجابات الطالبات على كل سؤال من كل مقياس .

تصحيح الاختبار :

يصحح الاختبار بواسطة مفتاح من ورق شفاف به أعمدة تشتمل علىخطوط أفقية قصيرة . هذه الأعمدة تمثل أربع مجموعات كل مجموعة تقيس نوعا من أنواع التوافق . ويخصص فىكل مجموعة عمود لتصحيح كل صفحة من صفحات الاختبار الثلاث . وتسجل درجات المقاييس الأربعة لكل صفحة فى أسفل الصفحة ، ثم

تجمع درجات كل مقياس فى الصفحات الثلاث وتسجل فى الجدول المخصص لتسجيل الدرجات فى الصفحة الأولى من الاختبار . والدرجة فى هذا الاختبار تعنى عدد مشكلات التوافق عند الشخص الذى أجرى عليه الاختبار ؛ وكلما زادت درجته ضعف توافقه .

ثبات الاختبار :

اتبعنا طريقة اعادة الاختبار فى دراستنا لثبات اختبار التوافق. فأجرينا الاختبار على ٦٠ طالبة ، ثم أعدنا اجراء الاختبار بعد ٢٠ يوما على نفس الطالبات . وكانت معاملات ثبات مقاييس الاختبار الأربعة ، وكذلك معامل ثبات الدرجة الكلية للاختبار كما هو مبين فى الجدول (رقم ١) .

جدول رقم (١)
يبين معاملات ثبات الاختبار ومقاييسه الأربعة ، ومستوى الدلالة الاحصائية لهذه المعاملات

نوع التوافق	معامل الثبات	مستوى الدلالة
التوافق المنزلى	٠٫٦٤	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪
التوافق الصحى	٠٫٦٣	
التوافق الاجتماعى	٠٫٨٣	
التوافق الانفعالى	٠٫٨١	
التوافق الكلى	٠٫٦٨	

صدق الاختبار :

اتبعنا الطريقة التالية فى قياس صدق الاختبار :

اتخذنا قائمة مونى لضبط المشكلات ، وقد ثبت صدقها على عينة من تلميذات المدارس الثانوية فى القاهرة[١] . اتخذنا هذه القائمة محكا لقياس صدق اختبار

---

(١) منيرة حلمى : مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الارشادية . دار النهضة العربية .

التوافق . فأجريناه على نفس العينة المكونة من ٦٠ طالبة والتى درسنا عليها ثبات الاختبار . ثم اخترنا من القائمة مجالات المشكلات التى تماثل مجالات التوافق الأربعة التى يقيسها اختبار التوافق . فقارنا بين درجات الطالبات فى كل مقياس من الاختبار ودرجاتهن فى المجال الذى يماثله واستخرجنا معامل الصدق على هذا الوجه بحساب الارتباط بين كل مما يلى :

درجات التوافق المنزلى فى الاختبار ، ودرجات مجال البيت والأسرة فى قائمة المشكلات درجات التوافق الصحى فى الاختبار ، ودرجات مجال الحالة الصحية والبدنية فى قائمة المشكلات .

درجات التوافق الاجتماعى فى الاختبار ، ودرجات مجال العلاقات الاجتماعية النفسية فى قائمة المشكلات .

درجات التوافق الانفعالى فى الاختبار ، ودرجات مجال العلاقات الشخصية النفسية فى قائمة المشكلات .

درجات التوافق الكلى فى الاختبار ، ومجموع درجات المجالات السابقة فى قائمة المشكلات .

وكانت النتائج كما هو مبين فى الجدول (رقم ٢) .

الجدول رقم (٢)

يبين معاملات صدق الاختبار ومقاييسه الأربعة ومستوى الدلالة الاحصائية لهذه المعاملات

نوع التوافق	معامل الصدق	مستوى الدلالة
التوافق المنزلى	٠ر٣٠	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٥٪
التوافق الصحى	٠ر٥٠	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪
التوافق الاجتماعى	٠ر٤٠	
التوافق الانفعالى	٠ر٥٠	
التوافق الكلى	٠ر٥٠	

ثانيا : عينة البحث

بلغ عدد الطالبات اللاتى أجرى عليهن هذا البحث ٨٨٠ طالبة . وكان لابد من الالتجاء الى هذا العدد الكبير من الطالبات ، لكثرة المتغيرات التى نبحث العلاقة بينها وبين توافق الطالبة فى هذا البحث . فنحن نبحث العلاقة بين توافق الطالبة وبين مستواها الدراسى من حيث وجودها فى السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة بالكلية ونحن نبحث العلاقة بين توافق الطالبة وبين نوع الدراسة التى تؤديها علمية أو أدبية . ونحن نبحث العلاقة بين توافق الطالبة وبين ظروفها المعيشية ، اذا كانت تعيش بعيدا عن أسرتها فى المدينة الجامعية بعد أن قضت حياتها السابقة فى الأقاليم أو كانت من سكان القاهرة تعيش بين أسرتها .

وقد كان من شأن دراسة البحث لكل هذه المتغيرات ، ماذكرناه منها هنا ، وما لم نذكره فى هذا المكان ، أن جاء هذا البحث يجمع بين عدة بحوث وليس بحثا واحدا . لكنها عدة بحوث تسير نحو هدف واحد ، وتزودنا بمعلومات كان لا بد من جمعها فى صورة متكاملة حتى نكوّن أصدق صور ممكنة تصوّر شخصية الطالبة فى توافقها من كل النواحى ، وحتى نحقق الفائدة المرجوة من هذا البحث ، وهى العمل على مواجهة مشكلات الطالبة جميعها بالخدمات الارشادية التى تعينها فى التغلب على هذه المشكلات .

وقد تم توزيع الطالبات على دراسات البحث على الوجه التالى :

٦٠ طالبة قمنا بدراسة ثبات الاختبار وصدقه ، بتطبيق الاختبارات اللازمة عليهن .

٣٥٠ طالبة من السنة الأولى : بحثت العلاقة بين التوافق وبين التحصيل الدراسى على ٢٠٠ طالبة منهن ، ١٠٠ طالبة من القسم الأدبى و ١٠٠ طالبة من القسم العلمى كما بحثت العلاقة بين توافق الطالبة وبين تخصصها الادبى أوالعلمى على كل مائة طالبة من المذكورة أعلاه ، بالاضافة الى طالبات السنة الثالثة.

١٤٧ طالبة من السنة الثانية بحثت العلاقة بين توافق الطالبة وبين ذكائها على ١٠٠ طالبة منهن .

١٢٣ طالبة من السنة الثالثة : ٨٨ طالبة منهن من القسم الأدبى ، ٣٥ طالبة من

القسم العلمى . وقد بحثت العلاقة بين توافق الطالبة وبين تخصصها العلمى أو الأدبى على هؤلاء الطالبات مع طالبات السنة الثانية .

٦٨٠ طالبة من مجموع الطالبات اللاتى أجريت عليهن الدراسات السابقة ، وقد بحث على ٦٢٠ طالبة منهن العلاقة بين عدد أبناء الأسرة وبين توافق الطالبة، وكذلك العلاقة بين ترتيب الفتاة فى الأسرة وبين توافقها فى مقاييس الاختبار.

١٠٠ طالبة من المدينة الجامعية لبحث توافق طالبات الأقاليم .

١٠٠ طالبة من القاهرة لبحث توافق طالبات القاهرة ، ودراسة الفرق بينه وبين توافق طالبات الأقاليم فى المدينة الجامعية .

٨٨٠ طالبة هن مجموع الطالبات اللاتى أجرى عليهن البحث فى مختلف نواحيه .

وكل هؤلاء الطالبات تتراوح أعمارهن بين ١٧ ، ٢١ سنة .

ثالثا : طريقة البحث

كانت الخطوة الأولى فى هذا البحث ، هى دراسة ثبات وصدق الاختبار الذى قررنا استعماله كوسيلة للبحث . وقد بحثنا ثبات اختبار التوافق باعادة اجرائه على عينة من ٦٠ طالبة ؛ كما بحثنا صدق هذا الاختبار بمقارنة نتائجه بنتائج قائمة مونى للمشكلات التى كان قد ثبت صدقها فى بحث سابق ، وقمنا باجرائها على نفس العينة المكونة من ٦٠ طالبة . وقد اتضح من هذه الدراسة أن اختبار التوافق على جانب من الثبات بالنسبة للعينة المصرية يمكننا من الأعتماد عليه فى البحث ، كما تأكد لنا كذلك أن هذا الاختبار على جانب من الصدق — بالنسبة للعينة المصرية — يطمئننا على صحة نتائجه ، وقد وضحنا درجة ثباته ودرجة صدقه فيما سبق فى هذا الفصل .

وقمنا بعد ذلك فى الخطوة الثانية بتطبيق الاختبار على مجموعة كبيرة من طالبات السنوات الدراسية الثلاث ، الأولى والثانية والثالثة ، بأقسامها العلمية والأدبية وكان قصدنا من ذلك معرفة الاتجاه العام لتوافق طالبات الكلية ، وتعيين النواحى التى تكثر فيها مشكلات سوء التوافق فى حياتهن وذلك للعمل على تنظيم برنامج ارشادى يعالج مشكلات الطالبات ، وتكون الأولوية فى تنفيذه

لعلاج المشكلات السائدة عندهن . وقد قمنا فى هذه الخطوة بدراسة علاقة التوافق الكلى للطالبات بالتوافقات المختلفة فى سائر نواحى حياتهن أى بالتوافق المنزلى والتوافق الصحى والتوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى . كما قمنا كذلك بدراسة العلاقة بين توافق الطالبات فى كل مجال من مجالات حياتهن بتوافقهن فى المجالات الأخرى .

كذلك قمت بدراسة توافق الطالبات فى السنوات الدراسية الثلاث ونوع مشكلات التوافق التى تميز كل مستوى دراسى . كماقمت بدراسة توافق الطالبة فى الأقسام العلمية وتوافقها فى الأقسام الأدبية ، والفرق بين طالبات كل قسم من هذين القسمين من حيث درجة التوافق ومن حيث نوع مشكلات التوافق التى تعانيها طالبات كل قسم من القسمين .

قمت بعد ذلك بخطوة ثالثة فى البحث ، وهى دراسة العلاقة بين توافق الطالبة وبين تحصيلها الدراسى . وقد اتخذت درجة الطالبة فى امتحان الشهادة الثانوية العامة مقياسا لهذا التحصيل . ولذلك قمت بهذه الدراسة على طالبات السنة الأولى فى الأقسام العلمية وفى الأقسام الأدبية بالكلية .

وأخيرا ، وفى خطوة رابعة قمت بدراسة العلاقة بين توافق الطالبة وبين ذكائها. فقد درس الذكاء على أنه سلوك تكيفى أو توافقى فى أحيان كثيرة . وكان طبيعيا أن ينشأ عندى هذا التساؤل : هل هناك علاقة بين ذكاء الشخص وبين توافقه النفسى؟ وهل سأجد علاقة بين ذكاء الطالبات فى هذا البحث وبين توافقهن النفسى؟

لبحث هذه العلاقة بين التوافق وبين الذكاء ، أجريت على ١٠٠ طالبة من طالبات السنة الثانية اللاتى كنت قد أجريت عليهن اختبار التوافق ، اختبار الذكاء الثانوى للقبانى .

وفى أثناء تصحيحى لأول مجموعة قمت بتطبيقها من الاختبارات ، عزلت عشر اختبارات منها ، كان تقدير الطالبات فيها جميعا من حيث التوافق الكلى « ضعيف جدا » ، وقررت أن أقوم باجراء مقابلة مقننة لهؤلاء الطالبات ، لعلنى فى هذه المقابلة أستطيع أن أجمع عن مشكلاتهن من المعلومات ما يوجهنى فى دراستها وما يمكننى من تقصى أسبابها . وقد لفت نظرى عند هؤلاء الطالبات أن توافقهن المنزلى كان ضعيفا جدا أو ضعيفا فى كل الحالات .

أما ما كشفته لى مقابلتى لهن . وكان له أثر واضح فى اضافة عامل جديد بحثته كمتغير من المتغيرات التى قد تؤثر على توافق الطالبة ؛ فقد كان اشتراك هذه الحالات العشر كلها فى كثرة عدد الاخوة فى الأسرة . اذ كان عدد أبناء الأسرة فى جميع الحالات فوق الخمسة أبناء ؛ ووصل الى احد عشر ابنا . عندئذ نشأت عندى فكرة بحث العلاقة بين توافق الفتاة وبين عدد الأبناء فى الأسرة كما رأيت أن أدرس العلاقة بين توافق الفتاة وبين ترتيبها بين أخوتها فى الأسرة .

كانت الخطوة الخامسة فى البحث بعد ذلك ، هى دراسة العلاقة بين عدد الأبناء فى الأسرة وبين توافق الطالبة ؛ وكذلك العلاقة بين ترتيب الطالبة فى الأسرة وبين توافقها وقد مهدت لذلك بمطالبة كل طالبة بأن تكتب لى عدد الأبناء فى أسرتها ، وترتيبها بين هؤلاء الأبناء ؛ أما من كن قد أجرين الاختبار ، فقد كتبن هذه المعلومات على ورقة مستقلة ؛ وأما من لم يكن قد اجرين الاختبار بعد ؛ فقد كتبن هذه المعلومات على ركن الصفحة الأولى من الاختبار .

وقد جعلت الخطوة السادسة من البحث دراسة العلاقة بين توافق الفتاة وبين ظروفها المعيشية . وأعنى بظروفها المعيشية ، نشأتها فى القاهرة واقامتها مع أسرتها أو نشأتها فى الأقاليم واقامتها فى المدينة الجامعية بعيدا عن أسرتها . وكانت دراسة علاقة التوافق عند الطالبة بهذه الظروف المعيشية أمرا لا بد منه فى كلية البنات بالذات . وذلك لأن هذه الكلية تنفرد بين سائر الكليات الجامعية بأن معظم طالباتها يفدن اليها من الأقاليم ، ويقمن فى المدينة الجامعية . وهؤلاء الطالبات لا بد لهن من رعاية خاصة تواجه ظروفهن ومشكلاتهن الخاصة .

فهل يختلف توافق طالبات الكلية المقيمات بالقاهرة ، عن توافق طالبات الكلية الوافدات اليها من الأقاليم ؟ وهل يختلف نوع مشكلات التوافق عند كل فريق عن نوع هذه المشكلات عند الفريق الآخر ؟ للاجابة على هذين السؤالين قمنا بتطبيق الاختبار على ١٠٠ طالبة من المدينة الجامعية ، وعلى ١٠٠ طالبة من المقيمات مع أسرهن بالقاهرة ، وقد راعينا تساوى الفريقين فى المستوى الدراسى وفى التخصص الدراسى .

الفصل الثالث

التوافق عند طالبات الكلية

اتجاهه العام ومشكلاته

نعرض فى هذا الفصل نتائج البحث على مستوى العينة كلها من حيث :

أولا : متوسط درجات الطالبات فى اختبار التوافق كله ، ثم فى كل مقياس من مقاييسه الأربعة ، وهى : مقياس التوافق المنزلى ، مقياس التوافق الصحى ، مقياس التوافق الاجتماعى ومقياس التوافق الانفعالى .

ثانيا : العلاقة بين التوافق الكلى للعينة وبين توافقها فى كل مقياس من مقاييس الاختبار الأربعة .

ثالثا : العلاقة بين درجات طالبات العينة فى كل مقياس من المقاييس الأربعة وبين درجاتهن فى باقى المقاييس .

رابعا : نوع مشكلات التوافق عند طالبات العينة كلها ، فى أنواع التوافقات الأربعة التى يقيسها الاختبار .

خامسا : توافق الطالبات فى المستويات الدراسية المختلفة ، من حيث :

١ ــ متوسط مشكلات التوافق ، ودلالة الفروق بين المستويات الدراسية الثلاث .

٢ ــ نوع مشكلات التوافق فى كل مستوى دراسى من المستويات الثلاث .

سادسا : توافق الطالبات فى كل قسم من أقسام التخصص ، العلمى والأدبى ، من حيث :

١ ــ متوسط مشكلات التوافق ودلالة الفروق بين القسمين .

٢ ــ نوع مشكلات التوافق عند طالبات كل تخصص .

سابعا : العلاقة بين التوافق وبين التحصيل الدراسى عند طالبات الكلية .

ثامنا : العلاقة بين التوافق وبين الذكاء عند طالبات الكلية .

وقبل أن نبدأ بالعرض نوجه النظر الى أن معنى الدرجة فى هذا الاختبار ، هو عدد مشكلات التوافق التى يعانيها صاحب هذه الدرجة . وكلما زادت درجته كان أقرب الى سوء التوافق أو كان تقديره ضعيفا طبقا لمعايير الاختبار .

أولا : متوسط درجات التوافق لطالبات العينة

يبين الجدول (رقم ٣) متوسط درجات التوافق لطالبات العينة ، وعددهن فيما يختص بهذا الجانب من البحث ٦٢٠ طالبة . فيبين متوسط درجة التوافق الكلى ، ثم متوسط درجة التوافق المنزلى ، ومتوسط درجة التوافق الصحى ، ومتوسط درجة التوافق الاجتماعى ومتوسط درجة التوافق الانفعالى . فاذا قارنا بين هذه المتوسطات ، ومعيار التوسط كما هو موضوع لطالبات الجامعات الأمريكية[١] ، وكما بيناه فى الجدول (رقم ٤) ، وجدنا أن هناك تقارب بين متوسط العينة المصرية ومتوسط العينة الأمريكية فى بعض المقاييس . فمثلا فى مقياس التوافق المنزلى ، نجد متوسط الطالبات المصريات يمثل مركز الفئة المتوسطة حسب معايير التوافق للعينة الأمريكية . فهذه الفئة عند العينة الأمريكية تقع بين درجتى ٥ ، ٩ ، بينما متوسط العينة المصرية ٧ — كذلك الحال بالنسبة لدرجات التوافق الاجتماعى ، فالفئة المتوسطة حسب معايير العينة الأمريكية تقع درجاتها بين ٩ ، ١٩ بينما متوسط العينة المصرية ١٥ . لكننا نجد كذلك بعض الاختلاف بين العينة المصرية والعينة الأمريكية فى درجات المقاييس الأخرى لاختبار التوافق . فنجد مثلا فى الدرجة الكلية للاختبار ، تقع الفئة المتوسطة فى العينة الأمريكية بين ٢٥ ، ٤٧ درجة ، بينما نجد متوسط الدرجات فى التوافق الكلى عند العينة المصرية ٥١ درجة ، أى يميل بها الى الفئة الضعيفة حسب معايير العينة الأمريكية ، تلك الفئة التى تتراوح بين ٤٨ ، ٦٥ كما تبين المعايير المذكورة فى كراسة تعليمات الاختبار . وكذلك الحال بالنسبة للتوافق الصحى ، وبالنسبة للتوافق الانفعالى كما يتضح لنا من الجدول رقم ٤ ، وان كان هذا الاختلاف بين العينتين قليلا ، وقد يتضح

---

(١) هبو . م بل . اقتباس واعداد د. محمد عثمان نجاتى ، كراسة تعليمات اختبار التوافق للطلبة .

الأمر أكثر حينما توضع معايير دقيقة لهذا الاختبار بالنسبة للطالبات المصريات فى جامعاتنا .

جدول رقم (٣)

يبين متوسط درجات التوافق لطالبات العينة كلها (٦٢٠ طالبة) فى الاختبار كله وفى كل مقياس من مقاييسه الأربعة

التوافق الكلى	التوافق المنزلى	التوافق الصحى	التوافق الاجتماعى	التوافق الانفعالى
٥١٫٣٥	٧٫٩٧	١٢٫٠١	١٥٫٨١	١٦٫٨١

جدول رقم (٤)

يبين متوسط درجات التوافق فى مقاييس الاختبار عند الطالبات المصريات ومعيار المتوسط فى هذه المقاييس عند طالبات الجامعة الأمريكية

مقياس التوافق	متوسط العينة المصرية	معيار التوسط عند العينة الأمريكية
التوافق الكلى	٥١٫٣٥	٢٥ — ٤٧
التوافق المنزلى	٧٫٩٧	٥ — ٩
التوافق الصحى	١٢٫٠١	٥ — ٩
التوافق الاجتماعى	١٥٫٨١	٩ — ١٩
التوافق الانفعالى	١٦٫٨١	٨ — ١٥

ثانيا : العلاقة بين التوافق الكلى للعينة وبين توافقها فى مقاييس الاختبار الأربعة

يبين الجدول (رقم ٥) الارتباط بين درجات التوافق الكلى للعينة ، ودرجات التوافقات الأربعة التى يقيسها الاختبار . ومنه تبين أن درجات الطالبات فى كل مقياس ترتبط ارتباطا ايجابيا ذا دلالة احصائية كبيرة مع الدرجات الكلية لهن فى الاختبار ، وأن ترتيب أنواع التوافقات من حيث مدى ارتباطها بالتوافق الكلى عند الطالبات هو :

أولا : التوافق الانفعالى .

ثانيا : التوافق الصحى .
ثالثا : التوافق المنزلى .
رابعا : التوافق الاجتماعى .

جدول رقم (٥)

يبين العلاقة بين درجات التوافق الكلى ودرجات مختلف التوافقات عند الطالبات فى مقاييس الاختبار

أنواع التوافقات	التوافق المنزلى		التوافق الصحى	
	معامل الارتباط	الدلالة ومستواها	معامل الارتباط	الدلالة ومستواها
التوافق الكلى	٠٫٥٨٣	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪	٠٫٦٦٨	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪
أنواع التوافقات	التوافق الاجتماعى		التوافق الانفعالى	
	معامل الارتباط	الدلالة ومستواها	معامل الارتباط	الدلالة ومستواها
التوافق الكلى	٠٫٥٧٢	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪	٠٫٧٨٠	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪

ثالثا : العلاقة بين درجات طالبات العينة فى مقاييس الاختبار الاربعة

من الجدول (رقم ٦) نستطيع أن تبين أن كل مقياس من مقاييس الاختبار يرتبط مع غيره من المقاييس ارتباطا ذا دلالة احصائية كبيرة . وهذا يعنى أن هناك علاقة طردية بين درجات الطالبات فى كل مقياس ودرجاتهن فى سائر المقاييس الأخرى مما يدل على أن مشكلات التوافق فى كل مجال من مجالات التوافق التى يقيسها الاختبار عند الطالبات ، ترتبط بمشكلات التوافق عندهن فى سائر المجالات الأخرى . ويوضح لنا الجدول (رقم ٦) أن أكثر مجالات التوافق ارتباطا هى مجال التوافق الصحى ومجال التوافق الانفعالى وقد سبق لنا أن توصلنا الى نتيجة مماثلة فى بحث سابق[1] . يليها مجال التوافق المنزلى ومجال التوافق الانفعالى . وفى نفس المستوى من الارتباط مجال التوافق الصحى ومجال التوافق الاجتماعى . أما أقلها ارتباطا فهما مجال التوافق المنزلى ومجال التوافق الاجتماعى .

---

(١) منيرة حلمى . مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الارشادية ـ دار النهضة العربية .

جدول رقم ٦٠

يبين العلاقة بين درجات الطالبات فى مقاييس الاختبار الاربعة

مقاييس التوافق	معامل الارتباط	الدلالة الإحصائية ومستواها
التوافق المنزلى والتوافق الصحى	٠ر٣٣	ذو دلالة بدرجة ثقة ٩٩٪
التوافق المنزلى والتوافق الاجتماعى	٠ر٢٠	
التوافق المنزلى والتوافق الانفعالى	٠ر٤٠	
التوافق الصحى والتوافق الاجتماعى	٠ر٤٠	
التوافق الصحى والتوافق الانفعالى	٠ر٥٠	
التوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى	٠ر٢٣	

وبمقارنة هذه الارتباطات بمثيلاتها بالنسبة للعينة الامريكية[1] نجد أن هناك اختلافات فى مدى هذه الارتباطات بين العينة المصرية وبين العينة الأمريكية كما هو موضح فى الجدول (رقم ٧) فالمجالان الوحيدان يقترب مدى ارتباطهما بالنسبة للعينة المصرية من مدى ارتباطهما بالنسبة للعينة الأمريكية هما مجالا التوافق الصحى والتوافق الانفعالى . وهما أكثر مجالات التوافق ارتباطا كما ذكرنا .

أما أكبر اختلاف بين العينة المصرية والعينة الأمريكية من حيث ارتباطات مجالات التوافق فنجده فى الارتباط بين مجالى التوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى اذ أن معامل الارتباط بين هذين المجالين عند العينة المصرية هو ٢٣ر٠ . بينما يبلغ عند العينة الأمريكية ٤٧ر٠ كما هو مبين فى الجدول (رقم ٧) .

ماذا يعنى هذا الاختلاف ؟ انه يعنى أن الارتباط بين مشكلات التوافق الاجتماعية ومشكلات التوافق الانفعالية عند الطالبات المصريات من حيث عدد هذه المشكلات أقل من ارتباط هذين النوعين من مشكلات التوافق عند الطالبات الأمريكيات أى أن زيادة المشكلات فى أحد هذين المجالين لا تترتب عليها زيادة مماثلة فى المجال الآخر عند الطالبة المصرية بالقدر الذى تترتب عليها زيادة مماثلة عند الطالبات الأمريكيات .

---

(١) كراسة تعليمات اختبار التوافق السابقة الذكر .

جدول رقم (٧)

يبين معاملات الارتباطات بين درجات التوافق فى مقاييس الاختبار الاربعة عند كل من العينة المصرية والعينة الامريكية

مقاييس التوافق	معامل الارتباط عند العينة المصرية	معاملات الارتباطات عند العينة الأمريكية
التوافق المنزلى والتوافق الصحى	٠ر٣٣	٠ر٤٣
التوافق المنزلى والتوافق الاجتماعى	٠ر٢٠	٠ر٠٤
التوافق المنزلى والتوافق الانفعالى	٠ر٤٠	٠ر٣٨
التوافق الصحى والتوافق الاجتماعى	٠ر٤٠	٠ر٢٤
التوافق الصحى والتوافق الانفعالى	٠ر٥٠	٠ر٥٣
التوافق الاجتماعى والتوافق الانفعالى	٠ر٢٣	٠ر٤٧

قد يكون السبب فى هذا الاختلاف أن الطالبة الأمريكية تلقى تدريبا على عمليات التوافق الاجتماعى منذ طفولتها ، بمعنى أنها تمارس الحياة فى جو اجتماعى وتخبر العلاقات الاجتماعية نشاطات فوق نشاطات فى البيت وفوق نشاطات المدرسة هذه النشاطات فى البيت والمدرسة التى تكون فى حد ذاتها زاخرة بالمواقف الاجتماعية . ثم هى تمارس هذه النشاطات الاجتماعية فى جو يختلط فيه الجنسان، بحيث لا تشتمل مشكلات توافقها على مشكلات خاصة بموقفها من الجنس الآخر. لكل ذلك ربما تكون لا تعانى من الطالبات الأمريكيات مشكلات توافق اجتماعى الا من تعانى من مشكلات توافق انفعالى ، بحيث يرتبط عدد المشكلات التى تعانيها فى الناحية الاجتماعية بعدد المشكلات التى تعانيها فى حياتها الانفعالية أكثر مما يرتبط هذان العددان عند الطالبة المصرية .

ودليل آخر قد يدلنا على اعتماد الفتاة الأمريكية أكثر من الفتاة المصرية فى اكتساب خبرتها الاجتماعية على نشاطات خارج البيت ، وهو مدى الارتباط بين مشكلات التوافق المنزلى ومشكلات التوافق الاجتماعى عند كل من الطالبات الأمريكيات والطالبات المصريات . فهذا الارتباط لا يكاد يذكر عند الطالبات الأمريكيات ، فمعامله ٠٤ر فقط ، بينما نجد أن معامل هذا الارتباط عند الطالبات المصريات ٢٠ر . وأن له دلالة احصائية كبيرة .

وقد يدل ذلك على أن الفتاة المصرية تعتمد على البيت أكثر مما تعتمد على المجتمع الخارجى فى تدريبها على المواقف الاجتماعية وان ذلك يؤدى الى ارتباط مشكلاتها المنزلية بمشكلاتها الاجتماعية ، بينما الفتاة الأمريكية لا تعتمد على الحياة المنزلية كل هذا الاعتماد فى تدريبها على الحياة الاجتماعية ، وانما هى تنطلق خارج البيت منذ فترة مبكرة فى حياتها .

كل هذه التعليلات مجرد ترجيحات تنقصها الدراسة العلمية الدقيقة ، وكل ما نستطيع أن نؤكده هنا على أساس هذا البحث هو الاختلاف فى مدى ارتباط بعض أنواع التوافق عند العينة المصرية ، ومدى هذا الارتباط عند العينة الأمريكية .

رابعا : نوع مشكلات التوافق عند طالبات العينة كلها

١ ــ مشكلات التوافق المنزلى: من الجدول (رقم ٨) يتضح لنا أنه من مشكلات التوافق العشر الأولى ، التى هى أكثر المشكلات شيوعا بين الطالبات ، توجد ثلاث مشكلات تتصل مباشرة بالعلاقة بين الفتاة وبين أبويها . اثنتان منها تنصبان على شدة انفعالية أحد الوالدين ، كما تتصورها الفتاة ، سرعة غضب (المشكلة رقم ١٠١) وسرعة تهيج (المشكلة رقم ٤٦) وهما أكثر المشكلات شيوعا بين الطالبات . والثالثة تنصب على وجود عادات سيئة عند أحد الأبوين وأن هذه العادات تثير الفتاة . مأا المشكلات الأربعة الأخرى فتنصب على عدم فهم الوالدين للفتاة فى تصورها . ويبدو عدم الفهم هذا فيما يختص بعملها داخل البيت (مشكلة رقم ٥١) أو فيما يختص بعملها فى المستقبل خارج البيت (مشكلة رقم ١٢١) . كذلك يبدو عدم التفاهم بينها وبين أحد الوالدين واضحا فى المشكلة رقم ٣٠ والتى تصور اصرار الوالدين على اطاعتهما ، وان كان المطلوب منها غير معقول . مما يدل على عدم اتفاق الوالدين أو أحدهما ، مع الفتاة على ما هو المعقول وما هو اللامعقول بالنسبة اليها .

أما المشكلات الثلاث الباقية ، فاثنتان منها تتصلان بخلافات داخل الأسرة أولاهما خلافات بين الفتاة وبين اخوتها (مشكلة رقم ٥٩) وثانيهما خلافات بين الأسرة وبين أقربائها المقربين (مشكلة رقم ٥٥) . أما الثالثة (مشكلة رقم ٨٢) فتصور موقفا من المواقف المشكلة فى حياة الفتاة ازاء كل هذه المشكلات المنزلية ،

وهو مغادرة البيت أو السكوت . وكلاهما قد يؤلمها لكنها تضطر الى ذلك اضطرارا .

جدول رقم (٨)

يبين اكثر انواع مشكلات التوافق المنزلى شيوعا عند طالبات العينة كلها (٦٢٠ طالبة) والنسبة المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق المنزلى	النسبة المئوية
١٠١	سرعة غضب أحد الوالدين	٥٠
٤٦	سرعة تهيج أحد الوالدين واستثارته	٤٠
٥٩	التشاجر مع الأخوة والأخوات	٣٨
١٣٤	الشعور بأن أحد الوالدين لا يفهمها	٣٥
٥١	الاختلاف مع أحد الوالدين حول الطريقة التى ينبغى أن يتم بها شغل البيت	٣٣
٥٥	مشاحنات عائلية كبيرة بين الأقرباء المقربين	٣٢
٨٢	الاضطرار إلى السكوت أو مغادرة المنزل لكى تحقق السلام والهدوء فى البيت	٣١
١٢١	الاختلاف مع أحد الوالدين حول العمل الذى تريد أن تقوم به فى الحياة	٣٠
٣٠	إصرار أحد الوالدين على أن تضيعه بصرف النظر عما إذا كان ما يطلبه منها معقولا أو غير معقول	٢٨
٧٢	وجود عادات شخصية تثيرها عند أحد الوالدين	٢٨

٢ ــ مشكلات التوافق الصحى : تنصب أربع مشكلات من المشكلات الصحية العشر الأكثر شيوعا عند طالبات العينة على احساس بالتعب تعانيه الفتاة كثيرا ؛ كما هو مبين فى الجدول (رقم ٩) . فالفتاة متعبة جدا فى آخر اليوم(مشكلة رقم ٢٧) ؛ وهى تشعر بالتعب عند الاستيقاظ فى الصباح (مشكلة رقم ٢٩) وهى تشعر بالتعب فى معظم الأحيان (مشكلة رقم ٦٤) ثم ان عينيها تتعبان بسهولة (مشكلة رقم ٦٣) .

صحيح أن هذه المشكلات التى تقررها الفتاة عن ظروفها الصحية لا تغنى عن الفحص الطبى للتأكد ؛ ثم أن كثيرا منها قد يكون نتيجة لسوء التوافق

الانفعالى ، الا أننا لا نملك هنا الا أن نستخلص منها حالة ضعف عام تعانيه الفتاة فى بنيتها الجسمية . وأن من شأن هذا الضعف أن يشعرها بالتعب منذ الاستيقاظ فى الصباح الى نهاية اليوم . ومما يلفت النظر أن هذا الشعور شائع بين نسبة كبيرة من طالبات العينة نسبة تبلغ ٨٠٪ فى حالة التعب آخر اليوم ، كما تبلغ ٥٢٪ فى حالة التعب عند الاستيقاظ فى الصباح .

جدول رقم (٩)

يبين أكثر انواع مشكلات التوافق الصحى شيوعا عند طالبات العينة كلها (٦٢٠ طالبة) والنسبة المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الصحى	النسبة المئوية
٢٧	الشعور بأنها متعبة جداً فى نهاية اليوم	٨٠
١١٩	ضرورة العناية بصحتها عناية دقيقة	٧٦
١٠٢	الشعور بآلام فى الرأس فى بعض الأحيان	٧٤
٢٥	صعوبة الاسترسال فى النوم حتى إذا لم تكن هناك ضوضاء	٦٦
٢٩	فقدان بعض الوزن حديثاً	٥٩
٦٣	أن عينيها تتعبان بسهولة	٥٨
٥٤	أنه كثيراً ما توجد عندها غازات فى المعدة والأمعاء	٥٧
٦٦	الشعور بالتعب عند الاستيقاظ فى الصباح	٥٢
٧٤	أنها تشعر فى معظم الأحيان بأنها متعبة	٥٢
٢٣	أنها كثيراً ما تشعر بصداع	٥١

كذلك تكثر الشكوى من آلام الرأس والصداع . وقد تتصل هذه الشكوى بالشكوى من تعب العينين بسهولة ، أو بالضعف الجسمى عموما ، أو ربما بالحالة الانفعالية ، لا سيما وأننا قد وجدنا ــ كما ذكرنا من قبل ــ أن مشكلات التوافق الانفعالى ترتبط بمشكلات التوافق الصحى ارتباطا كبيرا . كذلك قد تتصل بالحالة الانفعالية الشكوى من صعوبة الاسترسال فى النوم . أما الشكوى من وجود غازات فى المعدة والأمعاء ، كذلك فقدان بعض الوزن حديثا ، فكلها مما

يجعل الفتاة قلقة على حالتها الصحية ، وتشغلها العناية بصحتها عناية دقيقة وهى ثانية المشكلات الصحية شيوعا عند الطالبات .

٣ ــ مشكلات التوافق الاجتماعى : هى فى الواقع مظاهر لعدم التوافق الاجتماعى أكثر منها مشكلات تعانيها الفتاة وتشعر بوجودها . فاذا استعرضنا المشكلات العشر الأكثر شيوعا منها ، كما هى موضحة فى الجدول (رقم ١٠) . وجدنا انها مظاهر سلوكية ، ترجع جميعها الى مشكلتين تعانيهما الفتاة ، وقد تضمنها هذا الجدول . أولاهما:(المشكلة رقم ٣٦)، وهى أن الفتاة يضايقهاالشعور بالخجل . وثانيهما : (المشكلة رقم ٦٥) وهى قلة تجارب الفتاة فى الظهور أمام المجتمعات العامة . بل هما مشكلة واحدة فى الواقع ، فشعور الفتاة بالخجل

جدول رقم (١٠)

يبين أكثر مشكلات التوافق الاجتماعى شيوعا عند طالبات العينة كلها (٦٢٠ طالبة) والنسبة المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلة التوافق الاجتماعى	النسبة المئوية
١٠٤	تفضيل الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء على التعرف بعدد كبير من الأفراد	٨٣
١٩	الشعور بالحرج حين الاضطرار لدخول اجتماع عام بعد اتخاذ كل واحد فى الاجتماع لمكانه	٧٤
٦١	تفضيل الاستغناء عن أشياء بدلا من أن تطلب من الآخرين أن يناولوها لها	٧٤
٣٦	أنها يضايقها الشعور بالخجل	٦٧
٦٥	قلة التجارب فى الظهور أمام المجتمعات العامة	٦٤
٨	عدم تولى مسئولية تقديم الناس فى الحفلات	٦١
٥٦	صعوبة تكوين علاقة صداقة مع أفراد الجنس الآخر	٦٠
٢٦	عدم القدرة على مسايرة الناس بالتحدث معهم فى الأماكن العامة	٥٩
٨٣	الشعور بنفسها حينما توجد مع أشخاص تعجب بهم إعجاباً شديداً لكنها لا تعرفهم جيداً	٥٥
١٤٠	التردد فى الدخول منفردة إلى غرفة بها مجموعة من الأفراد يتحدثون	٥٥

يرجع فى الغالب الى قلة تجاربها فى الظهور أمام المجتمعات العامة . وكل ما عدا هاتين المشكلتين من مشكلات التوافق الاجتماعى عند الفتاة ما هى الا سلوك ناتج عن هاتين المشكلتين . فتفضيل الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء (مشكلة رقم ١٠٤) يرجع الى أنها قليلة الخبرة فى تكوين عدد كبير من المعارف أو الى أنها تخجل من الاتصال بعدد كبير من الناس . والشعور بالحرج حين الاضطرار لدخول اجتماع بعد بدئه (مشكلة رقم ١٩) ويرجع كذلك الى شعورها بالخجل والى قلة تجاربها . وهكذا فى باقى مشكلات التوافق الاجتماعى عند الطالبة ، مما يجعلنا نستخلص ضرورة العمل على تدريبها فى المواقف الاجتماعية المختلفة ، وضرورة تخليصها من الشعور بالخجل سواء عن طريق هذا التدريب أو عن طريق وسائل ارشادية أخرى .

٤ ــ مشكلات التوافق الانفعالى : من الجدول (رقم ١١) ، نستطيع بعد استعراض المشكلات العشر الشائعة بين طالبات العينة من حيث توافقهن الانفعالى، نستطيع أن نتبين حالة انفعالية سائدة ، ووسائل تعبير عن هذه الحالة تدل على عدم النضج الانفعالى . فأما الحالة الانفعالية فتظهر من أول مشكلة ، فى معاناة الشعور بالضيق فى فترات كثيرة (المشكلة رقم ١٠) ، كما تظهر فى شعور يجرح بسهولة (المشكلة رقم ٨٩) وفى سرعة الخجل (المشكلة رقم ٨١) . وأما السلوك المعبر عن هذه الحالة الانفعالية ، وما يشوبه من عدم النضج ، فيظهر فى صورتين مختلفتين ، فى صورة تعبير صريح لا يتناسب مع النضج النفسى مثل سرعة البكاء . كما يظهر هذا السلوك فى صورة تعبير انسحابى يتمثل فى الاكتئاب (مشكلة رقم ٤٨) ، وكثرة أحلام اليقظة (مشكلة رقم ١) .

كذلك نستطيع أن نتبين حالة قلق تتمثل فى مخاوف وهمية ، مثل وقوع بعض الكوارث (المشكلة رقم ٩٥) أو أفكار تافهة يتكرر ورودها على الذهن (المشكلة رقم ١١٦) ونجد استجاباتها الدالة على عدم التوافق متمثلة فى استمرار حالة الضيق والقلق (مشكلة رقم ١٢٣) أو الأرق لانشغال فكرها بهذه المخاوف (مشكلة رقم ١٣٢) .

جدول رقم (١١)

يبين اكثر مشكلات التوافق الانفعالى شيوعا عند طالبات العينة كلها (٦٢٠ طالبة) والنسبة المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة(١)

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلة التوافق الانفعالى	النسبة المئوية
١٠	معاناة الشعور بالضيق فى فترات كثيرة	٨٥
٩٥	القلق بسبب احتمال وقوع بعض الكوارث	٧٧
٨٩	أن شعورها يجرح بسهولة	٧٦
١١٦	ضيقها ببعض الأفكار التافهة التى يتكرر ورودها على ذهنها من وقت لآخر	٧٥
٤٨	الاكتئاب بسبب الحصول على درجات ضعيفة فى دراستها	٧٣
١٢٣	استمرار القلق والضيق لمدة طويلة إذا تعرضت لمواقف تجعلها تشعر بالإذلال أو الاهانة	٧٣
٣٥	سرعة البكاء	٧١
١٣٢	أنها كثيراً ما تشغلها الأفكار إلى درجة لا تستطيع معها النوم	٦٩
٨١	سرعة الخجل	٦٠
١	كثرة أحلام اليقظة	٦٠

خامسا : توافق الطالبات فى المستويات الدراسية المختلفة

درسنا توافق الطالبات فى السنوات الدراسية الأولى والثانية والثالثة ، على أساس أنه لو كان للنشاط الاجتماعى والتوجيهى بالكلية تأثير على توافق الطالبة، فلا بد أن يظهر هذا التأثير فى خلال هذه السنوات ، لأن الطالبة فى السنة الرابعة تمتنع ، فى الغالب ، عن الاسهام فى نشاطات الكلية المختلفة ، وتتفرغ لدراستها تفرغا تاما .

وقد وجدنا أن متوسط درجات التوافق فى السنوات الدراسية الثلاث يكاد يكون واحدا . ونستطيع أن نتبين من الجدول (رقم١٢) أن متوسط درجات التوافق

(١) أرقام باقى مشكلات التوافق فى مجال التوافق الانفعالى ، وفى سائر مجالات التوافقات الأخرى ؛ والنسب المئوية لعدد الطالبات اللاتى تعانين من هذه المشكلات ؛ موجودة فى الجداول رقم ١ ؛ ٢ ، ٣ ؛ ٤ الملحقة بآخر البحث .

الكلى واحدا فى السنوات الثلاث ، كذلك متوسط درجات التوافق المنزلى ، ويكاد متوسط درجات التوافق الصحى ألا يختلف بينها ، وكذلك الحال بالنسبة للتوافق الاجتماعى ، ثم بالنسبة للتوافق الانفعالى .

جدول رقم (١٢)

يبين متوسط التوافق الكلى والتوافق المنزلى والصحى والاجتماعى والانفعالى عند الطالبات فى المستويات الدراسية الثلاث. السنة الأولى عدد ٣٥٠ طالبة السنة الثانية عدد ١٤٧ طالبة ، السنة الثالثة عدد ١٢٣ طالبة

السنة الدراسية	متوسط التوافق الكلى	متوسط التوافق المنزلى	متوسط التوافق الصحى	متوسط التوافق الاجتماعى	متوسط التوافق الانفعالى
الأولى	٥١ر٥٢	٧ر٩٠	١٢ر٤٩	١٥ر٩٨	١٦ر٧٩
الثانية	٥١ر١٩	٧ر٩٩	١٢ر٠٠	١٥ر٦٩	١٦ر٧٨
الثالثة	٥١ر٣١	٧ر٩٨	١١ر٩٤	١٦ر٠٢	١٦ر٨٠

معنى ذلك أن الطالبة لا تخضع لأى تغير فى شخصيتها ، من حيث توافق هذه الشخصية فى نواحى حياتها المختلفة ، فى فترة وجودها بالكلية . وأن مشكلات توافقها فى سائر نواحى الحياة لا تتغير من حيث كميتها ، بل تبقى الطالبة تعانى نفس عدد المشكلات التى صاحبتها عند دخولها الى الكلية .

هذا من حيث عدد مشكلات التوافق عند الطالبة ، فأما من حيث نوع هذه المشكلات فنتناول فيما يلى نوع مشكلات التوافق عند الطالبات فى المستويات الدراسية الثلاث .

١ ـ التوافق المنزلى عند الطالبات فى السنوات الدراسية الثلاث :

من الجدول (رقم١٣) تتبين أن طالبات السنوات الدراسية الثلاث يعانين نفس النوع من مشكلات التوافق المنزلى ، الا أننا نلاحظ أن نسبة الطالبات اللاتى يعانين كل مشكلة تقل قلة ملحوظة فى معظم الحالات عند طالبات السنة الثانية وطالبات السنة الثالثة . فمن المشكلات التى قلت نسبة ما يعانينها من الطالبات قلة ملحوظة فى السنة الثانية والثالثة هذه المشكلات :

(المشكلة رقم ٨٢) وقد نقصت نسبة من يعانينها من الطالبات من ٦٠ ٪ فى السنة الأولى الى ٢٠٪ فى السنة الثانية و ٣٠٪ فى السنة الثالثة .

جدول رقم ١٣١

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق المنزلى عند طالبات السنوات الدراسية الثلاث والنسب المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة منها فى كل سنة دارسية

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق المنزلى	النسبة ٪ لطالبات السنة الأولى	النسبة ٪ لطالبات السنة الثانية	النسبة ٪ لطالبات السنة الثالثة
٨٢	الاضطرار إلى السكوت أو مغادرة المنزل لكى تحقق السلام والهدوء فى البيت	٦٠	٢٠	٣٠
٥٩	التشاجر مع الأخوة	٥٥	٤٠	٤٥
١٠١	سرعة غضب أحد الوالدين	٥٥	٥٠	٥٠
١٢١	الاختلاف مع أحد الوالدين حول العمل الذى تريد أن تقوم به فى الحياة	٥٠	٦٠	٣٥
٧٢	وجود عادات شخصية تثيرها عند أحد الوالدين	٤٥	١٠	٢٥
٤٦	سرعة تهيج أحد الوالدين واستثارته	٤٠	٤٠	٥٠
٤١	اعتراض الوالدين على نوع الصديقات اللاتى تصاحبهن	٣٥	٣٠	—
٣٢	مرض أو موت بين أفراد الأسرة يجعل الحياة المنزلية تعسة	٣٠	١٠	٣٠
٥٥	مشاحنات عائلية كبيرة بين الأقرباء المقربين	٣٠	٢٠	٢٥
٨٦	تصرفات من أحد الوالدين تثير خوفاً شديداً فى نفسها	٣٠	٣٠	٣٠
١٠٣	البيت غير مزود بجميع الضروريات	٣٠	٤٠	٣٥
١٢٦	أحد الوالدين عصبى جداً	٣٠	٢٠	٣٠
١٣٤	الشعور بأن أحد الوالدين لا يفهمها	٣٠	—	٣٠
٩٢	الشعور بعواطف متناقضة من الحب والكراهية نحو أفراد الأسرة	٢٠	٥٠	١٥
٣٠	إصرار أحد الوالدين على أن تطيعه بصرف النظر عما إذا كان ما يطلبه معقولا أو غير معقول	١٥	١٠	٣٥

و (المشكلة رقم ٧٢) التى نقصت نسبة الطالبات اللاتى يعانينها من ٤٥ ٪ فى السنة الأولى الى ١٠٪ فى السنة الثانية و ٢٥ ٪ فى السنة الثالثة .

و (المشكلة رقم ١٢١) ، وان كانت نسبتها قد ارتفعت فى السنة الثانية لكنها نقصت من ٥٠ ٪ فى السنة الأولى الى ٣٥٪ فى السنة الثالثة .

فاذا عرفنا أن هذه المشكلات التى تقل نسبة من يعانينها من الطالبات ، مشكلات تدل على سلوك غير توافقى ، من اضطرار لمغادرة المنزل الى تشاجر مع الأخوة ، أو اثارة من عادات شخصية عند الوالدين ، أو اختلاف حول مستقبلها مع الوالدين ، وغيرها ، استطعنا أن نقول أن الطالبة تسير مع تقدمها فى الدراسة وفى العمر نحو توافق أحسن فى حياتها المنزلية ، بالنسبة لنوع المشكلات التى تعانيها وغيرها من المشكلات المذكورة فى الجدول (رقم ١٣) .

مشكلة واحدة نجدها تلفت النظر فى زيادة نسبة من يعانينها من الطالبات فى السنة الثالثة . هى (المشكلة رقم ٣٠) وهى مشكلة اصرار أحد الوالدين على اطاعته بصرف النظر عما اذا كان مايطلبه معقولا أو غير معقول . هذه المشكلة زادت نسبتها عن ١٥٪ عند طالبات السنة الأولى الى ٣٥٪ عند طالبات السنة الثالثة . ومن السهل أن نفسر هذه الزيادة . فالطالبة مع تقدمها فى العمر تبدأ فى تكوين رأى خاص لها ووجهة نظر تحكم بها على الأشياء ، وتفرق بها بين المعقول وغير المعقول عندها ثم هى تبدأ تستقل بهذا الرأى عن أسرتها وتعتز به ، وتبدأ فى وزن آراء أبويها وفى تقييمها ؛ وفى الشعور القوى بأن من حقها أن تختلف عنهما وأن تكون لها حياتها الخاصة .. كل هذا يجعلها تزداد اصرارا على موقفها ، ويسيئها اصرار والديها على اطاعتهما بصرف النظر عن رأيها الخاص فى طلبهما ، وهل هو طلب معقول أو غير معقول .

٢ ــ التوافق الصحى عند الطالبات فى السنوات الدراسية الثلاث :

مما يلفت النظر بالنسبة لمشكلات التوافق الصحى ، أنها كلها تزداد انتشارا عند الطالبات مع تقدمهن فى الدراسة وخاصة عند طالبات السنة الثالثة . ولا نستطيع أن نجد غير ثلاث مشكلات ، هى المشكلات رقم ٤٣ ، ٢ ، ٨٤ ، وكلها خاصة باصابة الطالبة بالبرد أو التهاب اللوز والحنجرة ، وهذا يمكن تفسيره بأن الفتاة مع تقدم العمر ومع استقرار تكوينها الجسمى بعد تغيرات المراهقة التى تكون قد استنفدت جانبا كبيرا من طاقتها ، تبدأ تكتسب قوة توفر لها المناعة من العدوى.

ومما يؤيد هذا التفسير باستردادها لبعض الطاقة التى استنفدتها فى بداية المراهقة، نقص انتشار شكواها من التعب كما يتضح فى نقص نسبة انتشار (المشكلة رقم ٧٤) التى تعبر عن الشعور بالتعب فى معظم الأحيان .

جدول رقم (١٤)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق الصحى عند طالبات السنوات الدراسية الثلاث ، والنسب المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة منها فى كل سنة دراسية

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الصحى	النسبة ٪ لطالبات السنة الأولى	النسبة ٪ لطالبات السنة الثانية	النسبة ٪ لطالبات السنة الثالثة
٢٧	الشعور بأنها متعبة جداً فى نهاية اليوم	٨٠	٦٠	٩٠
١٠٢	الشعور بآلام فى الرأس فى بعض الأحيان	٧٥	٥٠	٨٥
١١٩	ضرورة العناية بصحتها عناية دقيقة	٧٥	٥٠	٨٠
٢٣	أنها كثيراً ما تشعر بصداع	٧٠	٣٠	٥٥
٥٤	أنه كثيراً ما توجد عندها غازات فى المعدة والأمعاء .	٦٥	٨٠	٦٥
٢٤	أنها تشعر فى معظم الأحيان بأنها متعبة	٦٠	٦٠	٤٥
٤٣	الإصابة بالبرد كثيراً	٦٠	١٠	٥٠
٩٠	بضايقها الإمساك كثيراً	٦٠	٤٠	٦٠
٦	شدة حساسية العينين للضوء	٥٥	٤٠	٤٠
٦٦	الشعور بالتعب عند الاستيقاظ فى الصباح	٥٠	٧٠	٥٠
٢	سرعة الإصابة بعدوى البرد من الآخرين	٥٠	—	٣٥
٦٣	أن عينيها تتعبان بسهولة	٥٠	٦٠	٥٥
٨٤	الإصابة كثيراً بالتهاب اللوز أو التهاب الحنجرة	٥٠	٢٠	٢٥
٥٨	الشعور بدوخة فى كثير من الأحيان	٤٥	٥٠	٥٠
٢٥	صعوبة الاسترسال فى النوم حتى إذا لم تكن هناك ضوضاء.	٤٠	٧٠	٧٠
٨٧	كثرة الشعور بغثيان أو حدوث قىء أو إسهال	٢٥	٤٠	٤٠
٦٩	ضرورة أن تلقى عناية طبية مستمرة	٢٥	٦٠	٤٥

جدول رقم (١٥)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق الاجتماعى عند طالبات السنوات الدراسية الثلاث ، والنسب المئوية للطالبات صاحبات كل مشكلة منها فى كل سنة دراسية

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الاجتماعى	النسبة ٪ لطالبات السنة الأولى	النسبة ٪ لطالبات السنة الأولى	النسبة ٪ لطالبات السنة الثالثة
١٩	الشعور بالحرج حين الاضطرار لدخول اجتماع عام بعد انخاذ كل واحد فى الاجتماع لمكانه	٩٠	٩٠	٧٥
٣٦	أنها يضايقها الشعور بالخجل	٨٥	٨٠	٦٥
٦٥	قلة التجارب فى الظهور أمام المجتمعات العامة	٨٠	٦٠	٧٥
٤٤	عدم قيامها من قبل بوضع خطط لأشخاص آخرين أو الإشراف على أعمالهم	٧٥	٤٠	٥٠
١٠٤	تفضيل الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء على التعرف بعدد كبير من الأفراد	٧٥	٨٠	٨٥
١٤٠	التردد فى الدخول منفردة إلى غرفة بها مجموعة من الأفراد يتحدثون	٧٥	٦٠	٥٥
٥٦	صعوبة تكوين علاقة صداقة مع أفراد الجنس الآخر .	٧٠	٩٠	٦٠
٦١	تفضيل الاستغناء عن أشياء بدلا من أن تطلب من الآخرين أن يناولوها لها	٧٠	٨٠	٧٥
٨	عدم تولى مسئولية تقديم الناس فى الحفلات	٦٥	٦٠	٧٥
٢٦	عدم القدرة على مسايرة الناس بالتحدث فى الأماكن العامة	٦٥	٥٠	٥٥
١٣٥	التردد فى التسميع أو الإلقاء فى الفصل	٦٥	٥٠	٥٥
٢٢	أنها تجد صعوبة فى الوقوف فى الفصل أمام الطالبات لتتكلم فى موضوع ما	٦٠	٢٠	٢٥
٨٨	أنها لا تتولى الرياسة فى بعض الأعمال أو المهمات الاجتماعية .	٦٠	٤٠	٤٠

٣ ــ التوافق الاجتماعى عند الطالبات فى المستويات الدراسية الثلاث :

يزداد التوافق الاجتماعى للطالبة فى السنة الثالثة ، بالنسبة لبعض مشكلات التوافق التى كانت تعانيها فى السنة الأولى . اذ نجد أن كثيرا من هذه المشكلات يقل انتشارها بين طالبات السنة الثالثة . ويمكننا أن نتبين (من الجدول رقم ١٥) أن هذه المشكلات التى يقل انتشارها يتعلق بعضها بشعور الخجل أو الحرج فى بعض المواقف الاجتماعية ، مثل (المشكلةرقم٣٦)و(المشكلة رقم ١٩) . كذلك نلاحظ أن مشكلة عدم قيام الطالبة بدور قيادى يقل انتشارها قلة ملحوظة كما هو واضح فى المشكلتين رقم ٤٤ ، ١٠٤ وأن ترددها فى بعض المواقف التى تلفت النظر اليها ، مثل الالقاء فى حجرة الدراسة أمام زميلاتها ، هذا التردد يقل انتشاره بين الطالبات كما هوموضح فى النسب المئوية للطالبات المترددات فى السنة الأولى، والمترددات فى السنة الثالثة ، بالنسبة للمشكلتين ١٣٥ ، ٢٢ .

لكن هناك بعض مشكلات فى التوافق الاجتماعى يزداد انتشارها مع تقدم الطالبة فى الدراسة . وكلها تشترك فى أنه كان من الممكن التغلب عليها اذا توفر للطالبة تدريب اجتماعى معين . فالمشكلات رقم ١٠٤ ، ٦١ ، ٨ كلها من مشكلات التوافق الاجتماعى التى كان يمكن أن تزول أو تقل كثيرا عند الطالبات ، لو أننا وفرنا لهؤلاء الطالبات نشاطا اجتماعيا متنوعا ، ووجهنا سلوكهن فى هذا النشاط توجيها صحيحا .

٤ ــ التوافق الانفعالى عند الطالبات فى المستويات الدراسية الثلاث :

يقل انتشار بعض مشكلات التوافق الانفعالى مع التقدم فى السن والدراسة . كما هو موضح فى الجدول (رقم١٦) . ونلاحظ فى هذا الجدول أن المشكلات التى يقل انتشارها هى المشكلات التى تدل على شدة الانفعالية عند الفتاة ، مثل جرح شعورها بسهولة (المشكلة رقم ٨٩) ومثل سرعة البكاء (المشكلة رقم ٣٥) ومثل سرعة الغضب (المشكلة رقم ٦٨) ومثل الخوف من مقابلة الطبيب اذا مرضت (المشكلة رقم ٤) .

وهناك مشكلات توافق تبقى كما هى ، من حيث انتشارها بين الطالبات . مثل كثرة أحلام اليقظة (المشكلة رقم ١) وهى تدل كذلك على شدة الانفعالية

وعلى القلق وعلى أن الفتاة تواجه هذه الحالة الانفعالية ، وذلك القلق بالانسحاب من عالم الواقع الى عالم الأحلام .

جدول رقم (١٦)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق الانفعالى عند طالبات السنوات الدراسية الثلاث ، والنسب المئوية لعدد الطالبات صاحبات كل مشكلة منها فى كل سنة دراسية

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الانفعالى	النسبة ٪ لطالبات السنة الأولى	النسبة ٪ لطالبات السنة الثانية	النسبة ٪ لطالبات السنة الثالثة
٨٩	أن شعورها يجرح بسهولة	٩٠	٨٠	٦٥
١٠	معاناة الشعور بالضيق فى فترات كثيرة	٨٥	٨٠	٩٠
٤٨	الاكتئاب بسبب الحصول على درجات ضعيفة فى الدراسة	٨٠	٦٠	٧٠
٣٥	سرعة البكاء	٧٠	٨٠	٦٠
١١٦	ضيقها ببعض الأفكار التافهة التى يتكرر ورودها على ذهنها	٧٠	٧٠	٨٥
١٢٣	استمرار القلق والضيق لمدة طويلة إذا تعرضت لمواقف تشعر بالإذلال والإهانة	٧٠	٧٠	٧٥
١٣٢	أنها كثيراً ما تشغلها الأفكار إلى درجة لا تستطيع معها النوم	٧٠	٦٠	٦٥
١	كثرة أحلام اليقظة	٦٥	٥٠	٦٥
٦٨	سرعة الغضب	٦٥	٧٠	٥٠
٩٥	القلق بسبب احتمال وقوع بعض الكوارث	٦٥	٧٠	٧٥
١٣٦	الخوف من البقاء وحيدة فى الظلام	٦٥	٥٠	٥٥
٤	الشعور بالخوف إذا اضطرت إلى مقابلة طبيب بخصوص مرض ما .	٦٠	٧٠	٤٠

أما المشكلات التى يزداد انتشارها ، فهى تلك التى تدل على القلق ، مثل معاناة بعض الأفكار التافهة والضيق بها (مشكلة رقم ١١٦) ، ومثل استمرار

القلق والضيق عندها لمدة طويلة اذا شعرت بالاذلال (مشكلة رقم ١٢٣) ومثل احتمال وقوع الكوارث (المشكلة رقم ٩٥) .

هذه الزيادة فى المشكلات الدالة على القلق عند الطالبات ، تقتضى منا التفكير الجدى فى تهيئة خدمات نفسية معينة للطالبات ، يكون من شأن بعضها أن تقى الطالبة من هذا القلق ، ومن شأن بعضها الآخر أن يعالج حالات القلق اذا نشأت وتبيناها ، اما بالطرق الجماعية ، واما بالمقابلة الفردية .

سادسا : توافق الطالبات فى كل قسم من اقسام التخصص العلمى والأدبى :

نعرض أولا الفرق بين أقسام التخصص الأدبى والتخصص العلمى من حيث متوسط درجات التوافق عند طالبات كل قسم من القسمين ، فنجد أنه لا توجد فروق تذكر بين متوسط درجات التوافق عند الطالبات فى كل قسم من قسمى التخصص . كما هو مبين فى الجدول (رقم ١٧) . مما يدل على أن متوسط توافق طالبات الكلية متماثل بين طالبات قسمى التخصص كما هو متماثل بين طالبات السنوات الدراسية الثلاث ، وقد كنا نظن أن طالبات القسم الأدبى والدراسات الانسانية بالذات ، ربما يكن قد استفدن من دراستهن لعلوم النفس والاجتماع فى حياتهن المنزلية والاجتماعية والانفعالية ، لكن الأرقام لا تثبت ذلك .

جدول رقم (١٧)

يبين متوسط درجات التوافق عند طالبات كل قسمين من اقسام التخصص الأدبى والعلمى

التخصص	متوسط التوافق الكلى	متوسط التوافق المنزلى	متوسط التوافق الصحى	متوسط التوافق الاجتماعى	متوسط التوافق الانفعالى
الأدبى	٥١٫٣٣	٧٫٨٢	١٢٫٥١	١٦٫٠	١٦٫٦٨
العلمى	٥١٫٦٠	٧٫٦٤	١٢٫٨٠	١٦٫٠٩	١٦٫٨٨

فاذا انتقلنا الى نوع مشكلات التوافق التى تعانيها طالبات كل قسم من قسمى العلوم والآداب ، وجدنا ما يلى فى كل مجال من مجالات التوافق الأربع .

١ ــ التوافق المنزلى عند طالبات القسم الأدبى وطالبات القسم العلمى :

تنتشر بعض مشكلات التوافق المنزلى عند طالبات القسم العلمى أكثر مما تنتشر عند طالبات القسم الأدبى كما يتضح لنا من الجدول (رقم ١٨) من هذه المشكلات : التشاجر مع الأخوة (المشكلة رقم ٥٩) ، والاختلاف مع الأبوين بخصوص المستقبل (المشكلة رقم ١٢١) ومثل الخوف من تصرفات أحد الوالدين (المشكلة رقم ٨٦) .

جدول رقم (١٨)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق المنزلى عند طالبات القسم العلمى وطالبات القسم الأدبى والدراسات الانسانية ، كما يبين النسب المئوية لعدد الطالبات صاحبات كل مشكلة فى كل قسم من القسمين

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق المنزلى	النسبة ٪ لطالبات القسم الأدبى	النسبة ٪ لطالبات القسم العلمى
١٠١	سرعة غضب أحد الوالدين	٥٧	٤٥
٤٦	سرعة تهيج أحد الوالدين واستثارته	٥٠	٣٥
٥٩	التشاجر مع الأخوة	٤٠	٦٠
٧٢	وجود عادات شخصية تثيرها عند أحد الوالدين	٣٣	٢٥
١٠٣	البيت غير مزود بجميع الضروريات	٣٣	٣٥
١٢١	الاختلاف مع أحد الوالدين حول العمل الذى تريد أن تقوم به فى الحياة	٣٣	٤٠
١٢٦	أحد الوالدين عصبى جداً	٣٠	٢٥
٩٢	الشعور بعواطف متناقضة من الحب والكراهية نحو أفراد الأسرة .	٣٠	١٥
٥١	الاختلاف مع أحد الوالدين كثيراً حول الطريقة التى ينبغى أن يتم بها شغل البيت .	٣٠	٣٠
٥٥	مشاحنات عائلية كبيرة بين الأقرباء المقربين	٢٦	٣٠
٨٦	تصرفات من أحد الوالدين تثير خوفاً شديداً فى نفسها .	٢٦	٤٠

لكن يقل انتشار بعض المشكلات كذلك فى القسم العلمى عنه فى القسم الأدبى ، ومن المشكلات التى يقل انتشارها قلة واضحة : الشعور بعواطف متناقضة نحو أفراد الأسرة (المشكلة رقم ٩٢) وسرعة تهيج وغضب أحد الوالدين (المشكلتان ٤٦ ، ١٠١) .

٢ ــ التوافق الصحى عند طالبات القسم الأدبى وطالبات القسم العلمى :

ينتشر الشعور بالتعب عند طالبات القسم العلمى أكثر من طالبات القسم الأدبى . فنجد ٩٠٪ من طالبات القسم العلمى يشعرن بتعب شديد فى نهاية اليوم

جدول رقم (١٩)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق الصحى عند طالبات القسم العلمى وطالبات القسم الأدبى والدراسات الانسانية كما يبين النسب المئوية لعدد الطالبات صاحبات كل مشكلة فى كل قسم من القسمين

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الصحى	النسبة ٪ لطالبات القسم الأدبى	النسبة ٪ لطالبات القسم العلمى
١٠٢	الشعور بآلام فى الرأس فى بعض الأحيان	٧٧	٧٠
٥٤	كثرة وجود غازات فى المعدة والأمعاء	٧٣	٦٠
٢٧	الشعور بأنها متعبة جداً فى نهاية اليوم	٧٣	٩٠
١١٩	ضرورة العناية بصحتها عناية دقيقة	٦٣	٨٥
٢٥	صعوبة الاسترسال فى النوم حتى إذا لم تكن هناك ضوضاء	٦٠	٥٥
٩٠	يضايقها الإمساك كثيراً	٥٧	٥٥
٦	شدة حساسية العينين للضوء	٥٧	٣٠
٦٣	أن عينيها تتعبان بسهولة	٥٣	٥٥
٦٦	الشعور بالتعب عند الاستيقاظ فى الصباح	٥٠	٦٠
٧٤	أنها تشعر فى معظم الأحيان بأنها متعبة	٥٠	٦٠
٢٣	أنها كثيراً ما تشعر بصداع	٤٧	٧٠
٥٨	الشعور بدوخة فى كثير من الأحيان	٤٧	٥٠

(المشكلة رقم ٩٠) . كذلك ينتشر عندهن أكثر من طالبات القسم الأدبى الشعور بالتعب عند الاستيقاظ فى الصباح (مشكلة رقم ٦٦) كما ينتشر عندهن أكثر من طالبات القسم الأدبى الشعور بصداع والشعور بضرورة العناية بالصحة عناية دقيقة .

ولا تنتشر عند طالبات القسم الأدبى أكثر من القسم العلمى سوى هذه المشكلات الثلاث : آلام الرأس (المشكلة رقم ١٠٢) ، وغازات فى المعدة (مشكلة رقم ٥٤) وشدة حساسية العينين للضوء (المشكلة رقم ٦) .

٣ ــ التوافق الاجتماعى عند طالبات القسم الأدبى وطالبات القسم العلمى :

تنتشر عند القسم الأدبى ، أكثر من القسم العلمى مشكلات مثل : الشعور بالخجل (مشكلة رقم ٣٦) صعوبة تكوين علاقة صداقة مع الجنس الآخر (مشكلة رقم ٥٦) . صعوبة طلب المساعدة من الآخرين (مشكلة رقم ٣١) وغير ذلك من المشكلات الموضحة فى الجدول (رقم ٢٠) .

ويلاحظ أن هذه المشكلات جميعا مما يدل وجوده على نقص فى الخبرة بالحياة فى مجتمعات . ولعل وجود طالبة القسم العلمى فى معظم الأحيان مع زميلاتها جميعا فى المعمل ، وتعاملها وتعاونها معهن فى اجراء التجارب المعملية مما يوفر لها هذه الخبرة الاجتماعية .

أما فيما يختص بباقى مشكلات التوافق الاجتماعى الشائعة بين الطالبات ، فنجد أنها تنتشر عند طالبات القسم العلمى أكثر مما تنتشر عند طالبات القسم الأدبى .

٤ ــ التوافق الانفعالى عند طالبات القسم الأدبى وطالبات القسم العلمى :

يتضح لنا من الجدول (رقم ٢١) أن مشكلات التوافق الانفعالى تنتشر عند طالبات القسم العلمى أكثر مما تنتشر عند طالبات القسم الأدبى . وأن أكثرها انتشارا تلك المشكلات التى تدل على الانفعالية الشديدة ، وعلى القلق ، مثل : جرح شعورها بسهولة (المشكلة رقم ٨٩) وسرعة البكاء (مشكلة ٣٥) . ومعاناة الشعور بالضيق (المشكلة رقم ١٠) وغير ذلك من مشكلات التوافق الانفعالى .

جدول رقم (٢٠)

يبين الأنواع الشائعة من مشكلات التوافق الاجتماعى عند طالبات القسم العلمى وطالبات القسم الأدبى والدراسات الانسانية ، كما يبين النسب المئوية لعدد الطالبات صاحبات كل مشكلة فى كل قسم من القسمين

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلات التوافق الاجتماعى	النسب ٪ لطالبات القسم الأدبى	النسب ٪ لطالبات القسم العلمى
١٩	الشعور بالحرج حين الاضطرار لدخول اجتماع عام بعد اتخاذ كل واحد فى الاجتماع لمكانه	٨٣	٨٥
٣٦	أنها يضايقها الشعور بالخجل	٨٣	٦٥
٥٦	صعوبة تكوين علاقة صداقة مع أفراد الجنس الآخر	٧٧	٦٠
٦٥	قلة التجارب فى الظهور أمام المجتمعات العامة	٧١	٧٥
١٠٤	تفضيل الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء على التعرف بعدد كبير من الأفراد	٧١	٩٠
٣١	صعوبة أن تطلب من الآخرين أن يساعدوها	٧٠	٥٥
٦١	تفضيل الاستغناء عن أشياء بدلا من أن تطلب من الآخرين أن يناولوها لها	٧٠	٨٠
٨	عدم تولى مسئولية تقديم الناس فى الحفلات	٦٦	٧٠
١٤٠	التردد فى الدخول منفردة إلى غرفة بها مجموعة من الأفراد يتحدثون .	٦١	٦٥
٩٣	تفضيل الوقوف أو مغادرة الاجتماع إذا حضرت متأخرة عن الجلوس فى مقعد أمامى	٥٣	٤٥
١١٠	الشعور بالحرج إذا اضطرت للانصراف حينما تكون مع جماعة .	٥٣	٤٠
٤٤	عدم قيامها من قبل بوضع خطط لأشخاص آخرين أو الإشراف على أعمالهم .	٥٣	٦٥

ولعل السبب فى ذلك قلة فراغ طالبات القسم العلمى ، مما لا يسمح لهن الاشتراك فى النشاطات الاجتماعية والترفيهية فى غير أوقات الدراسة ، وبالتالى

لا يهيىء لهن فرصة التعبير عن النفس بالحديث مع الزميلات أو بغير ذلك من وسائل التعبير التى تهيئها النشاطات الترفيهية والاجتماعية ، والتى من شأنها أن تخفض من شدة القلق والتوتر الانفعالى .

جدول رقم (٢١)

يبين الانواع الشائعة من مشكلات التوافق الانفعالى عند طالبات القسم العلمى وطالبات القسم الأدبى والدراسات الانسانية ، كما يبين النسب المئوية لعدد الطالبات صاحبات كل مشكلة فى كل قسم من القسمين

رقم المشكلة فى الاختبار	مشكلة التوافق الانفعالى	النسبة ٪ لطالبات القسم الأدبى	النسبة ٪ لطالبات القسم العلمى
١٠	معاناة الشعور بالضيق فى فترات كثيرة	٨٣	٩٠
٩٥	القلق بسبب احتمال وقوع كوارث	٧٠	٧٠
٨٩	أن شعورها يجرح بسهولة	٧٠	٩٠
٣٥	سرعة البكاء	٦٦	٧٠
٨١	إنها سريعة الخجل	٦٦	٦٠
١١٦	ضيقها ببعض الأفكار التافهة التى يتكرر ورودها على ذهنها	٦٦	٩٠
١٢٣	استمرار القلق والضيق لمدة طويلة إذا تعرضت لمواقف تجعلها تشعر بالإذلال والإهانة .	٦٣	٨٥
٦٤	الشعور بالخوف حينما تقف على مكان مرتفع من فكرة القفز من هذا المكان .	٦٣	٥٥
٤٨	الاكتئاب بسبب الحصول على درجات ضعيفة فى الدراسة .	٦٣	٨٥
١٢٨	تقلب حالتها الوجدانية بين السعادة والحزن دون سبب ظاهر .	٦٠	٦٠
٦٨	سرعة الغضب .	٦٠	٦٠
١٣٢	إنها كثيراً ما تشغلها الأفكار إلى درجة لا تستطيع معها النوم .	٥٧	٨٠
١٣٦	الخوف من البقاء وحيدة فى الظلام .	٥٧	٦٠

سابعا : العلاقة بين التوافق وبين التحصيل الدراسى :

اتخذنا درجة النجاح فى الشهادة الثانوية العامة مقياسا لتحصيل الطالبة ، ولذلك أجرينا هذا الجانب من البحث على طالبات السنة الأولى وحدها . وقد كان اختيارنا لدرجة النجاح فى الشهادة الثانوية مقياسا للتحصيل الدراسى لأن هذا الامتحان يعقد فى وقت واحد بالنسبة لجميع الطالبات ، وتكون الأسئلة واحدة وطريقة التصحيح واحدة مما يجعله أقرب ما يكون الى اختبارات التحصيل المقننة .

وكانت النتيجة التى توصلنا اليها هى المبينة فى الجدول (رقم ٢٢) ومنه تتبين أن الارتباط بين تحصيل الطالبات وبين توافقهن ارتباط سلبى يعنى هنا أنه كلما زادت درجة التحصيل قلت مشكلات التوافق عند الطالبة ــ وكان هذا هو المتوقع غير أن هذه الارتباطات كلها غير دالة مما يجعلنا لا نعتمد عليها فى تحديد العلاقة بين التحصيل وبين التوافق ، اذ ربما تكون قد نشأت نتيجة لعامل الصدفة

جدول رقم (٢٢)

يبين معاملات الارتباط بين التحصيل الدراسى وبين التوافق الكلى وأنواع التوافقات الأخرى الطالبات (العينة ٣٥٠ طالبة)

المتغير (أ) / المتغير (ب)	التوافق الكلى	التوافق المنزلى	التوافق الصحى	التوافق الإجتماعى	التوافق الانفعالى
التحصيل الدراسى	— ١٣ر٠	— ٤ ر٠	— ٢٠ر٠	— ٠٦ر٠	— ١٧ر٠
الدلالة الإحصائية	غير دال	غير دال	غير دال	غير دال	غير دال

ثامنا : العلاقة بين التوافق وبين الذكاء :

استخدم فى هذا الجانب من البحث اختبار الذكاء الثانوى للقبانى . فأجرينا هذا الاختبار على ١٠٠ طالبة ، ثم قمنا باستخراج معامل الارتباط بين درجات هؤلاء الطالبات فى هذا الاختبار ، وبين درجاتهن فى اختبار التوافق . وكانت النتائج كما هى مبينة فى الجدول (رقم ٢٣) . ومنه تتبين أن الارتباط بين درجات الذكاء وبين درجات التوافق ارتباط سلبى فيما يختص بالتوافق الكلى والتوافق

الصحى والتوافق الانفعالى ، بمعنى أنه كلما زادت درجة الذكاء قلت مشكلات التوافق الكلى والتوافق الصحى والتوافق الانفعالى عند الطالبة . أما مشكلات التوافق المنزلى ومشكلات التوافق الاجتماعى فانها تزداد بزيادة درجة الذكاء .

جدول رقم (٢٣)

يبين معاملات الارتباط بين الذكاء وبين التوافق الكلى وانواع التوافقات الأخرى عند الطالبات (العينة ١٠٠ طالبة)

المتغير (أ) المتغير (ب)	التوافق الكلى	التوافق المنزلى	التوافق الصحى	التوافق الاجتماعى	التوافق الانفعالى
الذكاء	ـ ٠ر١٣	٠ر٠٠١	ـ ٠ر١٢	٠ر٠٥	ـ ٠ر١٦
الدلالة الإحصائية	غير دال	غير دال	غير دال	غير دال	غيردال

ومع ذلك ، فهذه الارتباطات كلها غير دالة مما يجعلنا نمتنع عن الحكم بوجود أى ارتباط بين درجات الذكاء وبين درجات التوافق جميعها . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن اتجاه الارتباط بين مشكلات التوافق الكلى ومشكلات التوافق الصحى والانفعالى هو الاتجاه المتوقع الذى يؤكد أن زيادة نسبة الذكاء يصحبها نقص فى مشكلات التوافق ، فالذكاء قبل كل شىء سلوك توافقى .

(يتبع)

UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 5 - JULY 1967

Public Organisation for Books and Scientific Appliances
AIN SHAMS UNIV. PRESS
1969

Editior : Dr. M. M. ALSAYYAD

CONTENTS

Page

Esquisse D'une Esthetique de la Critique Litteraire
par Anwar Abdel-Aziz 1

An Unpublished Shelley Translation
by Adel M. Salama 23

Factors Affecting Percentage Backscattered X-Radiation
by M. Mokhtar, M. Mahrous and A. Mesbah 27

The Effects of Storage on Co^{60}-Gamma Radiated Vicia Faba. Seeds
by Hoda Hakim 47

Two Elasmobranchs from the Mediterranean
by F.M. Mazhar 53

ESQUISSE D'UNE ESTHETIQUE DE LA CRITIQUE LITTERAIRE

Par

ANWAR ABDEL-AZIZ

Professeur à la Faculté de Jeunes Filles

de l'Université d'Ain-Chams au Caire

INTRODUCTION

La critique littéraire fut, dans sa plus grande partie, une série ininterrompue de contradictions, de querelles et d'invectives échangées tous les jours entre ses législateurs, doctrinaires et dogmatisants. Elle n'a jamais voulu être ce qu'elle a été, ou, même ce qu'elle est aujourd'hui. L'on peut facilement établir une Anthologie bien volumineuse et assez amusante où l'on énumererait ces « prises de bec » périodiques, mais qui ne serait pas d'une grande utilité pour qui voudrait réfléchir sur cette activité dont le caractère essentiel à dégager est le fait qu'elle représente un certain « Beau », qu'elle met en valeur la contemplation et la création esthétiques, et qu'elle contribue à faire de l'univers artistico-littéraire une unité indivisible, laquelle est représentative du monde de l'Art. Activité humaine par excellence, la critique littéraire n'est sans rapport ni avec la Science, ni avec la philosophie. Elle ne peut donc être pur « havardage » ; elle s'annihile d'elle-même dès qu'elle se met à annihiler, se détruit à partir du moment où elle cherche à détruire, et, à l'inverse, devient fade lorsqu'elle loue et prend la forme d'un panégyrique. Que doit-elle donc faire ? Expliquer, commenter, analyser et synthétiser ? Créer en recréant ou en récréant ? Récréant dans le monde particulier du génie pour y déceler les constantes de son imagination et l'origine de ses facultés créatrices ? Est-elle dogmatisme ou art de plaire ? Raison ou Goût ? Déterminisme ou hédonisme ? Critique de beautés et non pas de défauts ? Tous les siècles passés ont vu se poser de telles questions d'une manière ou d'une autre et ont essayé d'y répondre sans y réussir pleinement parce que ces questions ont été souvent mal posées. Le nôtre ne fait pas exception à la règle, bien qu'on le voie en train de concilier et de se concilier, en les redressant, toutes les contradictions, de courir ensuite cette aventure périlleuse qui consiste à n'en vouloir garder que ce qu'il considère comme susceptible de vivre dans l'éternité. Il tend ainsi à universaliser la critique en l'humanisant, à hénir, en se fondant sur ce qui est préalablement connu, ce qui, à ses yeux, favoriserait la continuité du patrimoine humain, et, enfin à en

faire un prétexte à remettre en question le problème de la création esthétique qui, grâce à sa variété infinie, représente la pensée humaine.

Depuis Boileau, et loin de toute tendance « parasite » ou théorisante la critique littéraire a été elle-même création. Non pas créatrice au sens donné habituellement à ce terme et auquel on reproche d' « oublier » l'oeuvre qu'on est censé examiner, en vue de s'ériger soi-même comme créateur, mais création pure, entendons poésie. Boileau a créé ainsi *l'Art Poétique* qui est une oeuvre créée en soi, et du même coup, une oeuvre tout court. Plus tard, P. Claudel ajoutera à la production littéraire pure un autre *Art Poétique* qui sera connaissance et, selon son terme, co-naissance. Les *Prétextes* de Gide sont en quelque sorte des prétextes à critiquer. Déjà, *les Causeries du Lundi*, les *Portraits* et *Port-Royal*, comme jadis certains *Caractères* étaient et sont encore oeuvres littéraires à intention critique. Ce sont des oeuvres dont la lecture nous « plaît » et qui nous invitent à nous y complaire. La fusion qui n'est pas confusion entre oeuvre littéraire et oeuvre de critique est donc une réalité. D'ailleurs la tragédie, la comédie, le roman, le poème ou le conte ne sont « en soi » qu'une traduction implicite et très indirecte d'une attitude de critique, du fait que toute oeuvre nous renseigne sur la conception de son auteur.

En fait, *il y a* depuis toujours une critique littéraire à caractère esthétique. Une Esthétique de la critique littéraire se justifie donc d'elle-même. Elle n'est pas une invention puisqu' elle *existe*. Il s'agit ici de la remettre en valeur, et, avant cela même, essayer de la définir. Et, comme toute définition n'est possible que si elle a recours à d'autres notions préalablement connues, il serait indispensable d'avoir recours à l'histoire, et tout particulièrement à l'histoire de la critique à tendance esthétique, laquelle nous semble seule valable du fait qu'elle satisfait seule et l'intelligence et l'imagination.

Pourtant, la pure intention critique n'est, ne peut être négligée. Non pas celle des faux-brillants qui, trop intéressés, n'ont vécu qu'un jour, mais celle des penseurs dont la postérité a gardé et garde encore la pensée, ceux aussi qui, de nos jours, comme M.M. Ch. Mauron, J. Paulhan, M. Blanchot, J. Starobinski entre autres, ont repris les idées déjà répandues à une époque déterminée en les approfondissant et en les élargissant. Il semble par exemple que la psychocritique de M. Mauron n'est pas sans rapport avec l'esthopsychologie d'Emile Hennequin, que le regard critique dû à un second sens tel que le pratique M. Starobinski n'est pas sans rapport avec l'esthétique de l'émotion physique telle que l'Abbé Du Bos l'a préconisée.

D'aucuns estiment que la critique ne peut pénétrer dans le champ particulier de l'Esthétique, que les « non-philosophes » n'y ont pas droit

de cité. Pourtant l'Esthétique admet, sans le dire, certains exégètes, certaines manifestations littéraires et même critiques et s'en sert comme instrument de justification. Si, à titre d'exemple un Valentin Feldman, dans son *Esthétique Française Contemporaine* (1) s'oppose énérgiquement à ce que les « bavards » soient admis dans le vaste royaume de l'Esthétique, c'est qu'il oublie, il aurait fallu le lui rappeler, que non seulement Platon, donnant à la poésie une prééminence à part, que non seulement Aristote s'est occupé de l'Art-production, mais surtout le fait que la *Critique du Jugement* est nourrie, quoi qu'en dise Bosanquet (2), de la littérature classique française. Beaucoup plus récemment, des contemporains de Feldman, ceux que Thibaudet cite dans sa *Physiologie de la Critique*, les Gabriel Marcel, les Du Bos et les Joseph Benda, ont passé volontiers de la philosophie à la critique, et ont fait de la Critique littéraire l'objet d'études esthétiques qui ont leur valeur, et qu'enfin P. Valéry a souvent inauguré des Congrès d'Esthétique. On peut d'ailleurs se demander si Bergson philosophe n'a pas été en même temps un écrivain, et réciproquement M. Proust est partout cité dans les manuels d'Esthétique.

En réalité, une sorte de co-existence pacifique a commencé depuis quelque temps à voir le jour. La critique ne se sert-elle pas de la psychologie, de la sociologie, même de la métaphysique pour s'humaniser et s'universaliser ? Et, en devenant elle-même un art, ne contribue-t-elle pas à enrichir le patrimoine humain en ajoutant une pierre au Panthéon de la Pensée ?

On peut nous opposer l'assertion qui consiste à « confondre » ou à « fondre » critique et esthétique, ou encore et d'une manière plus générale, critique et philosophie. Mais depuis Platon, la critique ne fut-elle pas un « convivium » ? Et que fait Schelley si ce n'est que défendre la poésie, et Nietzsche si ce n'est que chercher « la naissance de la tragédie » ? Thibaudet a eu raison de prévoir la naissance proche d'une critique littéraire « formée chez les philosophes, préparée par un culte philosophique (3) », et ce n'est déjà là qu'une réalité.

Cependant théoriser trop, c'est lasser. « On voudrait lire, dit M. P.H. Simon, pour retrouver le jeu des images et le chant des mots, la connaissance immédiate de l'essence poétique et de la musique verbale (4) ». Pour ce faire, il sera indispensable de ne pas nuire à un essai de ce genre en y

---

(1) Ed. P.U.F. 1961.

(2) Bosanquet : *History of Aesthetic*, cité par M. Huisman dans *Esthétique*. éd P.U.F. 1962, note que Kant a préalablement rejeté toute influence.

(3) *Physiologie de la Critique*, op. cit. P 166.

(4) *Le Monde* du 14 Août 1963.

mettant trop de spéculation. Cet essai rejette toute tendance à disséquer l'Oeuvre en vue d'on ne sait quoi qui n'ajoute rien à la Pensée humaine. Il refuse toute « critique » qui considère la production artistico-littéraire comme un objet extérieur à analyser, à commenter ou à expliquer, écarte toute digression verbale, tout apriorisme creux qui s'emploie à importuner le lecteur désireux de concevoir et de percevoir cette « chose visible » qu'est l'oeuvre. Car la critique de fantômes nous leurre, semblable en ceci à toute réflexion purement mentale qui se nourrit souvent de songeries et erre autour d'un thème en ne tenant compte que d'une loi, laquelle se réfute d'elle-même, n'ayant pas été promulguée d'après un « contrat social » entre gouvernés et gouverneur. Or, assainir la critique de ce dessein trompeur, la ramener à son domaine d'origine qui est celui du Beau, de l'Art et des Beaux-Arts, c'est la « refaire », sans toutefois la codifier puisqu'elle est de nature incodifiable. D'autre part, tout essai qui se prétend parfait se fausse d'avance. Saint-Exupéry l'a bien dit : la perfection est le stade où il n'y a plus rien à ajouter ; où aussi il n y a plus rien à retrancher. Avouons qu'ici, il y aura beaucoup à retrancher et à ajouter. Car s'il s'agit d'une Esthétique, il s'agit du Beau. Or, qu'est-ce que le Beau ? Et l'Art ? Une Esthétique quelconque ne peut être une maxime qu'on inscrit sur une table de pierre. Comme toute notion, celle-ci serait sans cesse reprise et reforgée au profit de l'Humanité qui, semble-t-il, a commencé déjà à se lasser des redites et des contradictions de la critique.

La Critique est avant tout une attitude, une conscience qu'on en a et une expérience des réalités littéraires et artistiques. Cette expérience n'a pas de limites. Elle s'étend, dans le cadre du fini humain, jusqu'aux diverses connaissances des différents domaines, et, la traditionnelle échelle des valeurs se justifie ici comme partout en écartant ce qui se trouve inférieur par rapport à ce qui se démontre comme supérieur. Ce qui peut être considéré comme supérieur est censé réunir dans son sein le plus de savoir possible. Or, le savoir n'a pas de limites aussi. Il peut se transporter d'un domaine à un autre en tendant un fil conducteur entre tous les domaines possibles. Ce fil conducteur fait du Savoir une unité Une. A l'intérieur de celle-ci, toute distinction entre tel ou tel domaine se supprime d'elle-même. En matière de critique littéraire à caractère esthétique, toute distinction ne peut avoir sa raison d'être. K. Marx a voulu mettre en pratique sur le plan social la suppression absolue des distinctions. Il semble que sa tentative se soit déjà révélée vaine et que son espoir soit sûrement voué à l'échec. Sur le plan de l'Esthétique de la critique, au contraire, étant donné qu'il s'agit avant tout d'humaniser cette activité qui est en elle-même humaine, il ne peut y avoir même une zone neutre entre, avons-nous dit, critique et Belles-Lettres, ni même entre ce

Tout et les domaines prétendus indépendants de la Science, de la Philosophie et de l'Art. Dans les limites du fini humain pourtant, un seul individu, une seule collectivité même, ne peut en aucune façon, à travers rapprochements, comparaisons et groupements, exploiter *tous* les genres du savoir. L'homme ne peut à lui seul être l'auteur de l'Encyclopédie la plus simplifiée. Il peut à la rigueur prévoir, comme le fait Anatole France qu'un jour la Critique, en tant que genre littéraire, absorbera tous les autres genres. Il peut aussi, comme l'a fait M. Gaëtan Picon penser et rédiger une Esthétique de la Littérature. Un penseur qui cherche à « s'intellectualiser », et le critique l'est, ou du moins, doit l'être, cherchera le savoir partout où il la trouvera, tel Nathanaël. De Boileau à Voltaire, de celui-ci à Sainte-Beuve, et de ce dernier à Gide, à M. Malraux et à tous nos contemporains, on va inconsciemment vers ce dépassement des distinctions. L'on y va sans toutefois atteindre le « no man's land », sans même tenter de l'approcher. Bien au contraire, on essaye de rester ici-bas. Or, toute critique digne de ce nom, sans trop accumuler et sans prendre des hauteurs, peut prendre en témoignage toutes les « nourritures terrestres » et s'en nourrir. Un critique qui serait nourri de l'histoire de la littérature, de la critique et des Beaux-arts, de leurs techniques et de leurs réalisations serait capable de pénétrer dans les profondeurs du labyrinthe de son « métier » et sera lui-même un « homme de métier ». S'il est en plus, au moins, « au courant » des réalisations scientifiques, de recherches psychologiques, sociologiques, etc..., il sera encore plus sûr de lui-même et de ses art. Il ne s'agit là d'un prechi-prêcha d'aucune sorte. Il est question plutôt d'un problème avant tout humain. Tout comme la tentative qu'un sociologue désintéressé peut amorcer pour réduire l'effet des critères du milieu, de la race et même du temps pour le bien-être de l'Homme, et tout comme un médecin qui fournit à toutes les nations le résultat de ses recherches sur une maladie jusqu'ici inguérissable.

Les écrivains de notre siècle, qui sont, dans leur grande majorité, des critiques aussi, semblent se diriger actuellement vers ce vaste domaine d'une Critique humanisante, et les Prix, en particulier le Prix Nobel, ne sont habituellement accordés qu'à ceux qui agissent dans ce sens. Au moins, à ceux qui accordent aux hommes une « promesse de bonheur » quelconque... un certain Beau qui, bien qu'indéfinissable, est toujours et partout le même dans sa variété, laquelle variété ne peut être décelée que par un critique à facultés et à imagination intellectualisées dans la mesure la plus vaste et la plus humaine possible.

CHAPITRE PREMIER

CRITIQUE ET ESTHETIQUE

Du Beau en Critique. L'Art et la Critique. Les Beaux-Arts et la Critique. Les activités esthétiques et l'activité critique.

Du dogme et du dogmatisme. Du Goût et du « Je ne sais quoi ».

Diversité, ambiguité et spécifitité de la Critique.

Critique de la foire, du laboratoire et de la tour d'ivoire.

Esthétique de la Critique.

DU BEAU EN CRITIQUE

On sait depuis longtemps que toute tentative ayant pour but de définir le Beau enferme l'aventurier qui s'y engage dans un labyrinthe inextricable de conceptions. Si l'époque classique le rattache ou l'identifie au vrai, celui-ci se révèle à son tour aussi ambigü que le Beau. Boileau qui préconise cette identité a recours en même temps au plus vague des sentiments, qu'il nomme le « je ne sais quoi ». Il n'est pas le dogmatisant qu'on peut penser ou qu'on pense. Il semble que le Beau, à ses yeux, soit le résultat d'un « je sens et je pense, donc, je suis », que toute critique valable soit pour ainsi dire à la fois cartésienne et gidienne. La sienne propre fut pratiquement un acte judicatif fondé sur la Raison et une certaine affectivité préférentielle. Si le Beau est à ses yeux celui qui fut pratiqué par les Anciens, remoulé ensuite comme l'avaient voulu Du Bellay et Malherbe dans un moule français et perfectionné au maximum, c'est que Boileau a, au moins, une conscience de ce Beau qui se reflète sans toutefois se laisser définir. En défendant le *Cid*, il se le recrée, et, en parlant de *Phèdre*, il dévoile son amour pour elle, se sent transporté par sa « beauté » qui est la beauté de toutes les Phèdres. Il s'en va vers un au-delà où il se sent attiré par l'âme de Phèdre, de n'importe laquelle, et non pas essentiellement celle de Racine. Pourtant, cette beauté émane de l'imparfait terrestre. Elle est jugeable dans un cadre de relativité et de variabilité. Aussi, doit-il la transmettre au public, à cette collectivité qui admire, et, pour ce faire, il aura à présenter son acte judicatif sous une forme « agréable » que Boileau se plaît à créer et qui, en fin de compte, nous plaît. Si bien que, abstraction faite de la

pièce de Racine, le « poème » de Boileau est en lui-même un poème. Celui-ci fait aimer davantage la pièce. Le lecteur de Boileau exerce ainsi une double contemplation. Celle-ci ne peut être exercée qu'à condition de la présence du Beau. Preuve en est dans le fait que le poème, et, d'une manière générale *l'Art Poétique* ont vécu, vivent encore dans nos esprits, tout comme *Phèdre*. Cet état de choses est dû, non pas tout à fait à ce que Boileau applique, *à priori*, le Dogme, dieu éternel mais fragile puisque le Goût lui déclarera une guerre des plus atroces, mais à ce que le grand critique fonde son jugement sur une liberté non-déclarée. N'a-t-il pas admiré la tolérance de Louis XII répondant à ceux qui lui demandaient de se venger de ses anciens ennemis en disant : « un roi de France ne venge point les injures d'un Duc d'Orléans ? » Or, le Beau d'après Boileau est un beau à base de liberté. Il est aussi à base d'amour, avons-nous vu. C'est l'Amour qui munit un critique des moyens d'appréhender la Beauté, celle de Racine bien entendu, mais celle de tout génie qu'un autre génie comme Boileau peut sentir et comprendre.

Pourtant, cette beauté est classique : elle l'est du fait qu'elle se revêt d'une forme poétique et qu'elle défend la Tragédie qu'Aristote met au sommet de toute expression littéraire parce qu'elle imite « des êtres plus grands que le vulgaire ou meilleurs que le vulgaire » (Poétique XV). Comme Aristote, néo-platonicien dissident. Boileau juge ainsi ses contemporains en en dégageant une beauté libre et sentie par un « amoureux », non pas, comme on le pense, parce qu'ils ont su imiter, mais plutôt parce qu'ils ont produit des types modernes dans lesquels s'incarne une beauté moderne. Celle-ci sera à l'origine d'une autre beauté puisque dans les *Satires* il est question d'une Muse furieuse et capricieuse :

> Jusqu'à quand vos fureurs doivent-elles durer ?
> Répondez-moi, Esprit, ce n'est plus raillerie.
> Dites...mais direz-vous pourquoi cette furie ?
>
> Satires X

Il est donc question pour ce « juge initié » (id) de rechercher le Beau. Celui-ci est reconnaissable, moins dans le Dogme que dans un « certain agrément et un certain sel, dit-il, propres à piquer le goût général des hommes ». Entre ce goût et Racine, c'est à dire entre le public et l'oeuvre, le critique se tient ; il est constamment en quête du Beau qu'il se chargera de communiquer à ce public qu'il initie à son tour. Le plaisir de celui-ci aurait été incomplet, ou insuffisant si le critique ne l'avait pas incarné à travers son poème. Quelle différence entre ce plaisir et celui que Scudéry aurait voulu inculquer au public. Tout le monde n'est pas Boileau. Le vrai critique est celui qui « éprouve une sorte d'envahissement quasi-sexuel

des choses,... d'immixion au plus secret de leur être... », et qui sent « sa bile s'échauffer, et brûle d'écrire,... (qui) ira creuser la terre... ». Mais il y a toujours quelque chose qu'il n'ose dire «au papier(1) », avoue-t-il. La conscience reste enchaînée à une époque où tout est règle. Que faire donc pour se libérer d'un conflit intérieur, le critique étant comme tout héros classique l'objet d'un conflit ? Il n'y a que ce moyen qui consiste à s'exprimer dans « le bon mot » de sorte qu'il n'enrage pas un Louis XIV. La Langue, on le voit bien, donne à l'oeuvre critique sa valeur, tout comme le dessin et la couleur donnent à la toile sa valeur. Poètes, dit la Muse de Boileau, «il ne s'agit pas de proser de la rime, et de rimer de la prose(2) ». Le Beau doit donc se revêtir d'une forme artistique, et tout le monde n'est pas capable de retrouver cette forme. Les faux-brillants qui étaient les contemporains de Boileau, tels Chapelain et Guez de Balzac n'ont pas saisi ces faits, et auraient été incapables de les saisir parce qu'ils ne pouvaient pas prévoir l'immédiateté du contact entre l'oeuvre et le public, et se sont livrés, d'une part à la polémique, et de l'autre, au commentaire, lequel ne fait le plus souvent que corrompre. Bossuet l'a bien dit dans ses *Maximes*. Plus tard, on constatera cette immédiateté et on lui donnera nom : la participation : Boileau participe au jeu et y fait participer. grâce à son poème, tout spectateur ou lecteur.

A un siècle qui se caractérise par «la décadence de la verve poètique à mesure que l'esprit philosophique fait son progrès » comme le constate Diderot , on ne pouvait s'attendre qu'à des tentatives ayant pour but de détruire ce type de beauté que Boileau avait préconisé. Voulant être le critique de la critique classique, Voltaire, se réclamant de Montaigne, cherche lui aussi à dire son « advis » dont il essaye de faire le « goût » de tout le monde. Boileau est jaloux de Quinault, dit-il. « Qu'avons-nous à faire d'un homme qui, pour juger, ne fait que rimer » à un vers qui finissait en -aut, dénigrant tantôt Boursault, tantôt Hénault, tantôt Quinault, selon qu'il était bien ou mal avec ces messieurs-là ? » (sic) (3). On se demande quelle beauté nous présente ce « critique » qui trouve aussi que Corneille « n'est pas intéressant », que souvent, Racine n'est pas assez tragique ». En effet, il n'y a que Marmontel qui, le seul au siècle philosophique, ait rendu justice à Boileau : celui-ci est « l'un des hommes de son siècle qui avaient le plus étudié les Anciens et qui possédait le mieux l'art de mettre leurs beautés en oeuvre, (qui), sur les choses du sentiment et de génie, n'a jamais bien jugé que par comparaison... (4) ».

(1) Boileau, *Art. poétique*, op. cit.

(2) Idem.

(3) Dictionnaire philosophique article « Critique ».

(4) Discours sur la poésie dramatique.

Ce n'est donc pas chez Voltaire que l'on peut retrouver certains caractères du Beau littéraire tel que la critique peut le représenter. C'est plutôt grâce à l'Abbé Du Bos que nous assisterons, avant l'apparition du sensualisme anglais de Burke et de Hume à une critique esthétique à proprement parler, à laquelle, sur le plan théorique, il faut rendre justice : Inconnue à son époque, cette Esthétique que toutes les Histoires de l'Esthétique citent comme l'une des origines de l'Esthétique moderne et de *la Critique du Jugement*, ouvrira des perspectives assez vastes à la critique littéraire et artistique. Elle préconise un « sixième sens » qui, en fait, n'est pas étranger à Boileau et qui contribue à formuler le jugement à un « moment de l'enthousiasme annoncé par un frémissement qui part de la poitrine (5) ». Le Beau est donc décelable, dit Du Bos, grâce à la collaboration entre entendement et sentiment. Une distinction entre le jugement de la raison et celui qui serait dû à un « je ne sais quoi » quelconque ne peut fournir un jugement adéquat.

L'oeuvre d'art (ou l'oeuvre littéraire) passe « par nos sens pour arriver dans notre entendement ». Elle est la représentation d'un univers qui, selon Diderot et Du Bos, procure au critique, comme au lecteur, des émotions fortes. Aussi, Diderot s'addesse-t-il ou poète, exigeant de lui une beauté susceptible de satisfaire sa raison et de le toucher : « Touche-moi, étonne-moi, déchire-moi ; fais-moi tressaillir, pleurer, frémir, m'indigner d'abord (6) ». Le critique, comme tout génie, n'est pas n'importe qui : Pour être génie, ou pour « faire sortir de la foule un grand artiste », « il faut la rivalité et l'effervescence de vingt millions d'hommes réunis (7) ». Le vrai Beau est donc rare. Il s'agit, en matière de critique, de le déceler, ce qui constitue une tâche bien difficile du fait de sa rareté.

Or la critique littéraire du siècle philosophique n'a trouvé parmi les oeuvres contemporaines à elle qu'une grande pauvreté littéraire. Du Bos et Diderot n'ont fait que théoriser. Ils ont ainsi présenté une théorie susceptible de reprendre en considération les oeuvres du siècle passé. Si Diderot avait appliqué sa théorie sur Racine par exemple, il nous aurait présenté après les avoir décelées les caractéristiques d'un Beau classique conçu selon sa conception. Malheureusement, l'article *Beau* qu'il a rédigé dans l'Encyclopédie est nourri de ce qu'il reproche à ceux qui s'occupent de ce problème, entendons, le fait que certaines réflexions sur le Beau sont des « notions abstraites ». Aussi, la notion du Beau reste-t-elle entre ses mains une notion plutôt théorique.

(5) Réflexions critiques sur la poésie et la peinture, IIe partie, Section XXII.

(6) Idem. Section *XXXVII.*

(7) Idem, Section *XXXVI.*

On ne peut pas cependant tenir compte de la critique voltairienne qui, d'une part, n'a rien à voir avec l'Esthétique de Du Bos et de Diderot, et, d'autre part, se limite à des commentaires, tel le *Commentaire sur Corneille* (1764), accompagnés de jugements à base de « Goût », lequel n'est que le sien propre. Et, malgré le fait que ces jugements sont une condamnation catégorique de la dictature des règles et des préjugés moralisants, ils restent une sorte de pastiche de Boileau. Si Voltaire reproche à Pascal *(Remarques sur les Pensées de Pascal)* de n'avoir eu recours au « Goût » qui « tient lieu de montre », il n'a pu fournir à la critique qu'un ensemble de réflexions, en elles-mêmes fades.

Autrement dit, si Voltaire avait pu « goûter dans les chefs d'oeuvre du passé des nuances que les contemporains eux-mêmes ne pouvaient sentir (8) », et, s'il avait pu «goûter dans les ragédies de Racine, dans les *Lettres* de Mme de Sévigné, dans Boileau, des beautés qui s'y trouvent réellement et que le XVIIe siècle n'a guère aperçues ... », il aurait conçu un Beau, si l'on veut, néo-classique et aurait fourni une oeuvre critique susceptible de recevoir l'admiration d'une collectivité. Mais Voltaire était le chef de file du « parti philosophique » toujours sur la brèche et peu soucieux de poésie. D'autre part, si Diderot avait eu l'idée d'étendre l'enthousiasme physique qu'il éprouvait devant la nature et devant les oeuvres picturales, et s'il avait conçu la tragédie classique comme un monde dont les spectacles violents inspirent le critique, il aurait lui aussi conçu ce même Beau que Proust, deux siècles plus tard, cherchait dans les oeuvres du passé. Il faut attendre la fin du siècle dit des Lumières pour que la critique aborde, sur un autre plan, celui de la sensibilité et de l'enthousiasme, les oeuvres littéraires du passé classique et celles de l'actualité romantique.

Il ne faut pas toutefois s'imaginer que le XVIIIe siècle fût simplement un échec littéraire et critique total. Le Beau que ce siècle a connu est, d'une part, social, et d'autre part, impliqué. Un Beau social et impliqué dans la comédie de Marivaux et le conte de Voltaire. Impliqué et non pas appliqué, insistons sur ce caractère puisque l'application suppose un apriorisme que toute Esthétique condamne. Les grands principes philosophiques que le siècle a cultivés, tout particulièrement l'égalité, la tolérance, la nécessité de donner au génie la place à laquelle il a droit, etc.... se trouvent, après avoir été très lourdement exposés par Bayle, Fontenelle, et après eux, Montesquieu et Voltaire sous forme de dissertations pseudo-philosophiques, seront ensuite ou en même temps abordés, mais d'une

(8) Dictionnaire philosophique, article « Critique ».

manière différente et dans un contexte différent, dans *Zadig*, *Candide*, *Micromégas*, *le Jeu de l'amour et de hasard*. On sent, à la lecture de ces oeuvres que, comme disent certains esthéticiens, l'art est un jeu agréable, que l'écrivain-philosophe devient magiquement un écrivain tout court, et, du même coup, un critique qui repense les principales valeurs humaines sans les rattacher à un programme préétabli, car nul doute qu'il y a une différence de ton et de forme entre *l'Esprit des Lois* et *les Lettres Persanes* qui sont du même auteur et qui traitent ça et là les mêmes réalités « philosophiques ». L'attitude du même auteur dans l'un et l'autre des deux ouvrages est sans doute différente : ici, elle est celle d'un idéologue pur, et là, celle d'un amuseur qui cherche à plaire, tout en instruisant.

L'attitude critique fondamentale qui se dégage de ce XVIIIe siècle est celle qui s'est produite lors de la querelle Voltaire-Rousseau : alors que Voltaire s'appliquait à convaincre les rois et les chefs d'Etat de la nécessité de promouvoir le rang de l'artiste et de l'écrivain, sous prétexte que ces derniers, semble-t-il, sont plus éclairés, donc les seuls qui soient capables de conseiller le gouverneur, Rousseau, au lieu de dire le contraire, va encore plus loin en dénonçant les méfaits de la littérature et des arts. Cependant, homme de lettres, Rousseau, soucieux de la fonction sociale de l'écrivain, (et non pas politique comme l'aurait voulu Voltaire) prend sa place dans le domaine du Beau critique en s'attaquant à Molière *(Lettre à d'Alembert)* et au mensonge que contiennent *les Fables* de la Fontaine (*Emile*, ch. XXVII, L. second). Entretemps, il fait de Racine un romantique, en reconnaissant chez lui la présence indispensable à toute oeuvre du sentiment (*la Nouvelle Heloïse*, L ; II, ch. XVII) : « on ne parle jamais bien, dit-il, que lorsqu'on sent ce qu'on dit ». En ce sens, Rousseau cherche dans l'oeuvre littéraire, dont il nie paradoxalement la valeur, un Beau à base de sentiment. Il s'agit de ce Beau émanant d'un « instinct divin » et de la nature, non pas la nature verdoyante, mais plutôt celle d'Emile, qui est elle-même celle de Rousseau et de tous les personnages de roman du siècle, qui s'écrient toujours : « O vertu, ô nature », entendons leur nature d'homme. Ici, les véritables critiques sont Saint-Preux, Monsieur de Volmar, Julie d'Etanges et Emile qui, tous, érigent ou veulent ériger au sein de l'oeuvre une action semblable à la tâche de Candide, laquelle consiste à cultiver (son) jardin, soit, construire à travers l'oeuvre et en nous notre nature, en vue d'organiser le monde.

C'est d'ailleurs dans ce sens que Rousseau est considéré comme un précurseur du préromantisme, qui exige avant tout que l'oeuvre soit un culte du moi.

« Avant Sainte-Beuve, il y a eu des critiques, mais il n'y a pas eu la Critique ». Cette phrase de Thibaudet, citée partout, fait du géant de

la critique littéraire au XIXe siècle le seul et le premier des critiques qui aient fait de cette activité, jadis parasite et objet de querelles, une activité qui se suffit à elle-même. Elle fait aussi de Sainte-Beuve le Symbole de la critique même. Mais il semble que Thibaudet, comme tous les parti-ans zélés de l'auteur des *Causeries* compare l'état auquel était arrivée la critique au XVIIIe siècle à celui qui, grâce à Sainte-Beuve, fera du XIXe siècle une époque où elle a pris un essor jusque là inconnu. En effet, ce XIXe siècle conçevra la critique d'une manière plus diverse et plus vaste que celle du siècle précédent. Cependant, elle n'a pas été, du temps de Boileau, moins importante. En témoignent les querelles auxquelles nous avons fait déjà allusion, qui peuvent nous convaincre du fait que le public français y était si intéressé qu'il assistait à ces querelles avec le même enthousiasme qui le poussait à assister à une pièce de Racine ou de Molière. Et, au milieu de ces véritables combats déjà déclarés en plein XVIe siècle entre dogmatisants et non-dogmatisants, surgit Boileau qui était, avant Sainte-Beuve, lui-même *la* critique. Il n'y aurait rien d'étonnant ici si l'on savait que, comme le signale Stendhal, « Racine a été romantique », ce qui signifie aussi que Boileau l'a été. Car Boileau, comme Racine, n'était pas celui qui « donnait le plus grand plaisir possible à (ses) arrière-grands-pères (9) ».

Le *Contre Sainte-Beuve* de Marcel Proust donne à la critique littéraire du siècle encore plus de poids, mais du même coup, il lui donne, telle que le XIXe siècle l'a diversifiée, plus de valeur. Non pas que ce XIXe siècle se soit caractérisé par la présence du seul Sainte-Beuve, mais qu'il ait implicitement donné une nouvelle Esthétique de la Critique littéraire, laquelle sera spécifiquement humaine du fait qu'elle s'érige comme un dépassement premier de certaines distinctions.

Seulement, ce n'est nullement à travers cette foule de fauxbrillants qu'une telle esthétique a vu le jour. C'est plutôt entre les mains des écrivains eux-même, dans l'Oeuvre littéraire elle-même, qu'elle s'est développée, diverse parce que cette même Oeuvre fut diverse. Car on peut à la rigueur, pour justifier la présence d'un Réel esthétique, lequel est lui-même le Réel critique, diviser la critique du XIXe siècle en deux tendances : l'une éphémère, qui a pratiquement disparu parce qu'elle a cru pouvoir tour à tour officialiser, dogmatiser, théoriser, moraliser et faire revivre un acte judicatif absolu qui s'est trouvé dès le début mal à l'aise. Semblables à tous les Scudéry, les Guez de Balzac, les Chapelain, les Mathurin Régnier qui n'ont vécu qu'un jour et que Boileau a vite éclipsés, les Villemain (Chef de la Division de la littérature au Ministère

(9) Voltaire s'attaquant à Boileau, in-Dictionnaire, article «Critique».

de la Police, et celu suffit), les Nisard et les Saint-Marc Girardin seront vite éclipsés par Sainte-Beuve, aidé en ceci, par un Théophile Gautier et un Baudelaire.

Le fait est que ces faux-brillants que Thibaudet à déjà écartés pour d'autres raisons que celles que nous examinons ici, n'ont vu, n'ont partiqué aucune critique, car qui ne possède pas le don de créer ne doit en aucune sorte parler de la création, sous peine de la profaner. Il serait indispensable du même coup d'écarter du domaine de cette Esthétique toute dissertation, toute préface, elle-même écrite par un poète, puisque, on le verra, un Musset parlant du Romantisme dans ses *Lettres de Dupuis à Cotonet*, n'est pas le Musset qui a écrit la *Nuit de Mai* où il est question de la création poétique et de la genèse de l'oeuvre. Un V. Hugo qui rédige *William Shakespeare* n'est pas tout à fait le même que celui de *la Tristesse d'Olympio*. C'est que le Beau n'est pas, et ne peut pas être applicable. Il est, avons-nous dit, *Impliqué* le plus spontanément du monde. Ceci ne signifie pas qu'il y ait toujours eu contradiction entre une beauté théorisée par l'écrivain pour être comme un renforcement de sa couception de l'univers, et une mise au point éclaircissante d'une notion critique incluse implicitement dans un poème.

Il ne sera pas donc exagéré d'exclure de ce domaine de l'Esthétique critique les assertions de Mme de Staël dans *De la Littérature..., de l'Allemagne*, etc..., car il s'y agit de pures dissertations, bien que l'auteur en fût de nature enthousiaste, passionnée et exaltée jusqu'au délire. Ce qui prouve que la vie de l'auteur ne se réflète pas toujours dans son oeuvre, et que la Psychanalyse se trompe où elle se croit capable de déceler des complexes personnels dans l'oeuvre. La doctrine romantique élaborée par Mme de Staël n'est qu'une doctrine, et, à la rigueur, une analyse de l'âme romantique. Si le caractère propre de l'auteur est exalté, ce même auteur ne peut pas essentiellement, même lorsqu'il veut écrire un roman autobiographique « mettre » son extase dans son oeuvre. Le contraire n'en est pas moins juste. Le rêve reste un monde clos, et l'extase un état de mort, ou au moins, un état qui s'apparente à la mort. Or, de telles « idées pures et sans corps, retentiraient sur les faits de la vie... Comment, se demande Ch. Maurras des rêves auraient-ils causé une action ? ». Mme de Staël appartient, sous cet angle, au XVIIIe siècle, puisque, comme le Voltaire du *Parallèle* et du *Commentaire sur Corneille*, elle disserte sur des thèmes qui, bien qu'ils ne soient pas les mêmes que ceux de Voltaire, appartiennent au domaine de la pure théorie. Sans pouvoir devenir philosophe, à la manière de Schiller et Schlegel qu'elle a connus, elle offre à l'histoire une critique descriptive qui s'appuie sur « un mélange de réflexions et de faits » trop amorphes et trop discutables pour pouvoir formuler une

théorie complète. Ce qu'elle a rédigé concernant les *Ecrits et les caractères de J. J. Rousseau* (1788) est une tentative de s'appuyer sur la « grande profondeur philosophique » des *Lettres sur l'Education esthétique* de Schiller, sur l'antimonie schlegelienne romantique-classique et sur l'opposition entre Nord et Midi. Cependant, le moi à l'affût du Beau idéal est partout le Même ; le Beau, « encens de la terre vers le ciel » ne change pas parce qu'il ne connaît ni temps ni lieu. *L'Alma mater* vers laquelle l'extasiée veut faire un retour par l'intermédiaire de la philosophie est le domaine immuable où l'objet d'art est l'Absolu, et l'Art représentation d'une vie infinie. La définition de ce Beau immanent à l'oeuvre aurait trait au Sublime, lequel est inappliqué parce qu' inapplicable, et à plus forte raison, iuimpliqué parce que inimplicable : pour être critique, il faut connaître le labyrinthe de l'oeuvre, celui de l'opération créatrice. Or, Madame de Staël, n'y ayant pas pénétré, n'a pu fournir à ses successeurs ni oeuvre de critique ni oeuvre. Elle a voulu, en plus, théoriser en pastichant les Allemends et n'a fait que déformer leur philosophie.

De même, Chateaubriand soumettant la Philosophie à la Religion, semble pasticher Hegel pour lequel le Divin a pour objet l'intérêt le plus profond de l'Homme. Le *Génie* expose la trinité Art-Religion-Sacrements et la fait participer à la promotion des Beaux-arts chrétiens qui sont la représentation du Beau. Celui-ci est chrétien ; toute l'Esthétique, c'est le Christianisme. La voûte gothique est « belle » alors que le temple païen est laid. « Fanatisme » artistique à base de choix et de critique des « beautés », laquelle n'est en elle-même qu'une critique des défauts qui ne se rend pas compte du fait que les extrêmes se touchent. Cependant, il s'agit là d'un enthousiasme raisonné et conscient qui évoque celui du Sainte-Beuve, ascète de *Port-Royal*, qui se recrée et s'intègre aux âmes zélées des habitués de Port-Royal. Poésie qui juge librement mais qui refuse d'être jugée, l'oeuvre de Chateabriand est dans son ensemble l'oeuvre l'un critique, pour cette seule raison.

D'une manière générale, les poètes romantiques veulent juger et se juger, tout en refusant d'être l'objet d'une critique quelconque. Se considérant comme un dieu, le poète fabrique son propre Beau et le défend contre toute attaque. Ceci constitiue une négation egoïste mais catégorique de tout acte judicaif d'autrui, car le Sublime ne se juge pas. Aussi, serat-on censé retrouver les traces du Beau dans l'oeuvre même, et, à la rigueur, en tenant compte du paradoxe du juge injugeable. Le poète-critique dompte le Beau principalement par l'Action poétique ; il ne se laisse pas dompter par une critique quelconque, même si elle est une « critique des Beautés ». Prétention discutable que Gide dénoncera ; partout où il y a plaidoirie « ex cthedra », « l'auteur romantique reste

toujours en déçà de ses paroles(10) » bien que, comme le classique, il propose à l'art «la vérité pour modèle(11) » tout en allant, en passant par son moi, « hors des voies communes(11) ». Le Beau romantique en général est un Sublime excessif, une recherche à la fois subjective et objective d'un sublime qui n'exclue pas le laid, qui, tout en visant la Perfection, s'humanise du fait qu'il vise une proportion entre lui, l'homme et le monde. Ainsi, comme le précise Valéry, « tout classicime suppose un romantisme antérieur (12) », et, comme le signale M. P. Moreau, tout romantique « ne se refuse pas la vérité personnelle ni la sensibilité, ni l'imagination (13) ». On aboutit de la sorte à la même conclusion qu'on a déduite à propos de Boileau : le Romantisme porte en lui-même la Critique.

Qu'il s'agisse de la poésie, du roman ou du théâtre, l'oeuvre romantique est une oeuvre d'art et de critique. Dans la mesure où toute oeuvre est la traduction d'une conception du Beau qui est celle de l'auteur, le roman autobiographique détermine de la manière la plus directe ce Beau qui, en fait, est incarné dans une « Muse » réelle. Si Adolphe « examine avec intérêt et curiosité comme un bel orage » Ellénore, c'est qu'il contemple la beauté incarnée, physiquement parlant, dans la femme qui le fait souffrir. Cependant, il ne faut pas considérer la Muse réelle comme une transposition immédiate, une sorte de « copie conforme à l'original ». Tout romancier autobiographe trahit le « tel quel » d'une manière ou d'une autre. Ainsi, il y a toujours une certaine stylisation esthétique du Beau qui est d'origine physique. Cette stylisation est due avant tout à la forme du roman, aux traits physiques de ce monde transposé avec modification. C'est grâce à la stylisation d'ailleurs que l'oeuvre ravonne et fait naître dans le monde de l'Art d'autres artistes. L'Art naît de l'Art. Dès l'apparition de *René*, « une famille de Renés poètes et de Renés prosateurs a pullulé ». Mais ceux-ci ne peuvent compter que peu dans le monde de la critique puisqu'ils sont exaltés, donc morts d'une mort provisoire.

Celui qui y compte, c'est le héros de *Volupté*, cet Amaury artiste à vocation essentiellement critique qui « observe (et) analyse Victor Hugo qui a pour nom M. de Caouën, vis à vis duquel il éprouve douleur et joie (14) ». Critique type qui a « la critique au corps », Amaury est le

(10) Idée répétée partout, V. Sainte-Beuve ;*Vie, Poésies, et Pensées de J Delorme*, V. aussi : Gautier : *Préface de Mlle. de Maupin*, etc.

(11) Même remarque, V. Hugo en particulier dans ses préfaces.

(12) Voir *Au Sujet d'Adonis*, *Gallimard'ed* 1921.

(13) Le *Classicisme des romantiques* ; op. cit. p. 312.

(14) Sainte-Beuve ; *Volupté*, 1834. p. 111.

frère de tous les Moïse, les Olympio, les Jocelyn, etc... Tous se transforment magiquement en archétypes qui, en prenant corps, ne peuvent se passer d'une activité inhérente à leur constitution physique et morale : Chacun d'eux, dira joliment V. Hugo « vous regarde,... vous donne un coup de coude, vous crie gare,... une idée qui est nerf, muscle et chair,... et qui a un coeur pour aimer, des entrailles pour souffrir, et des yeux pour pleurer, et des dents pour dévorer et rire (15) ». Incarnation bizarre du poète critique, voire du Beau critique.

Seulement, les frères ne se ressemblent pas d'une façon absolue. Chacun diffère de tous les autres, mais tous sont porteurs du même Beau, ou en quête du Beau qui est celui de tous les autres. Chacun tente de « fomuler l'informulable (16) ». Stendhal agit dans ce sens comme un guerrier agit dans une atmosphère de combat, sans toutefois « songer à l'hôpital(17) », ou encore pour compenser les déceptions et les mesquineries de la vie, tels Julien Sorel, son del Dongo et son Lucien Leuwen. Vigny estime que « l'informulable » peut être, au moins partiellement, formulé à l'aide d'une culture féconde :

> Le vrai Dieu, le Dieu fort est le Dieu des idées.
>
> Sur nos fronts où le germe est jeté par le sort,
>
> Répandons le Savoir en fécondes ondées.
>
> *Destinées. La Bouteille à la Mer.*

« Répandre le Savoir », voici la tache du héros-penseur qui, pourtant, n'est qu'un Narcisse-penseur s'estimant capable dorénavant de réaliser dans une joie intinsèque le projet fondamentalement romantique : le Beau. Il s'agit là moins du Beau que *d'un* Beau où, au lieu de juger les autre directement, se juge d'abord et cherche d'autres héros sur lesquels peut éventuellement s'appliquer son auto-critique. C'est en ce sens que le romantisme est une négation de toute critique qui n'émane pas d'un artiste et qui ne soit pas identique à celle que le poète formule dans ses propres oeuvres. Elle est trop fière d'elle-même pour n'avoir conscience que de ses propres créations. La raison de ce « fanatisme esthétique » est facile à comprendre : l'extase du poète est un extase religieux. H. Delacroix fut le premier à le signaler . Or, tout état qui émane d'une croyance

---

(15) Pr. des *Contemplations.*

(16) Expression répétée par beaucoup d'esthéticiens modernes.

(17) Stendhal : *Racine et Shakespeare*, ch. III. 1823.

religieuse est, ou doit être incriticable. Ainsi, le Beau romantique. Du même coup, il est, et doit être informulable par essence ; Toute tentative de le systématiser serait vaine. Sainte-Beuve, critique du Roantisme, n'a jamais pu dépasser le stade où l'on peut réunir dans une oeuvre de critique toute la variété d'une tendance qui a vécu, non seulement à son époque, mais à toutes les époques, bien que Sainte-Beuve fût le priemier, avant M. H. Peyre bien sûr, à retrouver la veine romantique, comme la veine classique aussi, partout et à toutes les époques. La famille des esprits n'est qu'une autre forme de la « Génération littéraire ». Elle sera entre les mains de Gide une famille humaine. De même Lamartine a échoué à systématiser toute la variété du Beau lorsqu'il a essayé de saïsir les « destinées » et, en qualité de « dieu », à créer le Poème de l'Homme qui aurait embrassé toute la variété du Beau, à rendre par et à travers la Poésie la marche incessante de l'Humanité dans son passé, son présent et son avenir. Telle *la Légende des siècles ;* tel aussi *Chatterton* où Vigny attribue le Beau à un don divin et reconnaît en luimèr « le bonheur de l'inspiration », venant selon le terme de Ronsard « d'en haut » et lui donnant toujours plus de vigueur. Lorsque Moïse demande le néant, il se revigore au lieu de s'anéantir. Il sent la présence en lui de cette joie qui « aunonce toujours que la vie a réussi » dont parlera Bergson dans son *Enérgie spirituelle.* Chatterton crie plus haut que Moïse en face de la multitude : faites que je vive ! Ainsi, le Beau n'est pas le produit de l'extase. Il est celui de la vie vigoureuse et saine.

Voici l'évolution naturelle du Romantisme : après avoir été à ses débuts mal du siècle, « crime et abjection » selon le terme de Marcel Aymé, pour avoir « flatté les faibles dans leurs faiblesses (18) », ce romantisme est devenu plus humain parce que source de force, la force étant le caractère essentiel du génie. William Shakespeare est l'exemple qui le prouve, et Victor Hugo lui même l'a prouvé. A l'appui, vient aussi la peinture de Delacroix, un autre V. Hugo, et dans un sens différent, un autre Baudelaire.

Enfin, Beau réfractaire à tout ordre parce que fort et informulable, comment alors le fixer ? Il est « cela », dit Hugo. Il est l'Inconnaissable, l'Infini, la Pensée humaine dans le temps et dans l'espace, et la Critique devient ce vague « écho sonore » qui « plane sur le monde moderne » en épanouissaut universellement. Ce « cela » correspond en philosophie à ce que Hegel appelle « le vaste, le puissant, le sublime, l'indéterminé, l'entrevu, l'obscur et le splendide, les ténèbres mêlées à la clarté (19) », et « quelquefois le monstrueux, quelquefois le divin » selon Hugo. Le Beau,

(18) M. Aymé, Lettres classiques, in *Confort intellectuael*, Flammarion éd.

(19) Cité par Huysman : *Esthétique*, P. UF. p. 39.

bref, c'est la Création divine. Il est pour la même raison la création poétique, puisque le Poète n'est à son tour qu'un dieu. Sur le plan dramatique, comme sur le plan romanesque, le Beau est le reflet total de la Réalité. L'Art devient ainsi une transfiguration de la vie, « un miroir de concentration » et « un point d'optique » dit Hugo aussi.

Illusion sans doute. Mieux vaut reconnaître son ineptie et revenir sur terre. Tels les Goncourt : « Le Beau ? D'où il vient, ce qui le fait être, son essence ? Platon ? Plotin ? la qualité de l'Idée se produisant sous une forme symbolique... ? La perfection perçue d'une manière confuse,... la réunion aristotélique des idées d'ordre et de grandeur... Est-ce que je sais ? Le Beau, est-ce l'Idéal ? Est-ce la réalité retirée du domaine du particulier et de l'accidentel ? ... Quoi, le Beau ? L'objectivité ou l'infinité ou l'infinité de la subjectivité ?... (20) ». Vis à vis de cette extrême dérision, on peut être sur le point de redevenir classique, c'est à dire de re-rattacher le Beau au Vrai, et de tenter de définir ce dernier en gardant toujours le fait que l'Oeuvre est « une reconstruction d'un univers par l'homme ».

On risque éventuellement de devenir fou aussi, et on devient effectivement fou lorsqu'on essaye d'embrasser *toute* la réalité, de réunir dans son sein toutes les aspirations surhumaines. Tel Louis Lambert de Balzac ; tel Rimbaud aussi et tous les ambitieux. Vouloir être Dieu, c'est se vouer d'avance à un échec certain. Il suffit donc, après avoir fait son pèlerinage, comme l'a fait Baudelaire, se s'arrêter à quelque distance de l'abîme, de pratiquer le maximum du Réel humain sans toutefois avouer ou s'avouer pour le moins qu'on est satisfait. Rimbaud devait se demander s'il avait réelement « possédé tous les paysages possibles », « embrassé l'aube d'été ». Mallarmé ne pouvait faire de l'Action « la soeur de rêve », et pour ce, cassait les vitres, se sentant incapable de créer l'Univers. Mieux vaut, avons-nous dit, rester dans le très douloureux fini pour pouvoir au moins constater la présence d'un Beau terrestre. Celui-ci ne signifie pas uniquement réalisme, si par réalisme on entend la représentation du « tel quel » comme point de départ. Ce qu'on est convenu d'appeler l'Art abstrait fournit, on le verra, le même Beau déjà fourni par Balzac, mais *exprimé, formulé* différemment. La critique ne peut s'occuper ainsi que de *l'expression* du Beau, entendons *les Mots* dont on se sert pour présenter au lecteur le produit d'une pensée et d'une imagination ... :

« j'expliquais à Albertine que les grands littérateurs n'ont jamais fait qu'une seule oeuvre, ou plutôt réfracté à travers des milieux divers une

(20) Les Goncourt, *Journal*, II. p. 137.

même beauté qu'ils apportent au monde. S'il n'était pas si tard, ma petite, lui disais-je, je vous montrerais cela chez tous les écrivains que vous lisez pendant que je dors. Je vous montrerais la même identité que chez Vinteuil. Ces phrases-types que vous commencez à connaître comme moi, ma petite Albertine, les mêmes dans la sonate, dans le *septuor*, dans les autres oeuvres, ce serait par exemple, chez Barbey d'Aurevilly, une réalité cachée, révelée par une trace matérielle, la rougeur physique de l'ensorcelée, d'Aimée de Spens, de la Clotte, la main du Rideau carmoisie, les vieux usages, les vieilles coutumes, les vieux mots,... l'histoire orale faite par les pâtres du terroir, les nobles cités normandes parfumées d'Angleterre et jolies comme un village d'Ecosse (21) ».

Dès l'avènement de Baudelaire, surtout du Baudelaire critique, et au même moment où Sainte-Beuve était déjà considéré comme la critique elle-même, une grande confusion naissait autour de ce dernier : les Parnassiens agissaient contre le Romantisme. Leconte de Lisle dénonçait le fait, d'après lui, que « le thème personnel et ses variations trop répétées ont épuisé l'attention ». Il préconisait un Beau non-populaire, voire anti-populaire :

Je ne vendrai pas mon ivresse ou mon mal.
Je ne livrerai pas ma vie à tes huées.
Je ne danserai pas sur ton tréteau banal,
Avec tes histrions et tes prostituées.

Et, en ce faisant, il se croyait capable de « réaliser la beauté », en lui donnant des formes nouvelles, plus nettes et plus précises. Anti-classique aussi, il précisait que « le Beau n'est pas le serviteur du vrai », et, à la lumière d'une telle prétention, il s'attaquait à tous ceux qui, à ses yeux, ne pouvaient pas dans leurs oeuvres réaliser le Beau : entendons Lamartine qui n'a pas « l'amour et le respect religieux de l'Art ». Par contre, Hugo et Vigny l'un étant un tout puissant génie, et l'autre « un fidèle serviteur du Beau » sont, avec Baudelaire, véritable amant du Beau, les poètes qu'il admire. On se demande si de Lisle a vu dans leurs oeuvres, comme dans la sienne, un art de reproduire formes, lignes et couleurs, et si sa critique n'est pas elle-même celle qu'il reproche à son époque, laquelle est « pleine de regrets stériles, de désirs impuissants, et de rancunes inexorables, traduit au public indifférent et paresseux ce qu'elle ne comprend pas ... et n'ouvre le sanctuaire de sa bienveillance qu'à la cohue banale des pseudo-poètes (22) ».

(21) M. Proust : *A la Recherche...*, du côté de chez Swann.

(22) *Poètes contemporains*, Avant. propos, Lemerre éd. 1864, p. 8.

Car Baudelaire était déjà là. Baudelaire qui, en quête du Beau, lequel se situe entre les deux postulations simultanées, entre Dieu et Satan, et dont l'instinct « nous fait considérer la terre et ses spectacles comme une correspondance du ciel ». Le culte du Beau, comme disait Hugo, n'est accessible qu'au poète, et encore...

Le poète, étant le seul qui puisse « voyager » dans le pays de l'Inconnu à la recherche du Beau, sera le seul qui puisse aussi être un critique. C'est lui qui, dandy et amoralisant, sera « le meilleur de tous les critiques (23) », pourvu qu'il « travaille », comme a toujours travaillé Théophile Gautier, et comme a constamment agi Hugo. Quant à Musset et à Lamartine, ils ne le sont pas et ne peuvent l'être. « Ils n'ont pas assez de volonté et ne sont pas assez maîtres d'eux-mêmes (24) ».

Le Beau, objet de recherches, de poursuite constante et de volonté, est ainsi « la chose » qu'on n'atteint jamais, car le travail n'a pas de limites. Comment alors pourra-t-on juger l'oeuvre d'autrui ? Si le goût du Beau est, comme chez Gautier un « fatum », quelles seraient les caractéristiques de ce fatum ? On revient, on le voit bien au même cercle vicieux dans lequel ont tourné les Goncourt. On revient au même « gigantisme », et Flaubert, en prétendant lui aussi créer ce Beau, n'a été qu'un autre de Lisle, un autre romantique qui juge sans être susceptible d'être jugeable. L'exactitude documentaire ? l'Impartialité et l'absence de soi dans l'oeuvre ? La nécessité de se transporter dans ses personnages sans jamais essayer de les attirer à soi ? Partir du réel pour y aboutir ? Mais c'est là le problème éternel et éternellement posé. C'est là la question que se posera Mallarmé : la Beauté est-elle accessible ? L'Hérodiade, symbole de la hantise du poète traduit à merveille cette réalité douloureuse qui consiste à dire l'impossibilité d'atteindre la pureté dans laquelle la beauté s'incarne. Mieux vaut avoir recours au silence, dira-t-il dans son *Faune*. Mais n'empêche que le poète en cherche l'essence, bien que sachant qu'il n'y arrivera jamais. La chercher chez soi et chez les autres, c'est s'auto-critiquer et critiquer. Et, en ce faisant, on crée malgré tout une Oeuvre. On finit par en créer une, bien qu'on soit constamment menacé de déborder sur le Néant, et bien que l'univers se révèle toujours comme un chaos.

Si, ainsi le Beau est « chose » inaccessible, comment un Sainte-Beuve, un Taine ou un Renan ont-ils eu le courage de la *déterminer* ? Par et à travers le milieu, la race et le moment ? Scientifiquement, autobiogra-

(23) Baudelaire, *Art. romantique*, op. cit. p. 128.

(24) M. Aymé, op. cit. p. 214.

phiquement, ou psychologiquement ? Quelle erreur, criera Bergson ...

Et quelle absurdité...

Cependant, il ne faut pas s'imaginer que Baudelaire, de Lisle, Rimbaud, Mallarmé et les Symbolistes en général ont été des savants critiques à la manière de Taine ou de Renan. S'ils n'ont pas érussi à trouver une définition du Beau d'après lequel les oeuvres peuvent être jugées, ils ont composé au nom de l'Eternelle Beauté des hymnes, des sonnets et des harmonies qui disent sous une forme poétique la conception qu'ils en ont. Pour Baudelaire, elle est un remède à sa détresse, bien qu'il dise : « je ne conçois guère un type de Beauté où il n'y ait du Malheur ». Or, un « Hymne à la Beauté » est en lui-même un hymne, c'est à dire une pièce d'art. Il va de soi que Baudelaire juge tout artiste d'après cette conception qu'il formule dans son hymne. Ainsi, tous les Phares auxquels il consacer une autre pièce d'art. Ainsi encore Delacroix, Richard Wagner et Constantin Guys entre autres. De même Mallarmé qui, bien qu'il se sent impuissant vis à vis du Beau, se dit :

— — Que la vitre soit l'art, soit la mysticité — —
A renaître, portant mon rêve en diadème,
Au ciel antérieur où fleurit la Beauté.

Les Fenêtres. Poésies.

Etant tache difficile, la réalisation du Beau est aux yeux de Baudelaire chose inaccessible à tout venant. Baudelaire est de ceux qui constantent l'existence d'une décadence déplorable dans le domaine de l'art et de la littérature, qui aurait besoin d'une critique qui soit capable de relhausser ces derniers au rang qui puisse leur redonner valeur et dignité : « Pour être juste, c'est à dire pour avoir sa raison d'être, dit-il, la critique doit être partiale, passionnée, politique, c'est à dire faite à un point de vue exclusif, mais au point de vue qui ouvre le plus d'horizons ». (Salon de 1864) Or, le poète seul est capable d'accomplir une telle mission. S'il critique, ou s'il parle de la critique, il aura à s'introspecter d'abord, et ensuite à déceler chez les autres le même Beau qu'il chante, ou du moins la même conception qu'il peut avoir du Beau. Mais là encore on se demande : Qu'est ce que le Beau ?

Il semble que jusqu'à Bergson, tous les critiques se sont débattus autour du même problème lorsqu'ils voulaient ériger une philosophie du Beau. Ils ont oublié, semble-t-il, que les philosophes eux-mêmes n'ont jamais pu en trouver une définition. Pourtant, ils ont paradoxalement écrit des oeuvres ayant trait à la poésie, sinon à l'Art qui chantent ce même

Beau qu'ils n'arrivaient pas à déterminer. Leurs assertions critiques pures, rédigées sous forme de préfaces ou d'avertissements s'approchent à beaucoup d'égards des théories. Il arrive parfois que l'oeuvre de critique pure soit elle-même une oeuvre d'art, ou, au moins, une oeuvre d'agrément : Telles, avons-nous dit, les *Causeries*. Il faudrait mentionner également *l'Art Romantique* et les *Curiosités Esthétiques*.

(Voir la suite dans les Annales de la Faculté des Lettres de l'Université d'Ain-Chams : 1- Beuvisme et post-beuvisme. 2- La querelle Impressionniste).

AN UNPUBLISHED SHELLEY TRANSLATION

By

ADEL M. SALAMA, PH.D.

The following sonnet occurs on p. 126 of MS. Shelley adds e. 17 in the Bodleian Library. It is embedded in the drafts of « Charles I » and written in a paler ink :

Who ? What is this ? No statue. Yet of stone
That sits a Giant — wonder-work of art
He breathes ! there's life upon his lips, they part
With a most vital utterance — well is known
That form — 'tis Moses — for divinely beaming
The honour of his profuse beard — the rays
Of twofold glory from his brow up-streaming
As from the Mount he comes — his look betrays
More than a reflex of the Deity
He comes as when the Sea was made a bier
Unto his foes — suspending the career
Of its wild waves — an image such as he
Might well have awestruck an idolatrous crowd
Less sin had they to him in adoration bowed.

Mr. G. M. Mathews of Leeds University has kindly helped me to identify this sonnet as a translation from the Italian of Giovan Battista Felice Zappi (1667-1719((1) Zappi's sonnet runs as follows :

Chi e costui che in si gran pietra scolto,
Siede gigante, e le piu illustri, e conte
Opre dell'arte avanza, e ha vive, e pronte
Le lahbra si, che le parole ascolto ?

Quest' e Mose ; ben me 'l diceva il folto
Onor del mento, e 'l doppio raggio in fronte ;
Quest' e Mose, quando scendea del monte,
E gran parte de Nume avea nel volto.

(1) According to the *Enciclopedia Italiana* (XXXV, p. 893) Zappi was educated by the Jesuits and studied law at Bologna. He practiced as a lawyer in Rome and was one of the twelve founders of the *Arcadia Tirsi Leucasio*. He had a flair for poetry, improvising a lot and mixing the languid and facile with the ingenuous. He imitated Pindar and went for biblical and pastoral sonnets. In sentiment he belonged to the 16th and 17th centuries. His literary merit was over-estimated during his life-time.

Tal' era allor, che le sonanti, e vaste
Acque ei sospense, a se d'intorno ; e tale
Quando il Mar chiuse, e ne fe tomba altrui.

E voi, sue turbe, un rio vitello alzaste ?
Alzata aveste immago a questa eguale !
Ch' era men fallo l' adorar costui.

(Scelta di Sonetti,... del Gobbi, 1709. iii, 216)(1)

The translation is definitely Shelley's — though not at his best. Indeed it is a liberal rendering of the original. For example the meaning of the last tercet in Zappi's sonnet is lost in Shelley's translation. because Shelley chose to drop the calf reference. A literal translation of the last three lines may perhaps run as follows :

« And you, O his (i. e. Moses') tribe, you worshipped a wicked calf ? Had you raised an image equal to this (the statue of Moses by Michelangelo) you would have been less sinful if you adored it ».

Shelley's departure from the original can almost invariably be explained by his substitution of his favourite words and phrases — and this, of course. confirms his responsibilty for the translation.
E.g. ... there's life upon his lips, they part

With a most vital utterance,...

Knowing that « parted lips » is a favourite image with Shelley we can understand why he substituted it for what Zappi's lines originally carried : « The lips are in such a state of readiness that I can hear the words ». Also Zappi's « excelling work of art » became in Shelley « *wonder*-work of art » because « wonder » was a favourite word. Also such images and phrases as the following come from pure Shelleyan stock :

..... his look betrays
More than a reflex of the Deity.

..... suspending the career
Of its wild waves.

That the poem is not in Shelley's handwriting need not bother us greatly, since the handwriting is Medwin's who occasionally acted as Shelley's amanuensis, especially during his stay with the Shelleys in

(1) As quoted in Byron's *Works* (ed. E. H. Coleridge), IV, pp. 271-2.

Italy(1). But it may be a little difficult to give a reason for Shelley's translation of this Italian sonnet. Zappi's reputation as a poet seems never to have extended beyond his « Arcadia », although at one time Leopardi thought highly of him(2). But we find that Samuel Rogers has made a translation of the same sonnet which is a more literal rendering but a worse poem than Shelley's. Here is Rogers' translation :

> And who is he that, shaped in sculptured stone
> Sits giant-like ? stern monument of art
> Unparalleled, while language seems to start
> From his prompt lips, and we his precepts own ?
> — Tis Moses ; seated on the mount apart,
> Whilst yet the Godhead o'er his features shone.
> Such he looked, when ocean's sounding wave
> Suspended hung, and such amidst the storm
> When o'er his foes the refluent waters roared.
> And idol calf his followers did engrave :
> But had they raised this awe-commanding form,
> Then had they with less guilt their work adored(3).

Needless to say, Rogers departs drastically from the original in certain places, but it will immediately be seen that he does so for reasons of rhyme and metre.

The dating of Shelley's translation is no problem. As it is in Medwin's handwriting, so it definitely belongs to the period of his stay with the Shelleys at Pisa, that is, to October or to November 1820. The notebook in which it is contained was largely in use at the end of that year and in 1821, though it also contains material that takes it back to 1819 *(The Indian Serenade)* and forward to 1822 (parts of « Charles I ». However, the fact that the poem falls in between sections of « Charles I » at which Shelley worked intermittently after 1819 and that on the reverse side of the notebook Mary Shelley made notes from Giovanni Villani whom she did not start reading until September 1820(4), may give further support to my conclusion.

---

(1) That Medwin used to write down for Shelley is also evident in the lines translated from Calderon beginning.

It is a singular world we live in.....

This translation (MS. Shelley adds e 18, p. 60 rev.) is also in Medwin's handwriting (not in Edward Williams handwriting as Mr. Neville Rogers wrongly asserts). This will be the subject of another paper.

(2) I am indebted for this piece of information to Dr. Faithful, of the Italian Department, Liverpool University.

(3) As quoted in Byron's *Works*, IV, p. 272.

(4) Mary Shelley, *Journal*, p. 138.

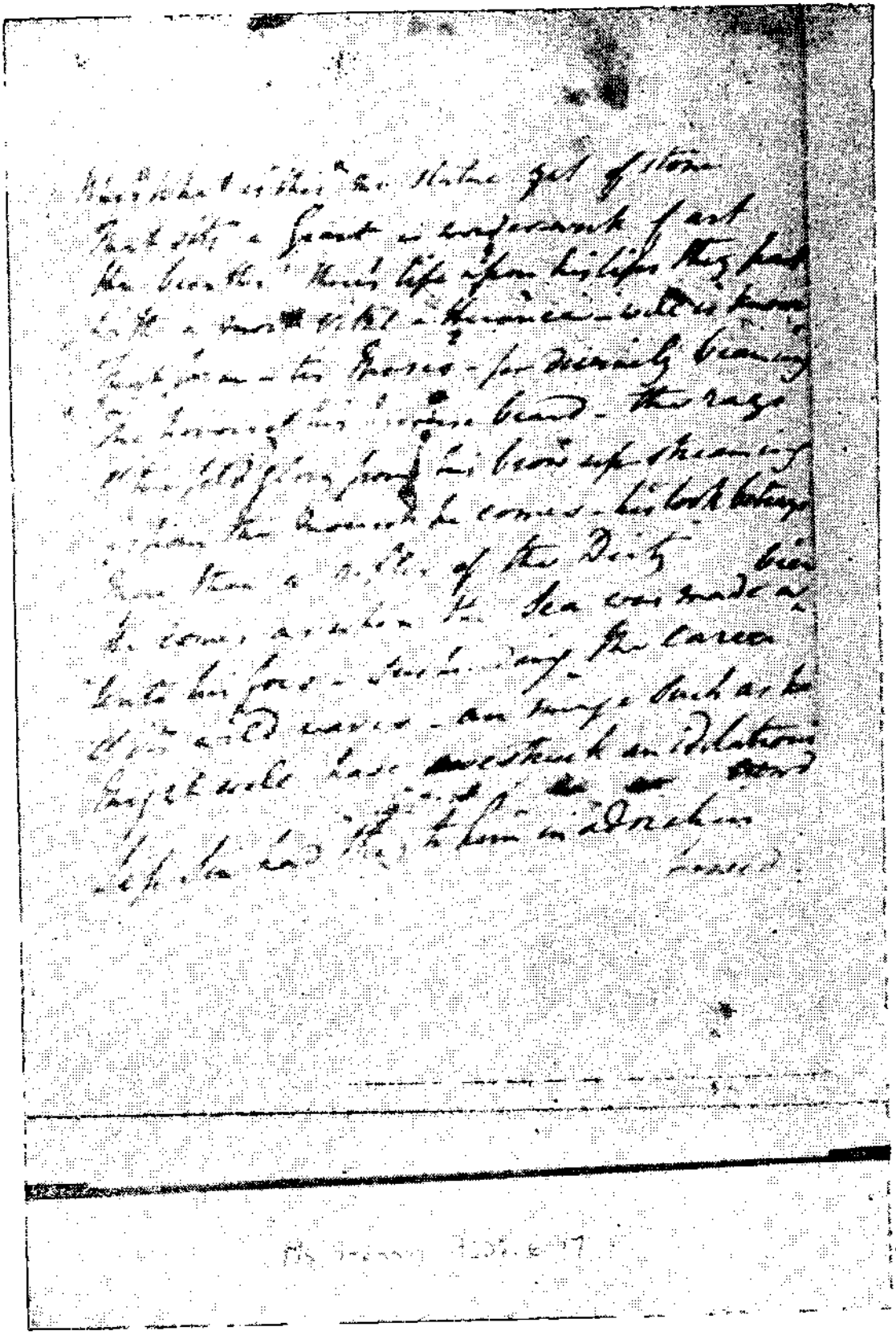

FACTORS AFFECTING PERCENTAGE BACKSCATTERED X-RADIATION

by

M. MOKHTAR, M. MAHROUS and A. MESBAH

National Institute of Metrology, Cairo

ABSTRACT

The effect of the various parameters that are likely to affect the percentage backscattered radiation outside a wooden phantom were studied. It was found that the percentage backscatter increases with the increase of irradiated area, focal scatterer distance and the hardness of radiation used. For all radiation qualities investigated, the percentage backscatter shows a maximum at a backward distance from the scatterer 10 cm. Wide variations usually occur for soft radiations at small backward distances from the scatterer. The percentage backscatter distribution was found to deviate appreciably from the inverse square law within a range of 10%. It was also found that the value of percentage backscatter at one meter from the scatterer differs considerably from the generally accepted value 0.1% of the intensity of the primary beam at the scatterer(1).

INTRODUCTION

Backscattered radiations from objects exposed to primary X-ray beams comprise a possible source of radiation hazard to workers in radiological installations.

Detailed study of such radiations is essential for computing the most appropriate thicknesses of secondary protection barriers. The work of previous workers (2, 3. 4, 5, 6 and 7) in the field of radiation protection

(1) H. E. Johns, (1961). The Physics of Radiology, Page 635.

(2) H. E. Johns, J. W. Hunt and S. O. Fedoruk (1954). Brit. J. Radiol. 27, 443

(3) J. R. Greening (1954). Brit. J. Radiol. 27, 532.

(4) J. H. Martin and Ann Evans (1959). Brit. J. Radiol. 32, 7.

(5) Aaron. P. Sanders, C. W. Chin, K. W. Sharpe, Robert. J. Reeves and George. J. Baylin (1960). Radiology, 75, 595.

(6) J. H. Martin and Gwenda. M. Muller (1961). Brit. J. Radiol. 34, 227.

(7) C. K. Bomford and T. E. Burlin (1963). Brit. J. Radiol. 36, 436.

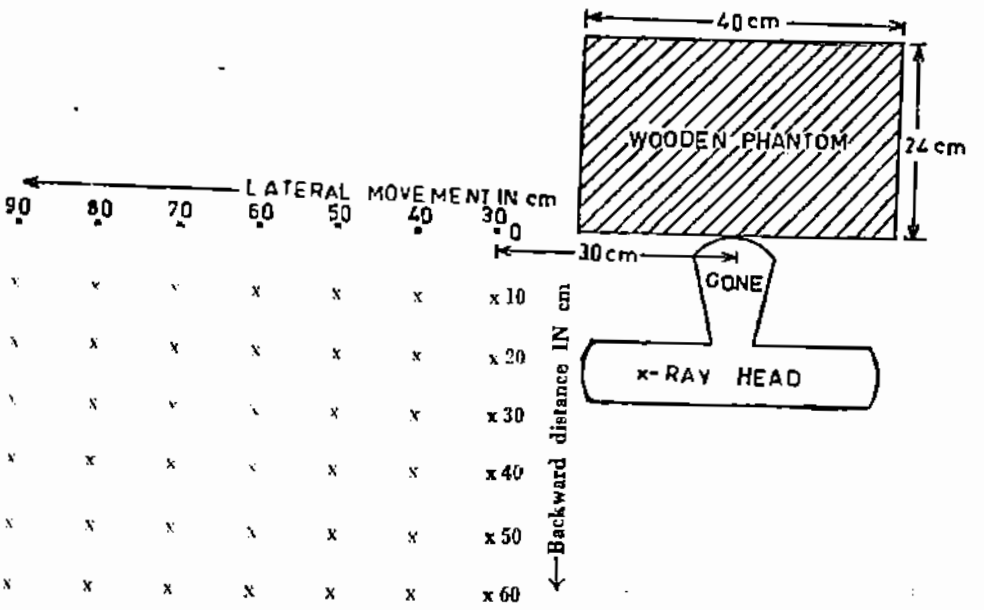

Fig. 1 — The arrangement used for measuring the backscatterd radiation at the places denoted by (X).

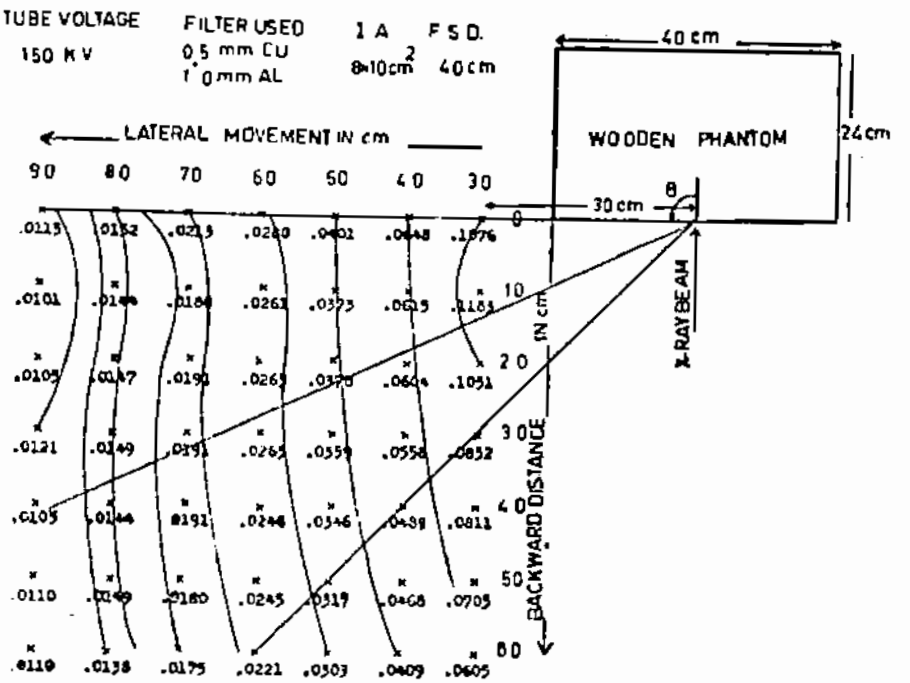

Fig. 2 — Show the different positions at which the percentage backscattered radiation was calculated and the isodose curves, for 150 Kv filtered by + 0.5 mm Cu / 1.0 mm Al

was mainly confined to assessment of percentage scattered radiation in specified directions.

In view of the complexity and variety of the results obtained it was felt that so far, no conclusive results are yet available, and that further experimental work is still needed by theoreticians before they can establish a concrete solution of the general problem of backscatter.

The present investigation is taken up with a view of providing such experimental data concerning the various parameters that are likely to influence the percentage backscatter X-radiation outside the phantom relative to surface dose.

The main factors investigated are :

1. Radiation quality ; (H.V.L.)
2. Irradiated area ; (I.A.)
3. Focal-scatterer distance ; (F.S.D.)
4. Lateral distance from the principal axis ; (L.D.)
5. Backward distance from the scatterer (B.D.)

METHOD AND APPARATUS

For the results to be more comprehensive, the usual operating conditions of X-rays are chosen comprising :

i - Radiation qualities of half-value layers ranging from 0.1 to 1.6 mm Cu.

ii — Irradiated areas ranging from 24 to 300 cm^2.

iii — Focal-scatterer distances ranging from 30 to 75 cm.

iv — Lateral distances from the principal axis ranging from 30 to 90 cm.

v - Backward distances from the scatterer ranging from 0 to 60 cm.

Measurements were carried out using rectangular fields and restricted to the plance containing the principal axis of the primary beam parallel to long side of the rectangular field. Figure (1) illustrates the set up used for measurements.

The backscattered radiation measurements were corrected for scattering from air and surroundings and expressed as percentage scatter Ds/Dp

(1) H. E. Johns (1961). The Physics of Radiology, Page 324.

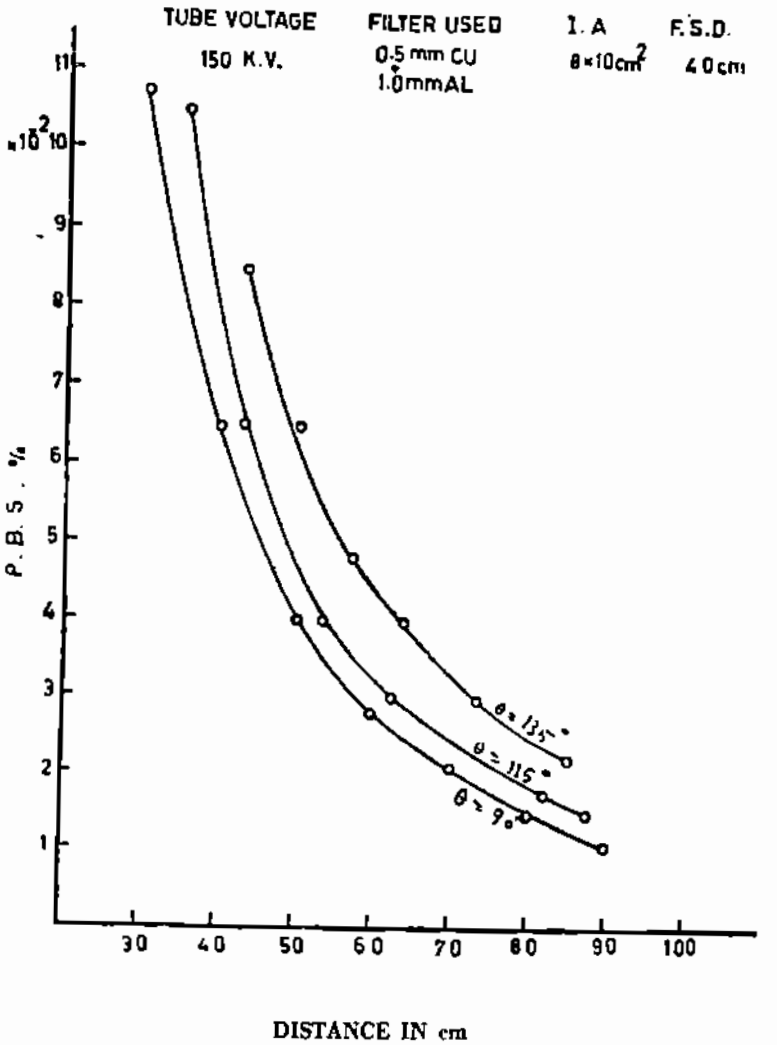

Fig. 3 — Relation between the percentage backscatter values and the distances from the centre of irradiated area at the selected angles (θ = 90°, 115° and 135°) for 150 Kv filtered by + 0.5 mm Cu / 1.0 mm Al

x 100, where Ds is the scattered dose at a certain position lateral to the phantom and Dp is the dose at a point on the axis of the useful beam at the surface of the phantom.

Leakage radiation from the tube housing under maximum operating conditions at the nearest point to X-ray head was found to be 0.093 mr/m ; a value which is relatively insignificant over the periods of exposures encountered in the measurements throughout this investigation.

The X-ray machine used for this investigation is a Philips 250 Kv — 25 mA, deep therapy unit. The phantom used is made of wooden cubes, of 8 cm side and density of 1.0 gm/c.c. The phantom has a cross-sectional area of 40 x 40 cm^2 and a thickness of 24 cm.

The dosemeter used is a Philips universal dosemeter with ionization and condenser chambers for measuring primary and scattered doses respectively.

RESULTS AND DISCUSSIONS

The results obtained for the scattered doses at the selected positions were corrected for scattering due to air and surroundings. These results — after correction — are given as percentage backscater relative to the dose at the center of the irradiated area on the surface of the phantom. Figure (2) shows a sample of the conditions at which the percentage back-scattered radiation was calculated. In the diagram each percentage is given at the corresponding position and isodose curves are then drawn.

The percentage backscatter values at various angles from the normal to the center of the irradiated area (as shown in the diagram) are deduced by drawing the lines making angles (θ = 90°, 115° and 135°). The points of intersection of these lines with the isodose curves give the required values. These values and their distances from the center of the irradiated area are given in table (1).

Relations between the percentage backscatter values and the distances from the center of irradiated area at the selected angles (θ = 90°, 115° and 135°) are given in figure (3). This figure is of exponential form and shows that percentage backscatter increases with the increase of angle θ . It is also clear that the percentage backscatter is minimum at angle θ = 90°, i.e., tangential to the surface of irradiated area. This is in agreement with that obtained by Bomford and Burlin in 1963.

TABLE 1

Tube voltage	Filter used	I.A.	F.S.D.
150 KV	0.5 mm Cu + 1.0 mm Al	8x10 cm²	40 cm

θ = 90°		θ = 115°		θ = 135°	
Distance	P.B.S.	Distance	P.B.S.	Distance	P.B.S.
30	0.1076	35.5	0.1051	43.0	0.0852
40	0.0648	43.0	0.0648	50.0	0.0648
50	0.0401	53.5	0.0401	57.0	0.0483
60	0.0280	62.5	0.0303	64.0	0.0401
70	0.0213	75.0	0.0213	71.0	0.0317
80	0.0152	82.0	0.0175	73.5	0.0303
90	0.0113	87.5	0.0152	85.0	0.0221

Detailed discussion of the other factors that are likely to affect the percentage backscatter are given here below.

1. *Effect of Radiation Quality :*

Figure (4) — a, b, c and d — illustrates the effect of radiation quality on the percentage backscatter at different backward distances.

It is clear that in general the percentage backscatter is greater, the higher the radiation quality used within the range investigated. In all cases, variations with backward distance are maximum over a distance of 30 cm with a peak value at 10 cm depth. Throughout the backward distances up to 60 cm, it seems that highly significant differences in percentage backscatter values are mainly due to the radiation quality especially at small focal-scatterer distances and irradiated areas. These wide overall differences are seriously diminished by increasing the focal-scatterer distance as far as the 1.6 and 0.8 mm Cu half-value layer beams are concerned ; while for the softest quality used the overall differences still remain roughly the same.

2. *Effect of Irradiated Area :*

Figure (5) — a, b and c — illustrates the effect of irradiated area on the percentage backscatter at different backward distances for radiation qualities of half-value layers 0.12, 0.8 and 1.6 mm Cu respectively at a focal-scatterer distance 50 cm.

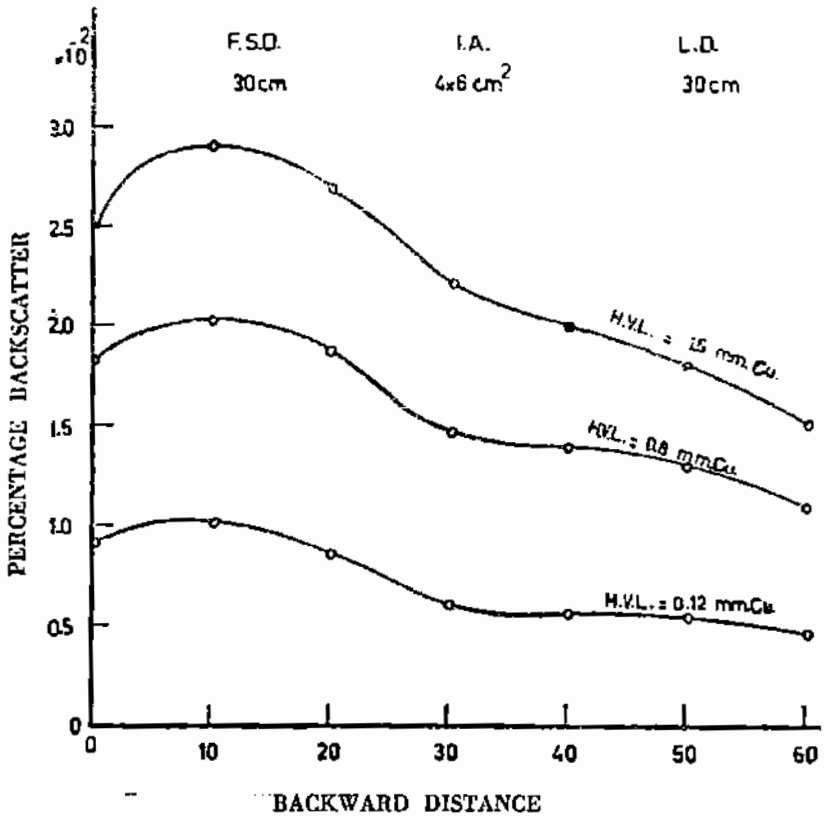

Fig. 4 (a) — The effect of radiation quality on percentage backscatter at different B. D. for focal scatterer distance 30 cm and irradiated area 4 X 6 cm².

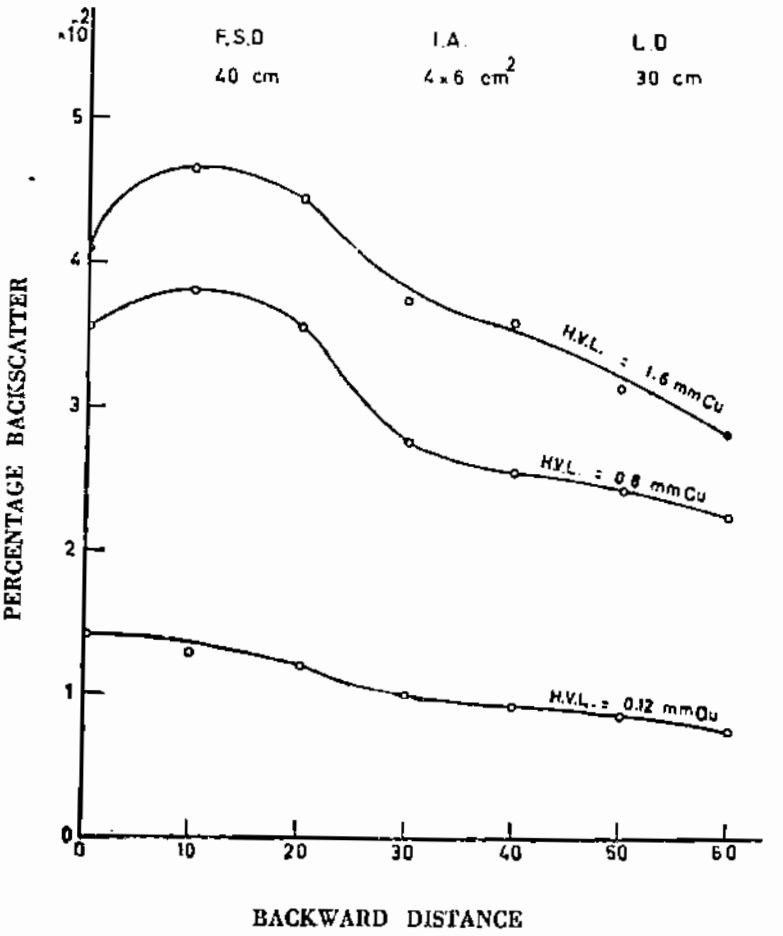

Fig. 4 (b) — The effect of radiation quality on percentage backscatter at different B. D. for focal scatterer distance 40 cm and irradiated area 4 X 6 cm².

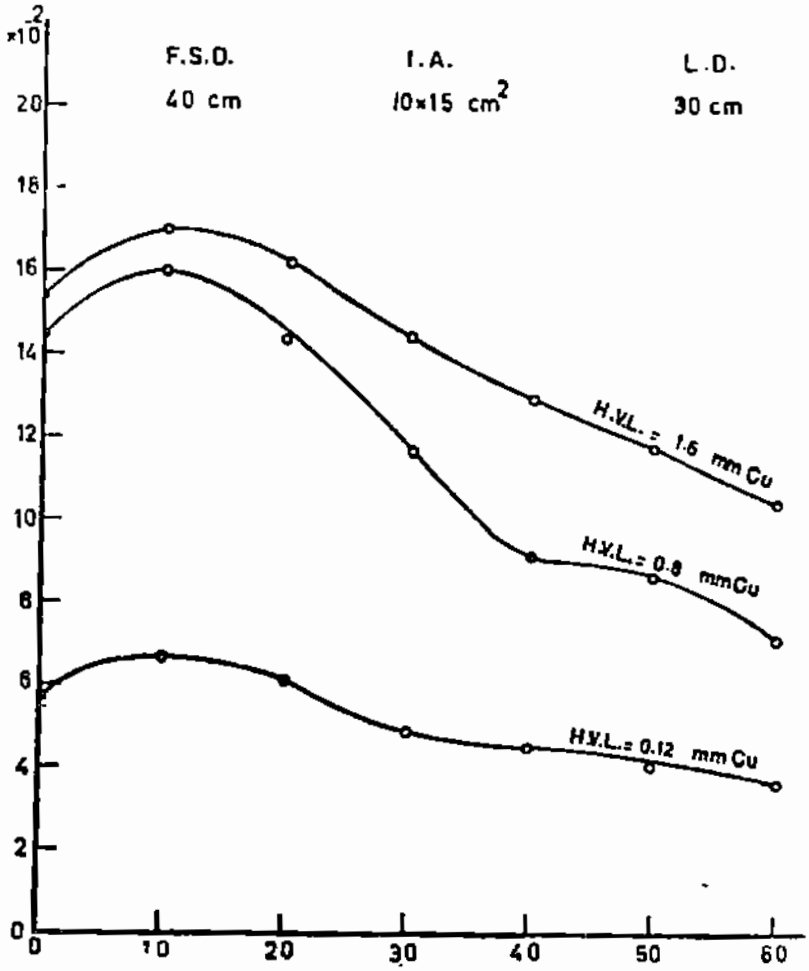

Fig. 4 (c) — The effect of radiation quality on percentage backscatter at different B. D. for focal scatterer distance 40 cm and irradiated area 10 X 15 cm².

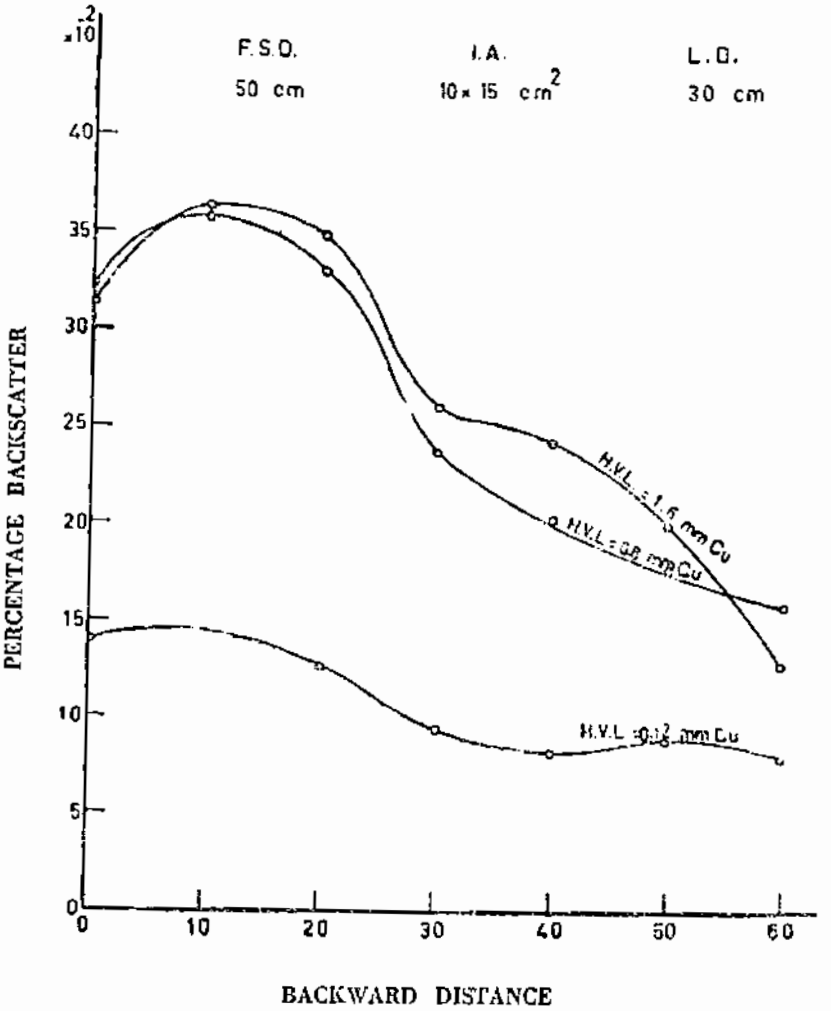

Fig. 4 (d) — The effect of radiation quality on percentage backscatter at different B. D. for focal scatterer distance 50 cm and irradiated area 10 X 15 cm².

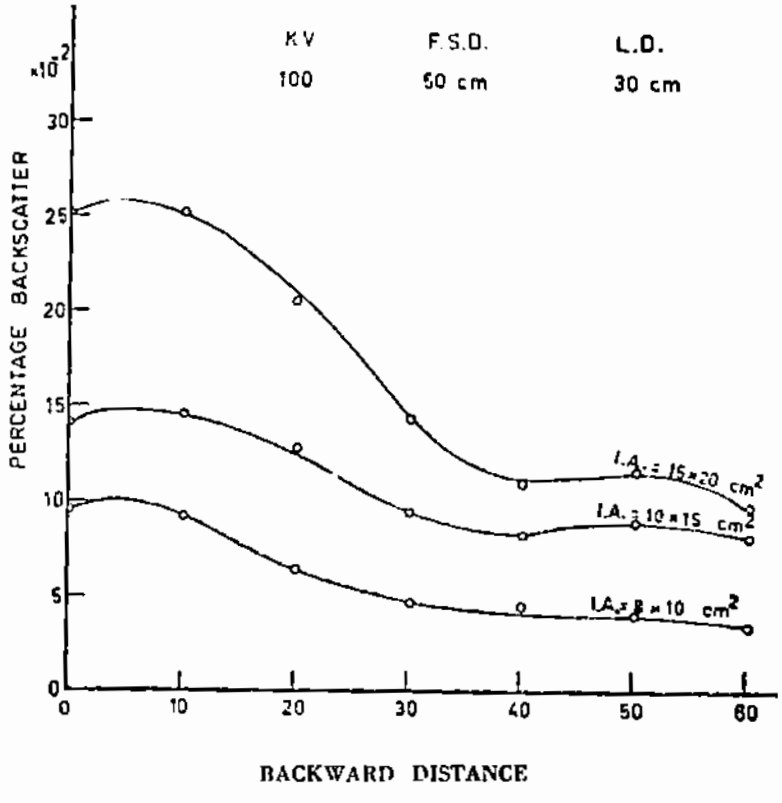

Fig. 5 (a) — The effect of irradiated area on the percentage backscatter at different B. D. for radiation quality of half layer 0.12 m m Cu. at focal scatterer distance 50 cm.

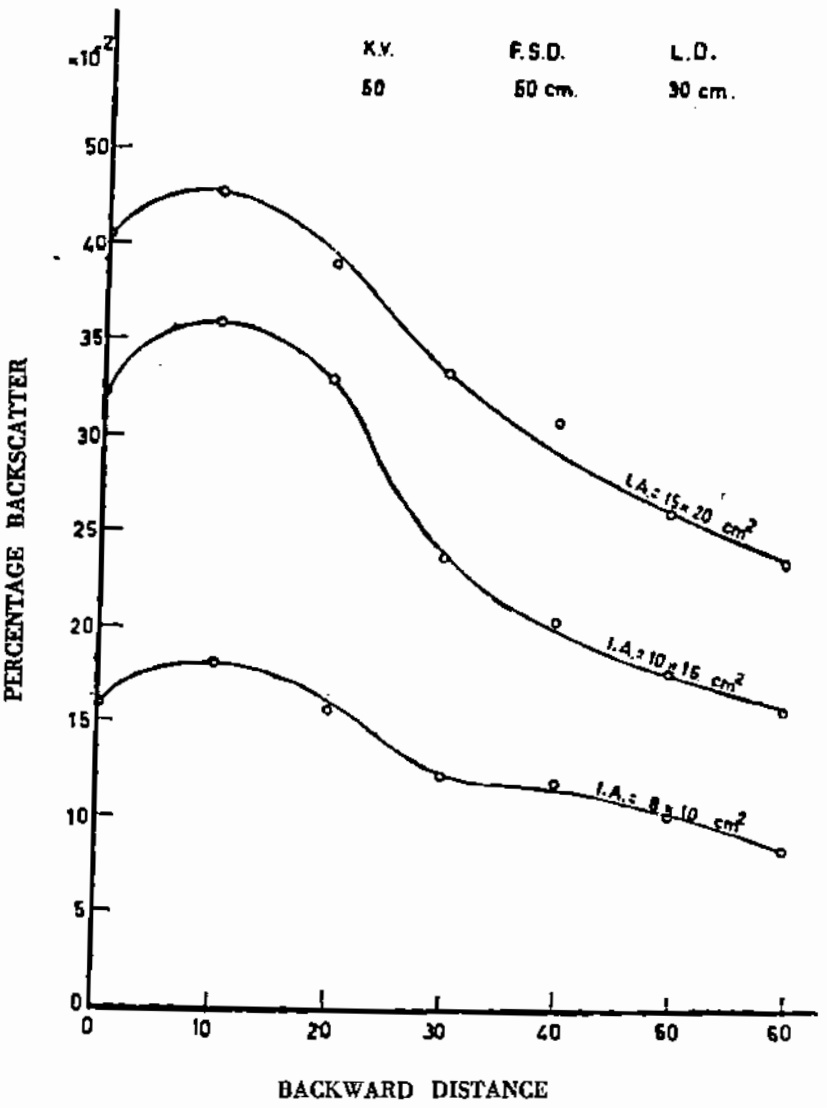

Fig. 5 (b) — The effect of irradiated area on the percentage backscatter at different B. D. for radiation quality of half layer 0.8 m m Cu. at focal scatterer distance 50 cm.

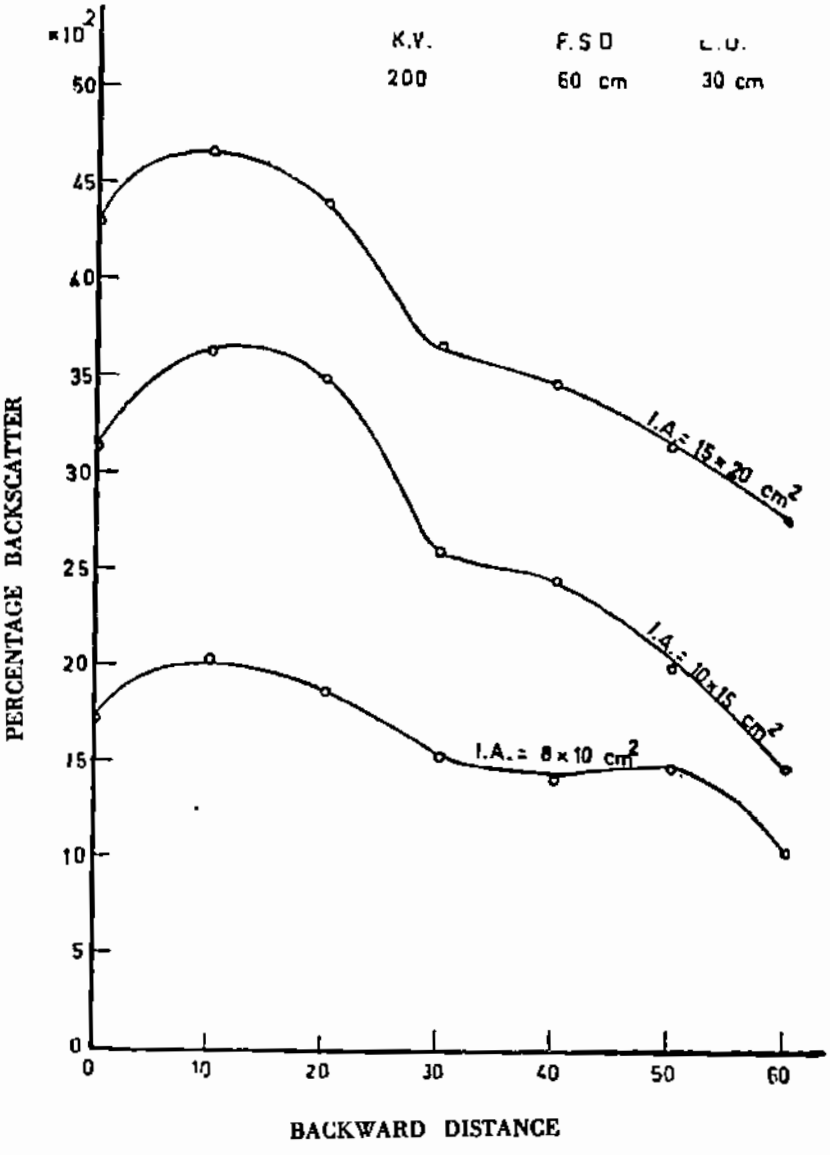

Fig. 5 (c) — The effect of irradiated area on the percentage backscatter at different B. D. for radiation quality of half layer 1.6 m m Cu. at focal scatterer distance 50 cm.

TABLE 2

Focal-scatterer distance (F.S.D.) = 50 cm

Lateral distance (L.D.) = 30 cm

Case A / B

I. A. cm²	Ratio of P.B.S. at different backward distances						
	0	10	20	30	40	50	60
8 x 10	1.08	1.13	1.19	1.27	1.21	1.48	1.25
10 x 15	0.97	1.01	1.06	1.02	1.21	1.13	0.95
15 x 20	1.06	1.09	1.13	1.37	1.12	1.20	1.17

Case A / C

I. A. cm²	Ratio of P.B.S. at different backward distances						
	0	10	20	30	40	50	60
8 x 10	2.29	2.86	2.86	3.32	3.13	3.61	3.16
10 x 15	2.23	2.50	2.73	2.77	2.98	2.25	1.85
15 x 20	1.59	1.85	2.15	2.58	3.15	2.73	2.83

It is clear from the accompanying graphs that in all cases the level of the backscatter is higher the bigger the irradiated area. Table (2) summarises the ratios of percentage backscatter at different backward distances. As the half-value layer alone is a crude specification of radiation quality ; ratios of percentage backscatter were found to fit roughly the empirical formula ;

$$\text{Ratio of percentage backscatter} = \sqrt{\frac{\text{Ratio of Kv} + \text{Ratio of H.V.L.}}{2}}$$

According to the suggested formula the ratio for the case represented by A/B is equal to 1.29 and for the case represented by A/C is equal to 2.76, where A denotes the P.B.S. at 200 Kv filtered by 1.0 mm Cu + 1.0 mm Al (H.V.L. = 1.60 mm Cu), B denotes the P.B.S. at 150 Kv filtered by 0.5 mm Cu + 1.0 mm Al (H.V.L. = 0.80 mm Cu) and C denotes the P.B.S. at 100 Kv filtered by 1.0 mm Al (H.V.L. = 0.12 mm Cu).

It is to be noted from table (2) that the ratios of percentage backscatter did comprise irradiation areas of ratios 1 : 2 : 4 approximately.

3. *Effect of Focal-scatterer Distance :*

Figure (6) illustrates a sample of the effect of focal-scatterer distance on the percentage backscatter at different backward distances for radiation quality of half-value layer 0.12 mm Cu.

It is clear that the percentage backscatter generally increases with the increase of focal-scatterer distance. This may be attributed to the fact that the depth dose, within a scattering volume, increases with the increase of the focal-scatterer distance giving rise to an increase in the percentage scattered outside the phantom.

It is also evident that wide variations of percentage backscatter are observed for large focal-scatterer distances especially at small backward distances up to 30 cm.

4. *Effect of Lateral Distance :*

Figure (7) illustrates a sample of the percentage backscatter at different backward distances for a radiation quality of half-value layer 0.8 mm Cu ; keeping other factors constant.

It is clear that for all radiation qualities used the level of percentage backscatter is higher the nearer we get to the scatterer surface (30 cm lateral distance from the principal axis) with a maximum at a backward distance of 10 cm. The further we get away from the side of the scatterer even with a relatively small distance of 10 cm (case of 40 cm lateral distance) the percentage backscatter values are brought down to half their original values for small backward distances up to 20 cm. Beyond 60 cm lateral distance, however, the percentage backscatter variations with backward distance are so small for all the radiation qualities investigated.

5. *Effect of Backward Distance :*

Figure (8) illustrates a sample of the relation between percentage backscatter and lateral distance at different backward distances (planes) for a radiation quality of half-value layer 1.6 mm Cu.

It is clear that all curves are generally of an exponential form. No systematic arrangement among the backscatter radiation levels at successive planes could be traced for the various qualities investigated. This is due to the combination of both attenuation and scattering in a complicated manner that makes the identification of the separate effects practically impossible.

It is clear that the backscatter component is greater at a lower plane (10 cm backward distance) than that at a plane parallel to scatterer

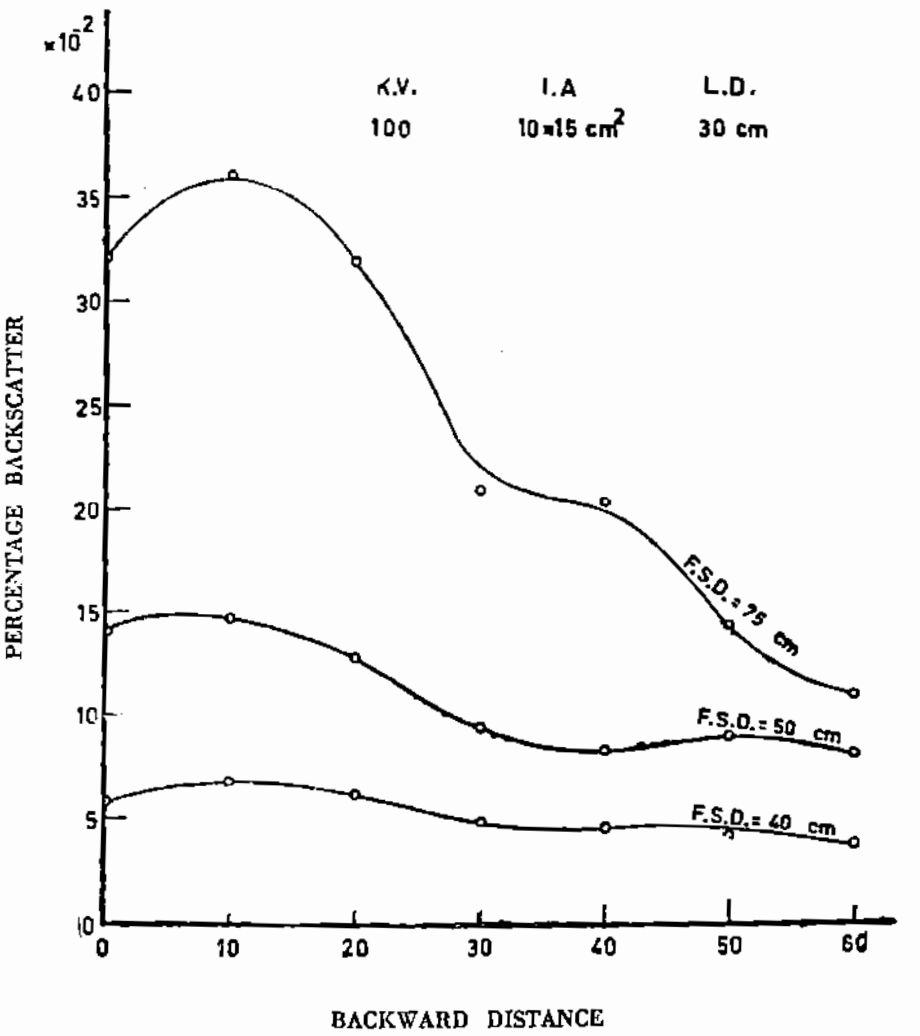

Fig. 6 — The effect of focal scatterer distance on the percentage backscatter at different B. D. for radiation quality of half value layer 0.12 mm Cu. at lateral distance 30 cm.

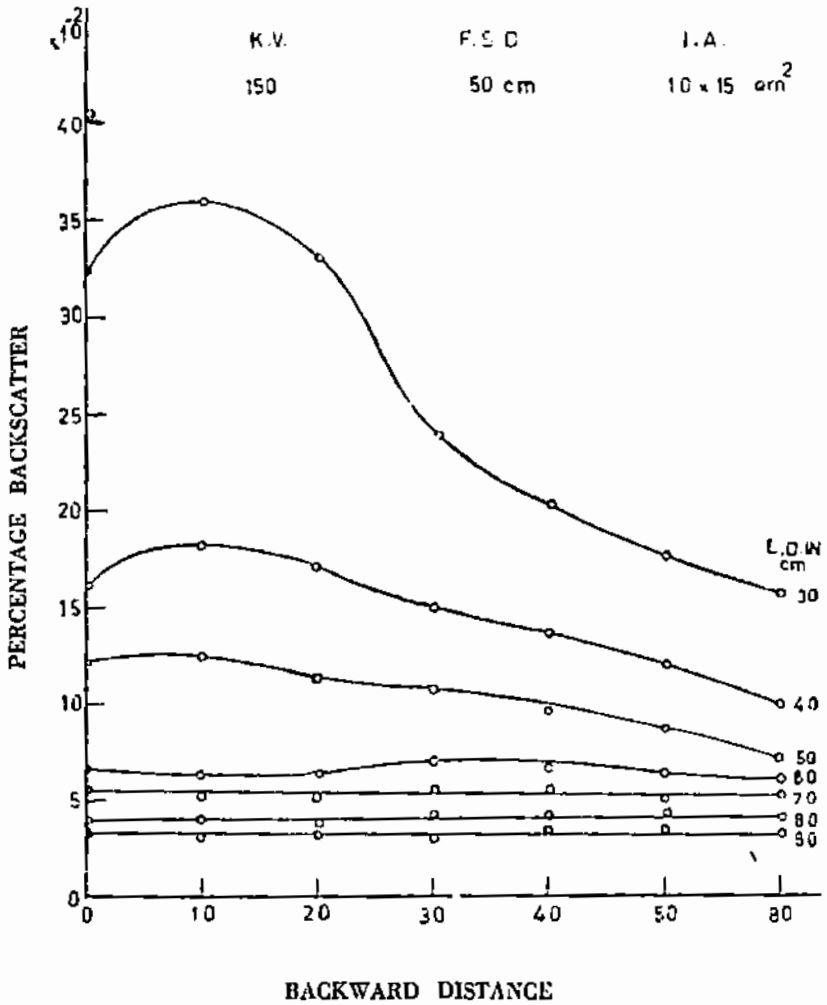

Fig. 7 — The effect of lateral distance on the percentage backscatter at different B. D. for radiation quality of half value layer 0.8 m m Cu.

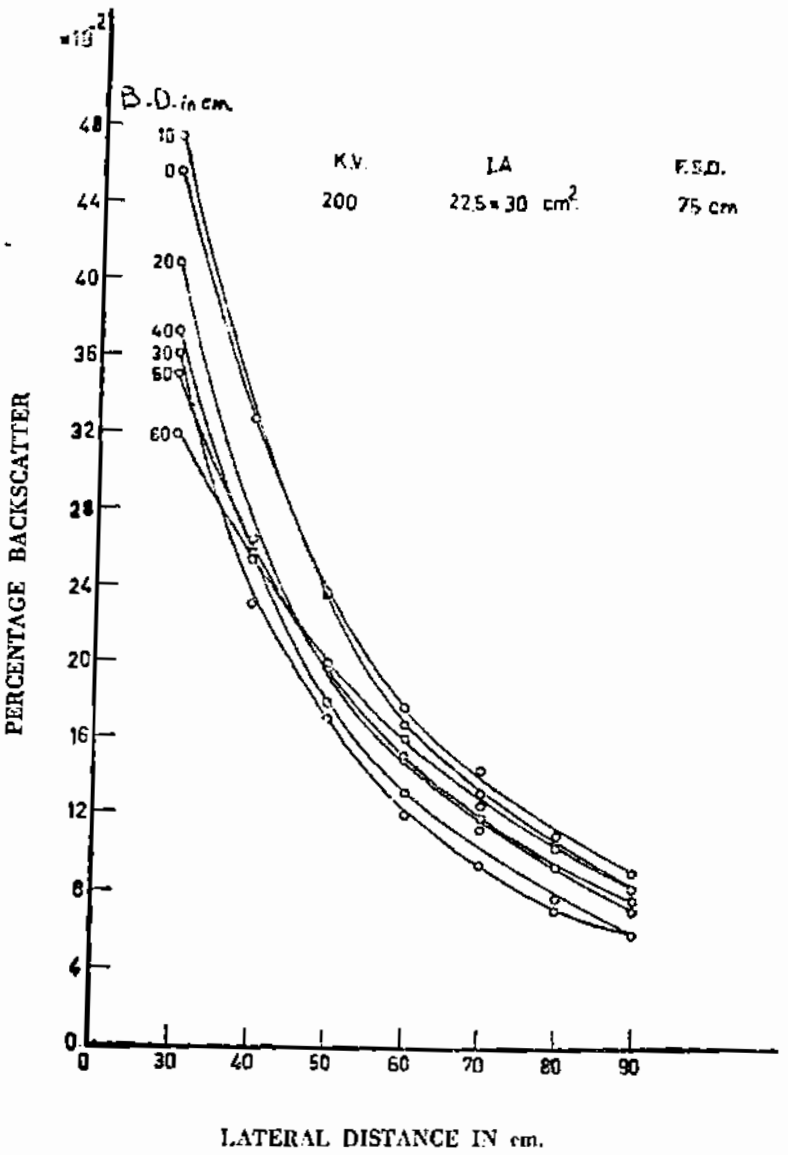

Fig. 8 — Relation between percentage backscatter and lateral distance at different B D. for radiation quality of half value layer 1.6 m m Cu.

surface (zero cm backward distance) at a lateral distance of 30 cm. This effect is further increased the softer the original radiation quality becomes. Beyond the 30 cm lateral distance irregularities show themselves up in virtue of the numerous other factors involved in the process.

6. *Percentage Deviation from Inverse Square Law :*

It has been illustrated that beyond 50 cm lateral distance the percentage backscatter values suffer slight variations with backward distance. Mean values of percentage backscatter (M) were obtained at lateral distances 50, 60, 70, 80 and 90 cm respectively. The ratios of these mean values at the first two successive planes were denoted by M_1/M_2 ; while the inverse ratio of the corresponding lateral distances were denoted by D_2/D_1. The percentage deviation of the ratio M_1/M_2 from the inverse square law was calculated using the formula :

$$\frac{M_1/M_2 - (D_2/D_1)^2}{(D_2/D_1)^2} \times 100$$

Table (3) summarises the percentage deviations under all operating conditions of focal scatterer distances and irradiated areas for a radiation quality of half-value layer 1.6 mm Cu.

TABLE 3

200 KV. Filiter — 1.0 mm Cu + 1.0 mm Al — H.V.L. = 1.6 mm Cu.

F.S.D. (in cm)	I.A. (in cm²)	Percentage Deviation from Inverse Squqare Law I %	II %	III %	IV %
30	4 x 6	— 1.39	— 2.94	+ 2.29	—
40	4 x 6	+ 2.08	+ 2.21	+ 4.58	— 7.08
	8 x 10	— 3.47	— 2.94	— 1.53	— 3.15
	10 x 15	—10.41	—	+ 3.82	— 2.36
50	8 x 10	0.00	— 2.21	— 3.05	—10.23
	10 x 15	— 0.69	— 6.62	+ 3.82	— 3.94
	15 x 20	— 7.63	+ 4.41	— 7.63	+ 5.51
75	12 x 15	+ 2.78	+ 1.47	0.00	— 3.94
	15 x 22.5	+ 6.94	+ 0.74	+ 4.58	— 1.57
	22.5 x 30	— 6.94	— 4.41	— 4.58	— 0.79

In view of the wide scatter of tabulated values, it is concluded that the percentage deviations of backscatter from the inverse square law vary within a range of 10 %.

The columns denoted by I, II, III and IV were calculated according to the corresponding formulae :

$$I = \frac{M_2/M_3 - (D_3/D_2)^2}{(D_3/D_2)^2} \times 100 \quad ; \quad II = \frac{M_1/M_2 - (D_2/D_1)^2}{(D_2/D_1)^2} \times 100$$

$$III = \frac{M_3/M_4 - (D_4/D_3)^2}{(D_4/D_3)^2} \times 100 \quad ; \quad IV = \frac{M_4/M_5 - (D_5/D_4)^2}{(D_5/D_4)^2} \times 100$$

It can be seen from the results that the percentage backscatter varies widely according to the radiation quality used. In all cases it is very much different from the generally accepted value at 1.0 meter from the scatterer which is taken as 0.1% of the intensity of the primary beam at the scatterer.

THE EFFECTS OF STORAGE ON CO^{60}-GAMMA RADIATED VICIA FABA. SEEDS

by

HODA HAKEEM

Univ. College of Girls,

Ein-Shams University, Helipolis, Cairo, U.A.R.

The use of radiation in practical breeding research has attracted considerable attention during the last years. In this respect, efforts were much directed towards general radiation effects on plants and seeds 1, 5 & 6. Although much work had been done on the nature and mechanism of chromosome damage by ionising radiation, yet further studies concerning analysis of chromosome breakage and the nature of chromosome aberrations seemed necessary.

The present work is concerned with the effect of Co^{60} gamma radiation on mitosis of *Vicia faba*. The effect on root mitosis of stored radiated seeds had been also studied.

MATERIAL AND METHODS

Seeds of *Vicia faba* (Var. Rebaya 40) were irradiated by Co^{60}-gamma rays. Irradiation doses were 4000 r, 7000 r, 12000 r, 16000 r, 20000 r and 25000 r, 100 irradiated seeds were planted in sawdust ; 100 untreated seeds were cultivated under the same experimental conditions and were used as controls. Half of the irradiated seeds were planted 48 hours after irradiation, the other after 4 months from the date of irradiation.

For cytological studies, the root tips of 50 seedlings from each treatment were taken. 30 roots were stained using the acetoorccin squash technique. The other 20 roots were prepared by the paraffin method. Lingitudinal as well as cross sections (10 micron thick) were studied after staining with gentian violet.

RESULTS AND DISCUSSION

Study of root cells of unstored and stored irradiated seeds showed that the mitotic rate was, as expected more affected by the higher doses. The rate of cell division decreased in the 20,000 r and 25,000 r (Table 1

and 2). In the lower doses, the rate of mitosis was more or less the same as in the control.

The percentage of induced abnormalities increased with increased doses of irradiation. The types of abnormalities differed in unstored irradiated seeds from that in stored ones. Root cells from unstored irradiated seeds showed more structural abnormalities than physiological such as breaks and micronuclii. (Table 1). Root cells from stored irradiated seeds showed more or less physiological than structural ones. (Table 2).

Stickiness of the chromosomes in metaphases and ana-telophases was observed. Lower doses affected light stickiness of the chromosomes, whose percentage was relatively high (Table 2). The degree of stickiness reached its maximum in the higher doses. In the metaphases stickiness varried from light stickiness to the stickiness of the chromosomes in one or more clumps. (Fig. 1 - 3). In the ana-telophases the result was the occurance of sticky bridges Fig. 4 - 5.

Stickiness was reported to occur as a result of irradiation with X-rays (Sax 1941), or as a result of treatment with various agents. e. g., Podophyllin (Husscin and Hakeem 1961 ; Amer and Hakeem 1964), Stickiness induced by X-ray-irradiation was attributed to excess chargo of nucleic acid on the chromosomes (Sax 1941).

The disturbances in the anaphases ranged from one or more (Fig. 5) lagging chromosemes to the spreading and irregular scattering of all the chromosomes all over the cell (Fig. 6). The latter type of disturbance might be attributed to complete disturbance of the spindle. Another type of abnormalities in the anaphases was the anaphase-groups : in which the chromatids were present in groups but not in true poles. Such anaphase type may originate from the metaphase clumps of chromosomes by longitudinal splitting of the chromosomes. Because of stickiness the chromosomes may be unable to move to different poles and thus lead to the above mentioned abnormality. Such anaphase type was also observed as a result of treatment with podophyllin (Amer & Hakeem 1964). Micronuclei and multipolar anaphases were also observed as a result of irradiation with all the employed doses. Tripolar anaphases were the most prominent (Fig. 7). Garcia (1960) treating Vicia plants with Co^{60} gamma radiation found, micronuclei, agglutination and fragmentation of chromosomes.

The percentage of chromosoome breakage was relatively small (Table 1). This may be due to stickiness which hinders the appearance of chromosome breaks.

TABLE 1

Rate of cell devision and percentages of abnormalities as affected by Co^{60} gamma radiation. (unstored seeds).

Dose (kr)	No. of cells counted	No. of divid. cells	% of cell divis.	% of abnorm cells	Percent. of the different abnormalities				
					multipol. anaph. & anaph-with lag. chromos. micro nuctei	Fully disturb anaphases	Loss of chrom-activity	Breakage	Stickiness
Cont.	5000	317	6.34	—	—	—	—	—	—
4	5000	255	6.1	10.2	31.1	13.5	11.3	38.2	17
7	5000	254	5.4	12.5	10.3	25.1	14.9	27.6	12.2
12	5000	298	4.96	12.9	21.6	16.4	7	28.4	18
16	5000	219	3.98	19.8	21.1	26.5	7.1	38.1	11
20	5000	212	3.24	23.9	20.1	26.6	17.6	27.2	8.5
25	5000	204	3.08	25.1	23.6	11.1	11.1	18.1	9.7

TABLE 2

Rate of cell devision and percentages of abnormalities as affected by Co^{60} gamma radiation. (Stored seeds).

Dose (kr)	No. of cells counted	No. of divid. cells	% of cell divis.	% of abnorm cells	Percent. of the different abnormalities				
					multipol. anaph. & anaph- with lag. chromos. micro nuctel	Fully disturb anaphases	Loss of chrom- activity	Breakage	Stickiness
Cont.	5000	310	6	—	—	—	—	—	—
4	5000	290	5.98	11.0	34.1	10.5	11.5	16.1	38
7	5000	229	4.6	13.6	30.3	15.1	14.9	9.5	32
12	5000	251	5.01	15.1	31.5	16.4	11	8.1	26
16	5000	199	4.00	20.1	26.4	21.5	11.1	8.0	30
20	5000	200	4.00	21.0	22	25.9	16.5	7.1	28.6
25	5000	161	3.21	23.9	15.3	32.6	18.0	7.0	2.5

In addition to stickiness, loss of chromaticity (Fig. 8 - 9) was frequently met with, especially in higher doses of irradiation. Sometimes it confuses with breakage of chromosomes, yet keen examination can differentiate the two abnomalities. Thus in stored seeds Co^{60} gamma radiation seemed to affect more the chemical chromosome structure and nucleic acid metabolism, giving rise to the above abnormalities.

SUMMARY

Dry seeds of Vicia faba (Var. Rebaya 40) were stored for 4 months after irradiation comparing unstored irradiated seeds with stored ones :

1. Rate of mitosis was not affected by storage period.

2. Percentage of abnormal cells was not affected.

3. Types of abnormalities deviated to physiological ones, rather than structural ones, in stored irradiated seeds.

REFERENCES

1. Amer, S. and H. A. Hakeem (1964) The effect of Co^{60} gamma radiation on Lupinus Termis Rad. Bot. 4 : 95-100.

2. Amer, S. and H. Hakeem (1964) Uber die merokinetische Wirkung de Podophyllins. Beitr, Biol, Pflamzer. 40 : 283-292.

3. Garcia M. H. (1960) Ensayos sobre la accion del Co^{60} en la division cellular de *Vicia faba*. Genet. iber. 12 : 53-97. (Plant breeding abst. 31 : 18 (1961).

4. Hussein, F. and H. Hakeem (1961) Cytological effects of podophyllin on *Vicia faba* and *Luffa cylindrica*. U.A.R. J. Bot., 111 : 85-98.

5. Karlaruhe Symposium (1961). (IAEA-FAO STI pnb 113).

6. Neary, G. J., S. N. Tonkinson and F. S. Williamson (1959). The relative biological efficiency of single doses of fast Neutrons and gamma-raya on Vicia faba roots and with effect of oxygen. I Reduction of root growth.

Iter. J. Rad. Biology. 4 : 201-215.

7. Sax, K. (1941) The behaviour of X-ray induced chromosomal aberration in *Allium* root tip cells. Genetics, 26 : 418-425.

Fig. 1

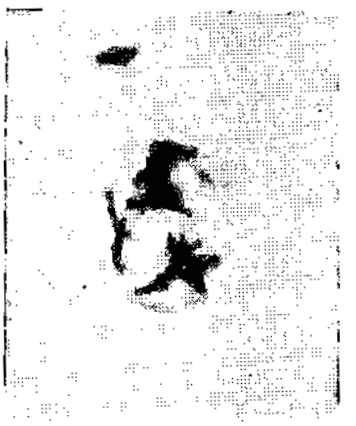

Fig. 2

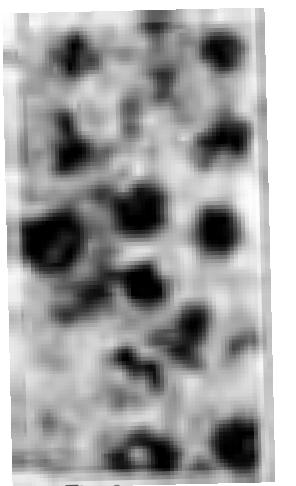

Fig. 3

Fig. 1 - 3. Different type of sticky metaphases induced by irradiation with 16 K_s (Fig. 1) and 25 Kr (Figs. 2 & 3).

Fig. 4

Fig. 5

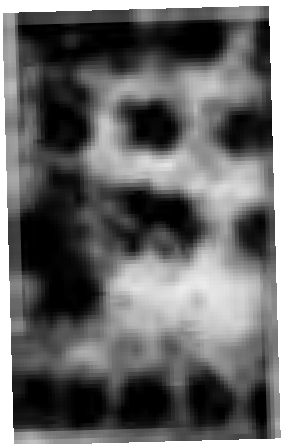

Fig. 6

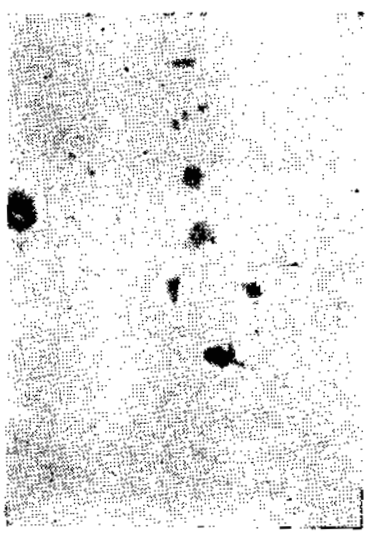

Fig. 7

Fig. 8

Fig. 9

Figs. 4-9. Different anaphase types, Sticky bridges and lagging chromosomes (Figs. 4 & 5), complete disturbed anaphase (Fig. 6), tripolar anaphase (Fig. 7) loss of chrimaticity (Figs. 8 & 9) resulting from treatments with 16 kr and 20 kr.

52
2

TWO ELASMOBRANCHS FROM THE MEDITERRANEAN

by

F. M. MAZHAR, Ph.D.

Zoology Department, College for Girls, Ein-Shams University

I — INTRODUCTION

It is attempted here to study the elasmobranch fishes of the Mediterranean.

At the north-western end of the Red Sea, the Bay of Suez has been artificialy communicated with the Mediterranean Sea and a certain amount of water exchange has since been taking place between the two Seas and so some elasmobranch fishes have been able to pass from the Red Sea to the Mediterranean Sea and vice-versa. The present work is a continuation to that being carried by Gohar and Mazhar 1964, on the elasmobranch fishes of the Red Sea.

ORDER SELACHII

SUB ORDER GALEOIDEA

FAMILY TRIAKIDAE

GENUS MUSTELUS Linck, 1790

MUSTELUS VULGARIS Müller and Henle 1841

Four specimens of this smooth dog-fish (Pl. I, Fig. 1), measuring from about 40 to 50 cm, were obtained from Alexandria market in August 1965. These were caught by Fishermen from Alexandria shores. The local Arabic name of this shark is « Matsula ».

The general shape of the body is slender, with the head flattened dorsally and sloping anteriorly to a thin-tipped snout. The trunk tapers caudally to a subcylindrical caudal peduncle.

The colour is greyish above and fades down the sides becoming whitish ventrally. The posterior margins of the fins are whitish. The tip of the caudal fin is blackish.

The gastric contents were found to be partly digested small fishes and prawns.

The teeth are adapted for crushing and accordingly have acquired bluntly rounded apices, slightly outcurved margins and are arranged in pavement-like rows, which range from $\frac{64 - 70}{54 - 60}$ in number. The teeth of the lower jaw are mostly larger than of the upper jaw.

The dorsal outline of the head slopes anteriorly into an ovate, thin-tipped snout, and the head length equals about twice its breadth, and is somewhat less than one fifth of the total body length. The eye is oval, has an horizontal eye pupil and a subocular fold. The spiracle is oval, oblique, about one fifth of the length of the eye. The gill-slits increase gradually in length from the first to the third, which equals the fourth, but the fifth is the shortest. The nostrils are slightly oblique with the front valve produced posteriorly into a rounded lobe and are nearer to the mouth than to tip of rostrum. The mouth is wide, and has a gap which is somewhat longer than the preoral length. Well-developed labial folds lie in strongly marked labial furrows at the corners of the mouth (Text-Fig. 1).

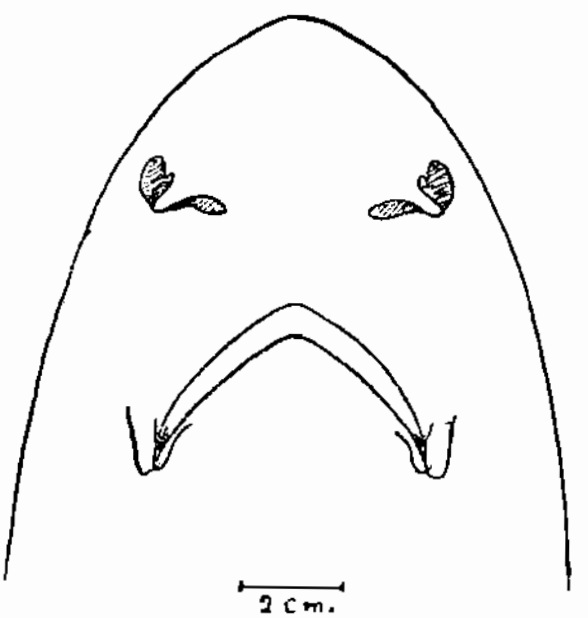

Text-fig. 1 — *Mustelus vulgaris*, antero-ventral view of head.

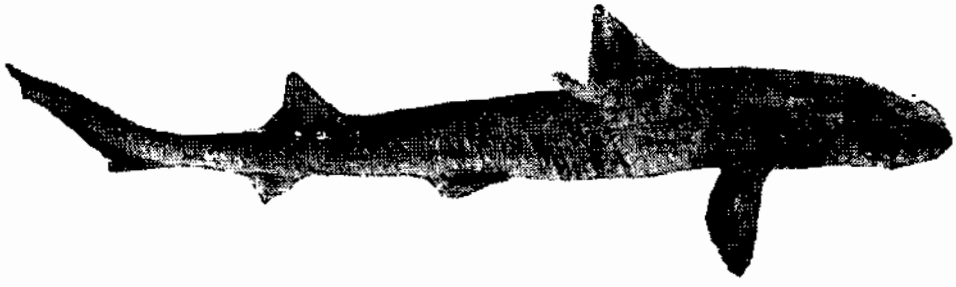

1 : *Mustelus vulgaris.*

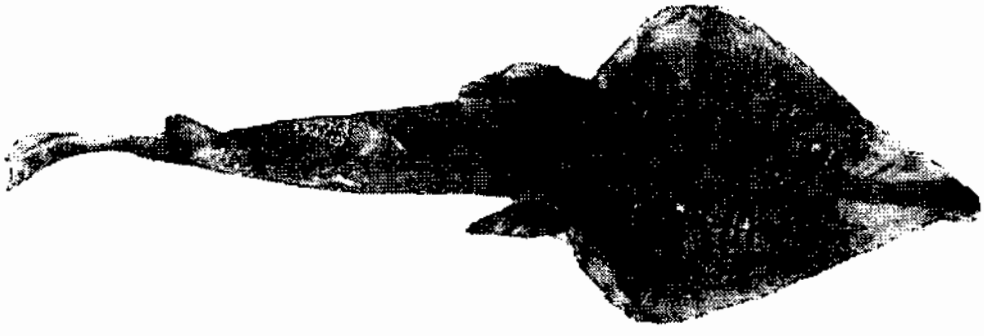

2 : *Rhinobatos rhinobatos* (Linn.).

The trunk is slender, tapers posterioly, and its height at the origin of the first dorsal fin is about one seventh of the length of the body from the tip of the snout to the origin of the caudal fin. The first dorsal fin originates somewhat anterior to the proximal end of the pectoral fin, and has a slightly outcurved anterior margin, a deeply incurved posterior margin and a nearly rounded apex. The second dorsal fin resembles the larger first dorsal and originates considerably anterior to the anal fin. The pectoral fin originates below the fourth gill-slit and has an outcurved proximal margin but incurved distal one. The pelvic fin occurs wholy nearly at middle distance between pectoral and anal fin and has nearly straight anterior but a slightly incurved posterior margin. The anal fin equals nearly half the second dorsal fin and originates nearly below its middle. The caudal axis is slightly raised and the caudal fin is about one fifth of the total body length. The caudal peduncle is subcylindrical and has no caudal pits, and the caudal fin has a well-marked subcaudal lobe, as well as subterminal notch.

The dermal denticles (Text-fig. 2 a) are very small, lanceolate, each has only a single pointed spine and two ridges, and the basal plate is embedded in the skin. These denticles are arranged in oblique rows alternating with each other, and are partly overlapping. The stomodaeal denticles (Text-fig. 2 b) resemble the dermal in general shape and arrangement, but the spine is less pointed.

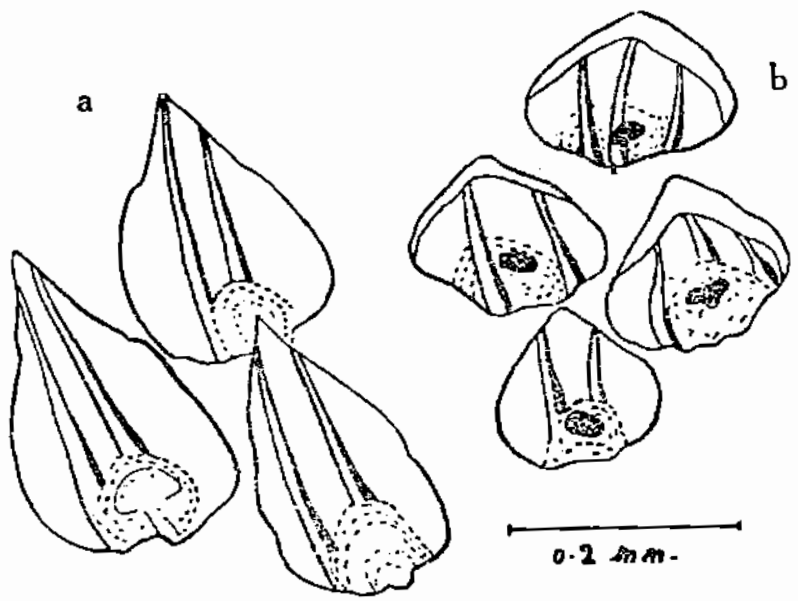

Text-fig. 2 — *Mustelus vulgaris*, (a) Dermal denticles from laterodorsal side of body, below first dorsal. (b) Stomodaeal denticles.

ORDER BATOIDEI

SUB ORDER RHINOBATOIDEA

FAMILY RHINOBATIDAE

Genus RHINOBATOS Linck 1790

RHINOBATOS RHINOBATOS (Linn., 1758)

This Mediterranean species (Pl. I, Fig. 2) is closely allied to *Rhinobatos schlegeli* previously recorded from the Red Sea (Gohar & Mazhar 1964). Four specimens ranging from 52 to 100 cm. were obtained from Alexandria market. The local Arabic name of this rhinobatoid is « Mehrat ».

The colour of this species is drab brown on the drosal side and cream white ventrally and so it is distinguished from *R. schlegeli* which is brownish above but with scattered whitish spots all over the dorsal side of the disc.

The snout in front of the orbits is $1\frac{4}{5}$ times in the length of the head and about $3\frac{1}{2}$ times the interorbital distance. The two lateral rostral cartilages are separate from one another along their whole length and converge in front. The eye is large and its long axis reaches about the spiracular length and about 4 - 5 times in the preorbital length. The two spiracular folds are moderately pronounced in young specimens but well developed in larger ones and the outer fold is longer than the inner one.

The two dorsal fins are of nearly the same size and shape, with the anterior margin somewhat outcurved while the posterior is slightly incurved. The place and size of the two dorsal fins are similar in this species and in *R. schlegeli*. The gill-slits are equidistant and the second, third and fourth gill-slits are equal in length and are longer than the first, while the fifth is the shortest. The first gill-slit is about $\frac{1}{3}$ of the length of the nostril, and the distance between the inner ends of the fifth pair of gill-slits is $\frac{10}{14}$ of that between the first pair. The mouth is narrow ; its width is about $\frac{2}{5}$ of the preoral distance and $1\frac{7}{10}$ times as the length of the nostril. The labial folds are moderately developed.

The tail is about $\frac{5}{8}$ of the total body length.

The teeth are arranged in 80 - 90 rows in each jaw and each row is in turn made up of 9 - 15 teeth, which have similar shape and arrangement as those of *Rhinobatos schlegeli*.

The skin is studded with minute arrow-shaped denticles (Text-fig. 3) more or less smooth to touch. A row of large compressed spines extends along the mid-dorsal line, from a distance posterior to the spiracles backwards till the second dorsal fin. On each shoulder, 3 spines are found, two of them along one line and the third is separate and occur outer to them. Also 2-4 spines occur around the eye and the spiracle of each side.

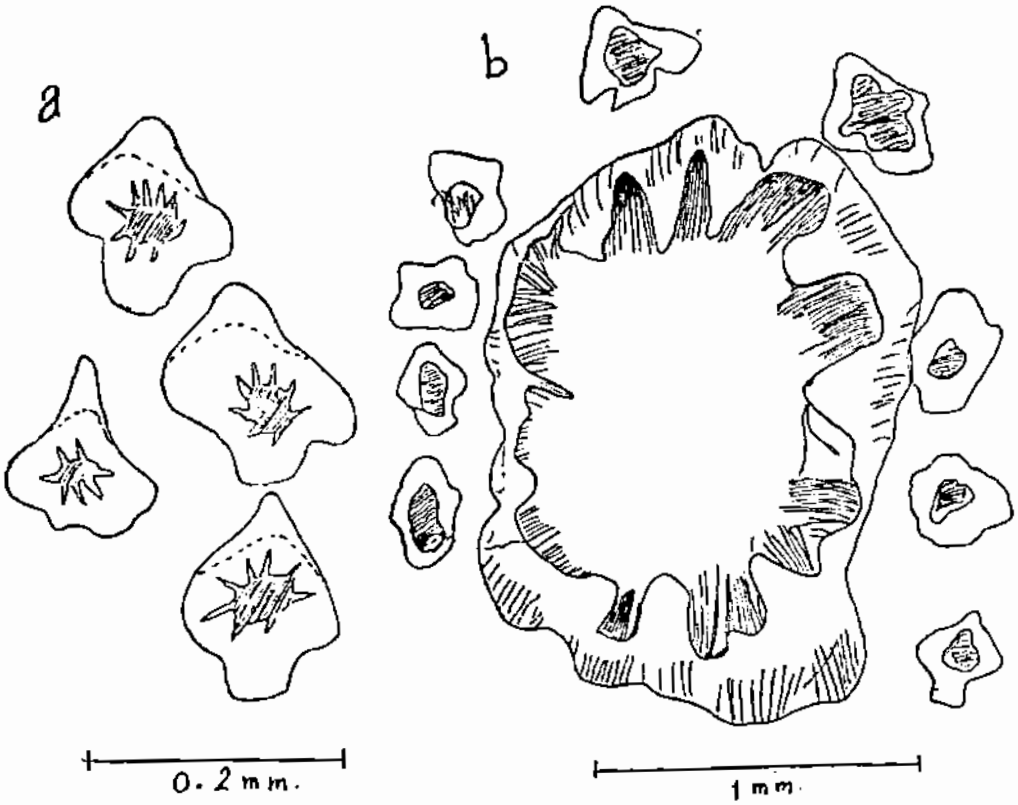

Text-fig. 3 — *Rhinobatos rhinobatos*, dermal denticles (a) : From laterodorsal side. (b) : From mid-dorsal line.

The stomach contents were partly digested prawn.

Fowler (1936) gave a short description to the same species. Bigelow and Schroeder (1953) described the group of *Rhinobatos rhinobatos* of the Eastern Atlantic and its immediate allies, as to have the anterior nasal flap extending inward across the inner margin of the nostril and so enchroaches upon the internarial space.

Our specimens conform with those of Chevey (1954).

III — CONCLUSION

The shark *Mustelus vulgaris* and the Ray *Rhinobatos rhinobatos* are Mediterranean species and are not Red Sea species.

IV — REFERENCES

BARNARD, K. H. (1925) : A Monograph of the Marine Fishes of South Africa. P. 59.

BIGELOW, H. B. and

Schroeder, W. C. (1948) : Fishes of the Western North Atlantic. Part I, Lancelets, Cyclostomes and Sharks. Memoir, Sears Foundation for Marine Research, No. 1. New Haven.

..... (1953) : Fishes of the Western North Atlantic. Part II, Saw-Fishes, Guitar Fishes, Skates and Rays. Memoir, Sears Foundation for Marine Research, No. 1. New Haven.

CHEVEY, P. (1954) : Commission Internationale Pour L'exploration Scientifique De La Mer Mediterranee Siège : à L'Institut Océanographique — Paris Secrètariat General : 3, Avenue Octave — Gréard — Paris (VIIe).

FOWLER, H. W. (1936) : The Marine Fishes of West Africa. Bull. American Mus. Nat. Hist., Vol. 70, Part I.

FOWLER, H. W. (1941) : Contributions to the Biology of the Philippine Archipelago and adjacent regions. Unit. Stat. Nat. Mus. Bull. 100. Vol. 13, PP. 879. Washington D.C.

GOHAR, H. A. F. and

MAZHAR, F. M. (1964) : Elasmobranchs of North-Western Red. Sea. Publ. Mar. Biol. Sta., Al-Ghardaqa, Red Sea, No. 13. p. 98-100.

IFFT, J. D. and

ZINN, D. J. (1948) : Tooth Succession in the Smooth Dog-fish, *Mustelus canis*. Biol. Bull. Woods Hole 93, pp. 100-106.

MÜLLER, J. and HENLE, J. (1841) : Systematische Beschreibung der Plagiostomen. Berlin.

SMITH, J. L. B. (1950) : A new Dog-fish from South Africa with notes on other Condrichthyan Fishes. Annals and Magazine of Natnral History, (12) 3, pp. 878-887.

مطبعة جامعة عين شمس ٣٢٧/١٩٦٦/٥٠٠

تم ـ بعون الله ـ طبع هذه الحولية بالهيئة العامة
للكتب والأجهزة العلمية ـ مطبعة جامعة عين شمس
فى ١٩ من ذى الحجة ١٣٨٨ الموافق ٨ مارس ١٩٦٩

مدير المطبعة

يحيى أحمد صالح